أحمد فال ولد الدين

الحدَق



رواية

أحمد فال ولد الدين



رواية

مكتبة 425



الكاتب: **أحمد فال ولد الدين**

عنوان الكتاب: **الحدَقي**

خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**

تنضيد داخلي: **سعيد البقاعي**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

ر.د.م.ك: **978-9938-992-77-9**

الطبعة الأولى: 2018



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com



يديرها:
رمزي بن حومة



إلى توأم الروح:

محمد ولد الحسن، ومحمد المختار ولد الخليل

وفاءً ومحبةً

الدوحة، 1438هـ

لا تهدأ الأصوات داخل غرفة الأخبار بقناة «العروبة». فاللهجات العربية تتهامسُ متحاورةً بشكل غنائي منسّق. يقف شاب تونسي قصير القامة رافعا يديه:

- وصلْ وصلْ! يعيْشكْ خويَ، أمورك امْريغْلَة؟

فيجيبه مغربي بصوت خشن مؤشرا إلى الأعلى بإبهاميه من وراء مكتبه:

- واخا، واخا، خويَ.

وفي طرف الغرفة المؤدي إلى الاستديو الرئيسي تركض فتاة لبنانية قائلة بلهجة غضْبى:

- هَيْدَ التقرير مَنُّومزبوطْ! لازم يرجع للمراسل علشان يعيد ترتيبو.

وفي وسط الغرفة، يقفز منتج أخبار سوداني مادًّا يدَه بورقةٍ:

- عليك الله يا زولْ، اكتب لي الخبر دا سريعا، قبل ظهور الزعيميْن بمؤتمرهما الصحفي.

ولا يكاد ينهي عبارته حتى يكون صحفي جزائري قد تلقف الورقةَ المرقومة بالإنكليزية ليبدأ تحرير الخبر. وراء الصحفي الجزائري،

يتحدث شاب قطري من قسم التبادل الإخباري هاتفيا مع مراسليْن في وقت واحد؛ أحدهما من نيروبي والآخر من واشنطن، حاثاً إياهما على وصول تقريريْهما خلال أقل من ساعة، أي قبل نشرة الظهيرة:

- لا، لا! فيه وقت وايدْ قبل النشرة!

كان ذلك التنوع والحركية أول ما شد انتباه محمد القروي لحظة دخوله غرفة الأخبار.

وقف في طرف الغرفة بقامته المربوعة وشعره الناعم، وأنفه الحائر بين أن يكون أفطس أو أقنى. نظر إلى مرآة مثبتة في طرف الجدار متأملا جبهته الغمّاء؛ فالشعر يكاد يغزو كل أطرافها المضغوطة كخريطة دويلةٍ ضعيفة واقعةٍ بين إمبراطوريتين متنافستين.

زمّ شفتيه الغليظتين، مفكرا في أنهما الإرث الوحيد الذي تركته جدة والده الزنجية في عائلته. فلولا أن كل أفراد عائلته يتميزون بشفاههم الإفريقية الغليظة لما دار بخلد أيّ منهم أن جدتهم زنجية؛ إذ كان القروي شديد البياض، سبط الشعر.

جال قليلا في الغرفة، لكن أحدا لم يلحظ وجوده، بَلْهَ أن يتلقاه بالتَّرحاب. التفت يمينا فرأى إحدى المذيعات جالسة كتمثال، وأمامها رجل يرتدي ثوبا ناصع البياض، ويقول بصوت مرتفع موجها نظره إليها كأنه يتوعّد:

- نايِنْ، أيتْ، سفن، سيكس، فايف، فور، ثري، تو، ونْ.. كْيُو!

نكزه قلبُه انزعاجا من المنظر؛ مستغربا لمَ لمْ ينطق الرجل الأرقام بالعربية.

التفت يسارا فرأى فتاة فاغرةً فاها، ناظرةً إلى حاسوبها. اقترب منها مسلّماً بصوت خافت.

لكن سلامه ما زادها إلا انهماكا فيما بين يديها. سلم من جديد بنبرة احتجاج، فالتفتت نصفَ التفاتة:

- أهلين!

- لو سمحتِ، أين مكتب رئيس التحرير؟

قفزت بخفة، لتقوده إلى مكتب مطلّ على غرفة الأخبار لا يبعد أكثر من عشرة أمتار. فلو كان رفع بصره قبل سؤالها لرآه.

شكر الفتاة التي لم تنتظر شكره وهي تولي مسرعة، فيما كان يؤنب نفسه على سؤالها.

دخل على رئيس التحرير، فشعر أن درجة التكييف في مكتبه أكثر حدة منها في غرفة الأخبار.

- السلام عليكم.

- أهلا.

بدا رئيس التحرير قصير القامة جدا. حتى إنه لمّا وقف من وراء مكتبه ليحييه لم يلاحظ كبير فرق بين قامته مندساً في مقعده، وقامته واقفا مادًّا يده للمصافحة.

دخل رئيس التحرير في الحديث حالا.

- كيفك يا أستاذ؟

وتابع دون انتظار جواب:

- ستبدأ عملك. لكن بدل أن تبدأ في العمل مباشرة، لابد أن تمر

بالأقسام الرئيسية أياما حتى تعرف طبيعة سير العمل.

كان رئيس التحرير يتحدث واقفا -أو شبهَ واقف- والقروي جالس. فقاطع رئيسَ التحرير قائلا:

- كيف؟

- يعني، ستعمل ثلاثة أيام مع قسم الصحفيين حتى ترى طبيعة تنسيقهم مع المنتجين، وكيف يتلقون التكليفَ من منتج النشرة، وكيف يكتبون الأخبار والتقارير. ثم تنتقل لقسم المقابلات، فترى كيف يتواصلون مع الضيوف والمراسلين ليرتبوا ظهورهم على الشاشة. وأخيرا، تنتقل إلى قسم التبادل الإخباري لترى كيف يحجزون الأقمار الصناعية للمراسلين والضيوف.

- لكنني سأعمل مدققا لغويا، وما دخل سيبويه في الأقمار الصناعية؟

ابتسم رئيس التحرير ابتسامة ساخرة، مستثقلا مزاح القروي. فبدا وجهه طفوليا بعد ظهور أسنانه الصغيرة الشبيهة بأسنان الأطفال، رغم كثافة الشعر المحيط بشفتيه. ثم قال:

- أعرف ذلك، لكنك بحاجة لفهم دورة العمل.

قالها رئيس التحرير بنبرة موحية بأن الحديث انتهى. وضع نظارتيه على مكتبه ثم استدار خارجا وهو يقول:

- تفضل معي.

دخلا المكتب الموالي، فإذا بسيدة أربعينية جالسة. بادرها رئيس التحرير:

- ضعيه على وردية التعرف على العمل، ثلاثا، ثلاثا، ثلاثا.

ثم ابتسم ابتسامة جافة كأن صاحبها يفكر في أمر بعيد مما هو فيه، وقال:

- بالتوفيق يا أستاذ محمد.

وقف القروي أمام السيدة الأربعينية، فلا هي دعته للجلوس على الكرسي الوحيد، ولا هو عرف هل عليه الجلوس أم لا. ظلت تنظر إلى حاسوبها كأنها أضاعت فيه أمرا، أو كأنها تتعرف على ما فيه للمرة الأولى.

ثم صوّبت إليه نظراتها من فوق عدسات نظارتيها -اللتين تدحرجتا تِجاه أرنبة أنفها- وقالت بلهجة لبنانية:

- إمْتَ بدَّك تبدأ يا محْمد؟

- يمكنني البدء غدا.

التفتت وقالت لرئيس التحرير هامسة:

- هَيْدا هو؟

ارتبك مفاجأةً من سؤالها حين لاحظ سماع القروي للنجوى:

- نعم، الشاب الذي تحدثنا عن علمه وثقافته... و..

لكن القروي فهم من سحابة التوتر التي ظللت وجه رئيس التحرير أن الحديث كانت له مرامٍ أخرى. ازداد توتر رئيس التحرير عندما مرّ رجلٌ أصلعُ بدينٌ من أمام المكتب. ثم وقف قليلا متردِدا في الدخول، وواصل المشي ولم يدخل. وتبادل رئيس التحرير والسكرتيرة نظرات زائغة.

رفعت السكرتيرة جفنيها قائلة:

- طيب. عليك الحضور من الثامنة وحتى الخامسة.

- شكرا.

خرج من مكتبها المطل على غرفة الأخبار. التفت يمينا فرأى تمثال المذيعة قد نُفخت فيه الروح، إذ كانت هذه المرة تظهر على الشاشة المعلقة في طرف غرفة الأخبار، وهي تتحدث على الهواء بروح وحيوية بعيدين عن الصورة التمثالية الجامدة التي رآها عليها أول مرة.

ضحك في نفسه قائلا:

- كيف يحيي الله الموتى!

التفت إلى الاستديو الصغير الذي تذيع منه باحثا عن مدير الاستديو، صاحب الأرقام الإنكليزية. رآه جالساً على كرسي غير بعيد من المذيعة، وعلى أذنيْه سماعات. نظر إليه بحنق نظرَ معلمٍ إلى تمليذ متمرد، وقال في نفسه:

- ينبغي أن يكون أول تدقيق لغوي هنا هو انتزاعَ تلك الأرقام الإنكليزية من بين فكيْ ذلك العربي، كيف يحدث هذا في قناة عربية!

شق غرفة الأخبار ليجد نفسه في الممرات المتعرجة القائدة إلى مخرج القناة. كان ذهنه ضاجا بأسئلة عن أسباب اختيار مدير الاستديو نطق الأرقام بالإنكليزية ما دام المخاطَب عربيا والقناة كذلك. هل يجد المخرج لذةً عندما ينطق الأرقام بلغة أجنبية لا يجدها عندما ينطقها بلغة أجداده؟!

كان يمشي مسرعا في الممرات، ولم ينتبه إلا وهو مصطدم بسيدة

بدينة تحمل كيسا فيه وجبة من وجبات مكدونالدز. تناثرت قطع البطاطا المقلية، وانسكب الكوكاكولا على عباءتها السوداء.

- أوه، آسف، آسف

- أنت ما تشوف؟ ما عندك عينين؟

مشكلته أنه يمشي دائما بسرعة كأنه في سباق. فهو من مجتمع تعوّد المشي في فيافٍ منبسطة لا ازدحامَ بها، يمشي كيفما شاء؛ يلتفُّ يمينا متى شاء، ويسارا أنّى أراد، حانيا رأسه للأسفل أو رافعا إياه.

لم يعرف كيف يتصرف. فالسيدة البدينة تبدو مثل لبؤة جائعة اختُطف وحيدُها.

انحنى ليلتقط البطاطا المتناثرة، فنهرته:

- لا، دعها! هل تظنني سآكلها؟ هذه زبالة!

قال وهو يناولها قطعا من البطاطا مبتسما:

- كانت زبالة عندما اشتريتِها. إن بني أميركان الذين صنعوها يسمونها بالإنكليزية «جَنكْ فُودْ»!

حدجته بنظرات غاضبة، واحتقرت حذلقته وقوله: «بني أميركانْ» كأنه يجوّدها تجويدا. كما كرهت أكثر نطقه لكلمة «جنك فودْ» بإنكليزية فصيحة كأنه أحد أبناء ويلز. بادلها النظر فرأى وجهَها الدائري الصغير المنغرس في جسمها الضخم كأنه مغموس في العرق، وعينيْها الضيقتين تكادان تنبجسان دموعا. كانت شفتها السفلى ترتعد رعدة خفيفة أسالتْ حبيباتِ عرقٍ كانت متجمعة على حافتها.

استدارت وهي تقول هامسة:

- والله مجنون!

ظل واقفا ثواني، وبيده اليمنى قبضة من البطاطا المقلية. ثم ظهر له رئيس التحرير في نهاية الممر الضيق، فرمى البطاطا بشكل هستيري حتى لا يراه.

ثم فكر كيف سينظر إليه رئيس التحرير بعد اليوم، وكيف أنه لن يفسر وقوفه وسط الممر وفي يده البطاطا إلا بأنه يأكل واقفا في الممرات!

تحرك من مكانه متجها إلى مخرج القناة وذهنه ضاج بأسئلة منطقية وأخرى سخيفة.

ما إن خرج من الباب حتى لسعته حرارة الشمس وكثافة الرطوبة مذكرةً إياه بأن الفصل فصل صيف حارق، رغم البرودة العالية داخل مبنى القناة.

فكر في أن الحياة كلها في هذه المدينة التي يعيش فيها حياة مصطنعة؛ فكيف تكون غرفة الأخبار بتلك البرودة في جو كهذا؟!

ثم قاده تفكيره إلى الصورة غير الحقيقية التي قد ينظر بها إليه رئيس التحرير كآكل بطاطا في ممرات واحدة من أهم قنوات العالم العربي، وكيف أن السيدة صاحبة البطاطا أيضا أقنعتها الحياة الاستهلاكية بأكل تلك الفضلات باعتبارها طعاما نافعا.

خرج يمشي بسرعة، متأملا في أن الحياة المصطنعة في هذه المدينة ما هي إلا صورة للحياة كلها.

وصل إلى موقف السيارات، وألقى نظرة على مواقف «سوق

واقف» المجاور، وذهنُه مشغول بالتفكير في طبيعة ذلك التهامس بين رئيس التحرير والسيدة الأربعينية.

***

مرت أشهر كأنها أعوام، واندمج القروي في عمله اندماجا من نوع خاص.

كان ذات يوم يجلس على مكتبه الواقع في الطرف الشمالي من غرفة الأخبار، واضعا كفه اليسرى تحت ذقنه، بينما تتراقص أصابعه على حافة شفته العليا وهو يقرأ بتضايق خبراً كتبه أحد الصحفيين الجالسين عن يساره.

كان يراوح بين قراءة النص بانزعاج والنظرِ إلى الصحفي كاتب الخبر بحنق. ومما يزيد في حنقه أن هذا الصحفي بالذات متكبرٌ يحسب نفسَه صحفيا عظيما.

كانت صيغة الخبر كالتالي:

«علم مراسل العروبة في غزة أن جنودا إسرائيليين يتواجدون الآن قرب منطقة الشجاعية داخل المدينة... وكان الناطق باسم كتائب القسام قد قال إن الهجوم الإسرائيلي الأخير على غزة سيكون الأخير».

لم يستطع القروي الصبر، فقفز من فوق مقعده كأن نارا مستْه:

- بالله عليكم! أي صياغة هذه؟ ارحمونا!

التفت كل من في الغرفة صوب الصوت. فالأجواء كانت هادئة تماما، غير أن الضجيج الذي كان في رأس القروي فصله عن جوها الهادئ، فلم ينتبه لارتفاع نبرته.

حدجتْه كل العيون من أطراف الغرفة استغرابا. فشعر بالخجل ثواني، لكن سَوْرة الغضب سرعان ما عاودته؛ فقال بنبرة أكثر هدوءا:

- ومنذ متى كان الجنود الإسرائيليون «يتواجدون؟» إن التواجد تفاعل من الوَجْد، والتواجد حال من أحوال المتصوفة، لا تصرّفٌ من تصرفات جنود الاحتلال. ثم ما الذي يعنيه هذا الصحفي العظيم الذي حرر الخبرَ -أو عبّده- بقوله: «الهجوم الإسرائيلي الأخير على غزة سيكون الأخير!» فهل اجتمع صاحبنا بقائد جنود الاحتلال ليقول له إن الهجوم سيكون الأخير إلى أبد الآبدين؟ أما في لغة العرب عبارة مثل الهجوم الأحدث مثلا؟

كانت كلمات القروي تصل إلى سمع الصحفي الذي حرر الخبر. كان الصحفي يعرف أن زملاءه دخلوا على برنامج نظام النشر، وعرفوا أنه هو من كتب الخبر بالتعرف على اسم المستخدم الخاص به.

لم يتحدث الصحفي، وظل يداري غضبه خوفا من نقاش مع القروي يعلم مسبقا أنه سيخسره. فقد تعوّد كل من في الغرفة على أن أي نقاش لغوي معه آيل مناقشه فيه للخسران. فالرجل يكاد يحفظ معظم دواوين العرب وقواميسها وقوانين لغتها.

أشاح أحد معدّي النشرات بنظراته عن شاشة حاسوبه محاولا تلطيف الجو:

- أما أنا فلم أسمع قط أن التواجد مصطلح صوفي، وما دخل التواجد في الزهد؟

التفت إليه القروي، شارحا جذر كلمة «وجد» واختلافات معانيها. وفي نهاية حديثه قال:

- قال الشماخ بن ضرار:

فلما شراها فاضت العينُ عَبْرَةً

وفي الصدر حزّازٌ من الوْجد حامِزُ

أنشد القروي البيت الأخير بلغة فصيحة وصوت موقّع، كأنه يُنهي به حديثه في الموضوع. فتضايق صحفي من قسم الاقتصاد ضعيف اللغة، كثيرا ما يُتعبه القروي كلما جاء ليصحح له تقريرا، فقال بلهجة ساخرة:

- «حامز» إيه يا أخي.. إيه ده!؟ دي لغة عربية؟

خرج رئيس التحرير من مكتبه مصفقاً احتجاجا على ارتفاع الصوت.

عاد الهدوء إلى غرفة الأخبار، وعاد القروي فجلس على مقعده ليجد خبرا آخر أكثر استفزازا يلمع في طرف حاسوبه ينتظر التدقيق.

انهمك في تدقيق الأخبار التي تتوارد على الصفحة الخاصة بالنشرة التالية، فالمدقق ومنتج النشرة والمشرفون على الأخبار هم وحدهم المخولون التغيير في أي خبر على هذه الصفحة. ظل منهمكا في التدقيق إلى أن أحس بتربيتٍ خفيف على كتفه:

- هلا، كيفك؟

التفت فإذا بأحد زملائه الصحفيين يحمل أوراقا تتضمن تقريرا يريد تصحيحه قبل توجهه لغرفة المونتاج.

جلس الصحفي وبدأ قراءة تقريره، بينما أرهف القروي السمعَ متأهباً كأنه محفظ قرآن.

- «.... ويرى مراقبون أن...».

- لا يا أخي، لن أتركك تستخدم هذه العبارة الخادعة إلا إذا أريتَني مراقبا من لحم وشحم. من هم هؤلاء المراقبون الذين نسمع عنهم عندكم ولا نراهم في دنيانا؟

ارتبك الصحفي وهو يرفع وجهه عن الورقة قائلا:

- هذا أسلوب صحفي دارج.

- والأخطاء والحماقات دارجة كذلك.

فقال بتلعثم دون رفع بصره:

- طيب، ماذا أقول؟

- لا تقل شيئا؛ احذفها.

أخرج الصحفي قلما من جيبه وخط خطا غليظا بانفعال على الكلمة، وواصل القراءة. أرهف القروي أذنَه الحادة كأنه شيخ شنقيطي في محظرة:

- لا، ذاك فاعل مرفوع.

- تمام.

- لا، ذاك ظرف منصوب يا أخي.

- تمام.

ما إن أنهى الصحفي قراءة التقرير حتى كان يرْفَضُّ عَرَقاً. لملم أوراقه شاكرا، ثم مشى متجها صوب غرفة المونتاج، لا يكاد يُبصِر أين يضع قدمه من الحرج.

ترك القروي مكتبه ومشى خطوات للحديث مع صديقه بقسم

المقابلات مازن أحمد. كان مازن منهمكا في مكالمة هاتفية مع أحد المسؤولين الروس محاولا إقناعه بالحديث في إحدى النشرات للتعليق على العلاقات الروسية الأميركية.

وقف القروي جنب صديقه منتظرا نهاية المكالمة. وأثناء وقوفه لاحظ وجود ورقة على مكتب زميله مطبوعة وتحمل خمسة توقيعات. استرق النظر إليها فإذا فيها:

الموضوع: طلب تحويل المدقق اللغوي السيد محمد القروي

نظرا لضرورة سير العمل الإخباري بانسياب، ولصعوبة العمل مع السيد محمد القروي، فإننا -معشر الصحفيين الموقعين أسفله- نلتمس من الإدارة الموقرة تحويل الزميل عن قسم التدقيق. مقرّين -مع ذلك- بكفاءته ومهنيته وأخلاقه الحسنة. غير أن ضغط العمل الإخباري لا يحتمل المهاترات اللغوية ولا التشدد المعرفي للزميل المذكور.

شاكرين للإدارة الموقرة حسن التفهم.

الموقعون.

في لمحة، قرأ القروي الورقةَ بنظرة واحدة كأنه صقر من صقور الصحراء الموريتانية. حاول ألا يبدو عليه أي ارتباك بعد قراءتها، بينما كان زميله مازن منهمكا في مراوغة السياسي الروسي على الهاتف لإقناعه بالحديث للقناة.

وضع مازن الهاتف بقوة رافعا بصره وهو يقول بامتعاض:

- ما رأيت أصعب من الروس! إيش هذا؟!

رد القروي محاولا إيهامه أن لا شيء يشغل ذهنه:

- الروس! لا تنس كلام المنظر السياسي الفرنسي دي توكفيل عنهم في كتابه «الديمقراطية في أميركا». قال إن هناك شعبيْن يتجهان بسرعة لحكم العالم، لكن وسيلة أحدهما الحرية، ووسيلة الآخر العبودية. الأميركيون والروس.

انتبه مازن إلى أنه نسي إخفاء الورقة التي تركها أحد الزملاء على مكتبه، فوقف فجأة قائلا وهو يدسها تحت طرف مكتبه:

- ما رأيك في أن نشرب قهوة في الكافيتريا؟

- لا مانع.

مشيا عدة أمتار إلى باب غرفة الأخبار ليصعدا سلّما خشبيا، قادهما إلى الكافيتريا الخاصة بالقناة.

كان القروي يمشي وراء صديقه منتظرا فتح موضوع الورقة. فلما التقت عيونهما -وهما يدخلان إلى الكافتيريا- قال مازن بهمس:

- هل علمت أن بعض الزملاء قدموا عريضة مطالبين بتحويلك؟

أظهر القروي المفاجأة من الخبر قائلا بلهجة موريتانية:

- حق الله؟

لكن حركة عينيه أكدت لزميله أنه اطلع على الورقة؛ فحاول إنقاذه من الحرج:

- لا يهم يا رجل، ربما قد يعجبك العمل في قسمك الجديد إذا استجابت لهم الإدارة.

كانا قد وصلا إلى البائعة الفلبينية القصيرة التي بادرتهما بابتسامة قائلة بلغة إنكليزية محشوة باللكنة الفلبينية:

- هل أستطيع مساعدتكما؟

تقدم مازن مبعداً يد صديقه -كيلا يدفع النقود- قائلا لها بالإنكليزية:

- بلى، صحنيْ فول وكأسيْ شاي.

ثم مد لها ورقة مائة ريال قائلا:

- اتركي عندك البقية حتى آخذ منها اليوم أو غدا.

اتجها إلى وسط المقهى حيث الكراسي المتناثرة، والطاولات الدائرية المتوسطة الحجم، وجلسا. شعر القروي بارتياح وهو يزيح معطفه ملاحظا أن درجات التكييف أقل برودة هنا منها في غرفة الأخبار. فحركة الناس دخولا وخروجا، وأزيز أدوات إعداد القهوة والشاي والطعام تضفي جوا دافئا على المكان. مدّ جسمه ومال على الطاولة جهة صديقه وقال بهمس:

- بعث لي رئيس التحرير رسالة إلكترونية طالبا اجتماعا.

كان القروي يتحدث فيما كان مازن ينظر إليه نظرة تعاطف، متأملا جبهته الضيقة، وشفتيه الغليظتين وشعره الناعم، مفكرا كيف تآمرت مجموعة من ضعاف الصحفيين على هذا البدوي المسكين. كان مازن مقتنعا بأن سبب رفع الشكوى ضد صديقه هو كونه لا سند له في غرفة الأخبار، فلو أنه من إحدى الدول العربية الكبيرة لكانت له عصابة تحميه، وتدافع عنه، وتبرز محاسنه وتستر مثالبه.

كانت هذه الأفكار تتزاحم في ذهن مازن، بينما يواصل القروي حديثه.

أخرج مازن سيجارا من جيبه، ثم قاطع صديقَه وهو يلتفت جهة

مدخل الكافيتريا:

- شوف، مثلك لا خوف عليه. فأنت هنا بعلمك وقدراتك، أما هؤلاء فكثير منهم هنا بالشللية والوساطات. ولولا أنك بدوي نزِقٌ لا تستطيع التحكم في انفعالاتك لما وصل الأمر إلى ما وصل إليه.

تذكر القروي القرض المالي الضخم الذي أخذه من البنك قبل شهر. وتراءت له صورة والده الذي يعيش على أدوية شديدة الغلاء، فقال متظاهرا بالتجلُّد:

- عادي يا أخي، حتى لو أقالوني.

- أنا أرى أن سبب كل هذا هو نائب رئيس التحرير.

- تقصد بسّاما؟

- نعم. هو يغار من المميزين... ثم إنك وُظّفتَ رغم أنفه. وهو يعتبر أي شخص لم يوظفه هو عدوا له.

- عقلية إما أنك عبدي أو ضدي؟

- إيه!

وتذكر القروي ذلك الرجل البدين الأصلع الذي أطل عليه بمكتب السكرتيرة يوم عمله الأول. واستعاد نظرات السكرتيرة ورئيس التحرير.

والتفت رافعا بصره إلى مازن الغارق في سحابة سجاره:

- كيف تصفني بالبدوي النزق يا رجل؟ أنتم دائما تحملون البدو كل شيء. ألا تعلم أن الحلم والأناة أيضا من أخلاق البادية؟ ثم،

هل المزارعون أهل حلم وأناة؟

وقهقه مازن قائلا بلهجة أهل الخليل:

- الله يخرب شيطانك، يا بيّيه!

وبدأ حديثهما ينحرف إلى الجانب النظري أكثر من الانشغال بهموم اللحظة، وهما يرقبان الداخلين والخارجين من المقهى. بعد دقائق، جاءت الفتاة الفلبينية حاملة صحنين من الفول وكأسين من الشاي.

رفع إليها مازن وجهه قائلا:

- شكرا، عزيزتي.

كان يجلس قبالة القروي مذيع ومذيعة يتحدثان. ويبدو من ملامح المذيعة أنها ستظهر على الشاشة بعد قليل. فطبقة المكياج الكثيفة على وجهها، والمِلْقانُ البلاستيكي المندسُّ في أذنها، يشيان بأنها مستعدة للظهور في النشرة التالية.

تجلس فتاتان عن يسار المذيعة، إحداهما بدينةٌ متلففةٌ في عباءة سوداء، والأخرى نحيفة ربعة القامة ترتدي بنطالا أزرق وقميصا بالكاد يلامس طرف بنطالها.

انتبه القروي -وهو يتأمل الفتاة البدينة- إلى أنها صاحبة البطاطا التي اصطدم بها في الممر قبل أشهر، كما انتبه إلى أن جبينها ما زال يتفصد عرقا. أما الفتاة الجالسة إلى جانبها فلم يُعرها كبير اهتمام. فرغم نوعية الملابس التي ترتديها للفت الأنظار إليها فإنها من النساء اللائي تمرّ عليهن العين متدحرجةً بحياد.

فلا هي ممن تتأذى العين برؤيتها حتى تعلق بالذهن، ولا بالجميلة

جمالا يجعل خريطة جسمها مدى لتَرداد النظر وابتهاجِ العيون.

أمرّ عليها القروي عينه سريعا كأنه ينظر إلى شارع عام، ثم التفت إلى مازن:

- علي الذهاب للحديث مع رئيس التحرير.

- انتظر حتى تُنهي إفطارك.

قالها مازن، وهو يلاحظ التوتر الذي حاول صديقه إخفاءه.

وقف القروي مستأذنا مازناً، هبط مع الدرج الخشبي الذي أسلمه إلى غرفة الأخبار. اتجه يمينا إلى مكتب رئيس التحرير.

دخل فإذا برئيس التحرير وراء مكتبه الصغير، وأمامه كرسيان يجلس على أحدهما رجل بدين شديد البياض.

- السلام عليكم

- وعليكم السلام، هلا. تفضل!

جلس القروي متأملا الرجل الجالس قبالته. كان مكتنز الأعضاء ضخم البطن مقدسيَّ اللهجة. أما رئيس التحرير فكان غارقا في كتابة رسالة إلكترونية، ومع ذلك يرمي كلمة بين الفينة والأخرى لإشعارهما بعدم الانشغال الكامل عنهما.

بعد هنيهات، أنهى رئيس التحرير كتابة رسالته، والتفت بحماس ووجهه الطفولي المملوء شعرا يبرق:

- يا هلا أستاذ محمد، كيفك؟

- أهلا بك.

عرّف رئيس التحرير القروي على جليسه المقدسي قائلا:

- هذا الأستاذ أحمد أبو صلاح، مدير قسم الوثائقيات بالقناة.

ثم التفت إلى المقدسي مؤشرا جهة القروي:

- وهذا الأستاذ محمد القروي، أحد أفضل المدققين عندنا.

أمال المقدسي رأسه قائلا بأدب:

- يا أهلا وسهلا

- أهلا وسهلا بكم، حيا الله أهل القدس.

- وكيف عرفت أنني مقدسي؟

- أنا لا أسمع لهجة عربية إلا ميّزتها.

- ما شاء الله. عندكم في موريتانيا مقدسيون؟

- أبدا، ولكنْ لي أصدقاء مقدسيون تعرفت عليهم ببلاد شتى.

- ما شاء الله!

قطع رئيس التحرير حديثهما قائلا بنبرة حازمة:

- أستاذ محمد، إن السيد مسؤول الملفات الوثائقية كان يبحث منذ فترة عن كاتب قدير يكتب له نصا لفيلم وثائقي. وكنت أخبرته عنك وعن قدراتك، وما إن ذكرت له اسمك حتى تحمس للحديث معك بهذا الخصوص.

عدّل القروي جلسته حتى فارق ظهرُه مسند الكرسي ليصبح أكثر اعتدالا، وقال بتوتر:

- طيب؟!

- الفكرة، هي أن تتفرغ لكتابة النص، ويُدفع النصُّ لاحقا إلى كاتب سيناريو ليمفصله ويعده للتمثيل.

- وما موضوع الفيلم؟

مد رئيس التحرير يده لينزع نظارتيه، فبدا شعر رأسه الأشيب كثيفا، ثم التفت إلى مسؤول الوثائقيات قائلا:

- تفضل يا أستاذ، فأنت أفضل من يشرح له الفكرة.

مال المقدسي بجسمه الضخم جهة القروي -رغم محدودية المسافة بين كرسييهما- وقال:

- شوف يا أستاذ محمد، لقد قرأت كثيرا من كتاباتك المنشورة في الصحف، واطلعت على روايتك التي كتبتها عن حياة البدو الرحل في موريتانيا. كما سمعت الثناء على علمك من أستاذنا رئيس التحرير. لذا أتمنى أن تدخل معي في مغامرة قررتُ الإقدام عليها.

كان القروي يستمع باهتمام، واضعا يده اليسرى على فيه إمعانا في الإنصات.

فواصل المقدسي حديثه:

- المغامرة هي أننا قررنا إنتاج فيلم تاريخي. ولإكمال المغامرة، أحببت أن يكون كاتب النص وكاتب السيناريو من الشباب الجدد على الساحة، لا كتابا مستهلَكين.

شعر القروي بارتياح للفكرة، رغم مفاجأتها. فقد أعجبته الروح المتفائلة الواثقة للمقدسي. فبادره وهو يفرك أصابع يديه:

- أنا لا مانع لدي، لكنَّ عندي شرطا واحدا.

- تفضل.

- ألا يتدخل لي أحد في نمط الكتابة. فأنا سأكتب كما يحلو لي.

قال المقدسي بحماس:

- أوه، طبعا.. طبعا، فالحرية شرط الإبداع يا رجل.

- لكن، ما موضوع الفيلم؟

- نحن نريد إنتاج عدة أفلام تاريخية عن شخصيات مفصلية في تاريخ الحضارة الإسلامية. مثل الخليل بن أحمد، والجاحظ، وابن تيمية والغزالي والمتنبي.

ما إن سمع القروي اسم الجاحظ حتى قال بنبرة مراهق يرى فريقه المفضل يسجل هدفا:

- هل لي أن أختار من هذه الأسماء؟

- جدا. فأنا كنت أفكر في أنك ربما تكتب عن الجاحظ، فقد رأيت في سيرتك الذاتية أنك كتبت عنه أطروحة ماجستير.

شعر القروي بحماس طفولي حالَ سماعه اسمَ الجاحظ، وقال دون أدنى تفكير في العواقب:

- اتفقنا إذن.

حين سمع رئيس التحرير كلمة «اتفقنا» قفز من فوق كرسيه جَذَلاً، فتراءتْ لجليسيْه قامته الضئيلة وهو يقول:

- خلاص، يمكنك -يا أستاذ محمد- التفرغ للمشروع. وسأبعث الآن رسالة للسكرتيرة كي تعفيك من الورديات. وستداوم في مكتبك العادي بغرفة الأخبار، لكنك تكتب للزملاء في القسم الوثائقي.

وجد القروي نفسه خارجا من مكتب رئيس التحرير مستغربا كيف جرت الأمور بهذه السرعة. وتناوشتْه أسئلة مثل: كيف وافق على هذه المغامرة؟ وما ضمان نجاحها؟ وكيف ينجح فيها وهو لم يكتب قط نصا للتمثيل؟

ثم ألح عليه سؤال: ماذا لو لم ينجح في كتابة النص؟ هل سيقال من عمله؟

دخل غرفة الأخبار ومشى خطوات إلى قسم المقابلات، فلما رآه مازن قادما وقف ليتلقاه. وقفا في طرف غرفة الأخبار الجنوبي مما يلي غرف المونتاج.

- كيف كانت نتائج الاجتماع؟

قال القروي متصنعا الابتسام ورباطة الجأش:

- يبدو أنني سأتفرغ لكتابة رواية تصلح نصا لفيلم تاريخي.

- كيف، وما دخل قناة إخبارية في الأفلام التاريخية؟

- سأكتبه لقسم الوثائقيات. كأنهم سيجربون إنتاج أفلام تاريخية.

قال مازن بلؤم ونبرة ساخرة:

- جيد، ما داموا فاشلين في إنتاج الأخبار، فليجربوا الأفلام التاريخية!

- وماذا يعنيني أنا من كل ذلك؟ المهم أني من الآن سأكتب نصوصا عربية على مزاجي خالية من عبارات الأعاجم.

ضحك مازن مُمِرًّا يده على رأسه الكث، وتراءت ثناياه التي غزاها التسوس واضحة وهو يقول:

- ما موضوع الفيلم؟
- سيكون عن الجاحظ. لذلك لن ترد فيه عبارة «من جهة أخرى» ولا «شكرا لك حتى اللحظة!».
- اكتب يا عم! اكتب ما يحلو لك، ففي عالم الجاحظ لن يَشْغَبَ عليك أحد.

وقف رئيس قسم المقابلات في طرف الغرفة مشيرا لمازن كي يأتي بسرعة.

مد القروي يده إلى صديقه قائلا:

- أستأذن، فقد تحررت من ورودياتكم ودواماتكم... ورؤساء أقسامكم.

ضغط مازن على يده قائلا بلهجته الفسطينية:

- نيالك يا حبيبي!

سار القروي في غرفة الأخبار مسرعا دون أن يلتفت إلى أي جهة حتى لا يشغله زميل بسؤال أو سلام، وهو يفكر في طبيعة التحدي الذي وافق على خوضه دون كبير تفكير.

وخلال دقائق، كان في شقته بمنطقة السد. رمى مفتاح سيارته جانبا، وتوجه إلى المطبخ. أعد كأسا من الشاي الأخضر، ووضعه على مكتبه. ثم فتح حاسوبه -وهو يتقد حماسا مشوبا بخوف- وكتب:

* * *

البصرة، 168-170هـ

هبت نسائم الصباح على السفينة الجاثمة غير بعيد من البطيحة على أطراف البصرة. صدحت رنات العود المطربة، وانتشرت روائح العنبر الهندي في كل اتجاه. لكن الخليفة المهدي الذي يجلس في صدر السفينة بدا ضيقَ الصدر.

التفت إلى وزيره وقال وهو يرفع حاجبيه، وكأنه ينفخ:

- والله إني لأحار في نفس الإنسان! لماذا تأتي لحظات تتكاثفُ فيها كل أسباب الانشراح والسعادة، لكن النفس تنقبض لسبب لا تدركه. ألذلك علاقةٌ بحركات الأفلاك؟ أم بعالم الأرواح المتلفّفِ في دياجير الغيب المستور؟

- ما أرى -يا أمير المؤمنين- إلا أن للأمر علاقة بحركة الكواكب السبعة والفلك الدوّار. فالمرء يجد نفسه وقد ظفر بما ظل يطلبه دهرا، وكان يحدث نفسَه عن سعادته الغامرة به. ثم ما إن تأتي لحظة قطف السعادة المرجوة حتى يحس بخواء جارف، وريحٍ تجري في زوايا روحه.

تنفس المهدي الصعداء مُسرّحا طرفَه جهة غيمة بدتْ في السماء. بدأت الجارية الجالسة عن يمينه تكثر التلفتَ إلى يسارها جهة

الشاطئ، حيث بدأ جمع من النظارة يتجمعون بعد سماع خبر قدوم الخليفة، بينما كان جنود يشقون الحشود حاملين رجلا طويل القامة، عظيم الهامة، كث الشعر.

اقترب الجنود، وجعل المهديُّ يقف ويقعد، فلما وصلوا صاح بهم:

- احملوا الزنديق إلى صدر الحَرَّاقة.

صاح جندي أشقرُ ضخمُ الكراديس:

- سمعا وطاعة يا مولاي!

صعد جنديان على حافة السفينة ومد كل منهما يده واضعا إياها تحت إبط الرجل الضخم ليجذباه، ثم دفعه ثلاثة جنود من ساقيه فوقع على أرض السفينة متأوهاً. حاول الرجل الضخم جمع شتات نفسه وهم يرمونه في مقدمة السفينة. جعل يقلب رأسه الضخم، رافعا إياه وهو يغمغم.

بدأت جموع النظارة تتحاشد على حافة النهر بعد شيوع خبر أن الخليفة سيقتل شاعر البصرة بشار بن برد. اشتد الزحام قرب السفينة حتى كاد بعض الفضوليين يسقطون في الماء، فوقفت مجموعة من الجند سدّا بينهم وبين حافة النهر.

وسط الزحام، كان طفلٌ في عامه التاسع متشبثا بيد أمه، وعيناه الجاحظتان الواسعتان تدوران بسرعة، متأملتين كل التفاصيل. كانتا تخترقان الحشود، وتعودان إلى هامته، وقلبه يكاد ينْزُو من بين أضلاعه فَرَقاً.

اشتد الزحام، ثم خيّم السكون انتظارا لكلام الخليفة.

امتلأ الطفل هيبة وهو يتأمل الخليفة المهدي متربعاً، والشرر يتطاير من عينيه وهو ينظر شزرا إلى بشار بن برد قائلا بتوعد:

- أتؤذّنُ في غير وقت أذان، يا زنديق؟

حرك بشار يديه، وزمّ شفتيه وتسارعت حركات عينيه الضخمتين اللتين يخرج منهما ما يشبه الدُّمَّلَ، وقال:

- سيدي، وما الأذان إلا ذِكرٌ ودعوةٌ للخير ينادي بها المؤمن متى شاء؟

صاح الوزير يعقوب بن داود، وهو يمدّ سوطا ناحية بشار:

- كيف تتحدث بحضرة أمير المؤمنين وأنت مُشيحٌ عنه بوجهك يا سكران! يازنديق؟

وكان بشار -ككثير من العميان- إذا تحدث رفع رأسه الضخم ناظرا جهة السماء، فيتدلى شعره الكثيف على كتفيه كشجرة سدرٍ صحراوية تائهة.

- عفوا يا سيدي، فأنا لا أبصر مكان الخليفة للعاهة التي بي.

فقال الخليفة دون أن ينظر ناحية بشار:

- اجلدوه!

قفز الجندي ذو الكراديس الضخمة وبيده سوط جلدي كأنه ثعبان. أمسك جنديان بمنكبيْ الشاعر، وأسنداه إلى جانب السفينة وبدأت السياط الحامية تنهال على ظهر شاعر البصرة. وكان كلما وقع سوط على الظهر الضخم المكتنز لحما وشحما صاح:

- حَسِّ!... آه!.... حَسِّ!

وقف الوزير وكأنه يوجه حديثه للحشود المتجمعة التي يوجد فيها من يَطرب لشعر بشار ويغني به، ومن كان يفاخر به أهلَ الأمصار، ومن يحقد عليه، فقال بصوت جَهْوَرِيٍّ:

- انظروا يا أهل البصرة إلى زندقته؟ كيف يقول «حسّ» بدل الاستغاثة بالله، وبدل قول بسم الله.

فقال بشار بصوت مرتفع منتهزا فسحةَ ما بين وقع سوطيْن:

- ويلك! أطعامٌ هو حتى أسمي الله عليه؟ إنما هي سياط حامية!

جفّ ريق الوزير حرجاً، وتدارك عمامته الحريرية السوداء قبل سقوطها، فأمسكها، وقال مخاطبا بشارا:

- ولماذا لا تقول الحمد لله أيها الزنديق؟

تحامل بشار على جراحه عاضاً على شفته السفلى، وصاح بصوت فيه من الألم ما فيه من السخرية:

- وهل هذه السياطُ نعمةٌ حتى أحمد الله عليها؟

كانت عيون المتفرجين وآذانهم تتلقف الحديث الدائر على ظهر السفينة بكل دقائقه. لكن الطفل ذا العينين الجاحظتين كان يعيشه بكل عرق ينبض في جسمه الأسمر النحيل.

مال رجلٌ يلبس ثوبا مُعَصْفَرا يقف جنبَ الطفل، وقال لصديقه:

- إن الشاعر أبا معاذ سيقضي تحت السياط! كيف يقتل الخليفةُ على شرب الخمر؟

- هل يصدق أريبٌ مثلك ضربه إياه لشربه الخمر؟ وكم في البصرة من حانة لم يسأل عنها؟

- لمَ إذن؟

- لقد أوصل الوزيرُ يعقوب إلى مسامع الخليفة القصيدةَ التي هجاه فيها بالانشغال بالملذات عن هموم الناس، حين قال:

ضاعتْ خلافتُكم -يا قومُ- فالتمسوا
خليفةَ الله بين الناي والعودِ!

وسمع الطفل كلام الرجلين، وحفظ البيت من أول سماع كعادته، وكان قلبه يخفق بين أضلاعه الهزيلة التي تغطيها التمائم والتعاويذ.

تضايق الخليفة من الأخذ والرد الذي وقع بين الوزير والشاعر، فخشي أن تؤثر كلمات بشار في بعض النفوس فأشار لقائد الحرّاقة بالتحرك.

وابتعدت السفينة عن حافة النهر، وابتعد صدى الأنّات المكتومة للجثمان الضخم الذي ما زالت السياط الجلدية تنهشه. وتحركت الجموع عن الشاطئ عائدة من حيث أتت، وأكثر الطفلُ ذو العينين الجاحظتين في الالتفات وراءه، ويدُه اليسرى على قلبه.

كانت أمه تسحبه من يده مستحثةً إياه على الإسراع، فيما كان يشعر برعدة وخَدَرٍ في ركبتيه النحيلتين.

* * *

بات الطفل يتقلب في فراشه، ولحافه الأسود قد انحسر عن جسده لكثرة اضطرابه في مضجعه. ذراعُه الطويلة الدقيقة ملتوية تحت خده اليسرى، ويده اليمنى بين ركبتيه. أما رأسه الصغير ذو الشعر الأجعد فمنحنٍ تجاه صدره، وهو يغط في نوم عميق رغم تقلبه واضطرابه.

طار قلب أمه فَرَقاً وهي تحاول إيقاظه دون جدوى. إذ تعودت على وثوبه من النوم -كأنه سِرْحانٌ- عند أول نداء. أما هذا الصباح فكأنما تحاول إيقاظ ميت!

- قم يا عمرو..! فقد انتصف النهار!

لم ينم الطفل البارحة إلا بعد نوم البصرة كلها؛ فقد وقفت صورة الرجل الضخم بصراخه المكبوت بينه وبين النوم. كلما داعب النومُ جفونَه رنّ في أذنيه صدى استغاثة الشاعر، أو شماتة أحد النظارة، أو شَخَص أمامه الجندي ذو الكراديس بسوطه المخيف.

تململ في فراشه متشبثا بلحافه، وفتح عيْنيْه فرأى أمه منتصبةً فوق رأسه. جلس مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم.

- لقد ارتفع النهار، وخشيتُ عليك! قم يا ولدي واذهب إلى الخباز، فقد حان وقت ذهابك للكتاب، وأخشى عليك من عصا معلمك. جلس فاركا عينيه:

- أخزاه الله وأخزى عصاه.

- لا تقل ذلك يا ولدي. أسرع!

خرج الطفل ماشيا وسط الطريق المغبرّ، فاجتاز بجانبه بغّال يُغنيّ وعلى ظهر بغلته أعوادٌ طوال حداد الأطراف. أومأ البغالُ بسوطه إلى الطفل -دون أن يقطع غناءه- ليبتعد حتى لا تؤذيه العيدان، فالتصق الطفل بالحائط، فاندس أنفه في جلباب امرأة عطرة الأثواب مرتْ مسرعةً.

استنشق بقايا العطرِ الغريب على أنفه وهو يدخل إلى الفرّان. كان

الخباز مُلثّماً كعادته، ومنهمكا في مخبزه المكتظ دائما. يتزاحم أطفال الحي وغلمانه داخل المخبز فتكثف حرارته. فكلٌّ يُدِلُّ بسابق معرفة أو سالف معروف ليقدمه على غيره.

ترتفع الأيدي النحيلة في الهواء وسط دخان المخبز المتصاعد، والأصوات المختلطة تنادي:

- رغيفين بالله عليك!

- خمسة أرغفة، مولاتي تستعجلني!

وقف الطفل مكتفيا بالنظر إلى الخباز الملثم؛ فالخباز يعرف بالضبط كم رغيفا يريد. إذ يكاد يعرف كم لقمة تقع في جوف كل واحد من سكان حي بني كنانة بالبصرة. بعد لحظات، ناول الفتى ثلاثةَ أرغفة ساخنة. وبينما كان الفتى يضعها في مِخلاته سمع الخبازَ يخاطب فتى من فتيان العطارين ذا ذؤابتين طويلتين قائلا:

- تعال يا شاعر، هل سمعت بما وقع لبشار بن برد أمس؟

ارتعد الفتى وهو يسمع اسم بشار، وشخصتْ السياطُ الحامية والصراخ والاستغاثات والشماتة أمام عينيه.

ظل الفتى ذو الذؤابتين يبتسم مداعبا ذؤابته اليمنى بيده، ناظرا صوب إحدى الجواري دون أن يولي كلام الخباز اهتماما.

رفع الخباز وجهه متأملا الزقاق الضيق ليتأكد من غياب رجال الحِسبة الذين يفرضون عليه التقنع كي لا يتساقط الشعر في الخبز أزال قناعه ورماه قائلا:

- لقد قضى شاعر البصرة أمس تحت سياط الخليفة. مات شاعر

البصرة، لقد قتله الشعر. وأنت أيها الفتى تريد أن تصبح شاعرا. الخبز والعجن أفضل لك يا بني من شعر يقود للموت جلداً.

ثم ضج المخبز الدافئ بالضحكات.

استلّ الصبي نفسه من زحام المخبز، لتزدحم صور وأفكار كثيرة في رأسه.

كان يفكر في الشعر الذي يحفظ منه عشرات القصائد، متسائلا ما قيمة الشعر والعلم والجاه إذا كان يقود لمهاوي الردى؟ تذكر قول أمه: لن تغني عنك هذه القصائد شيئا، وعشرون سمكة أكثر فائدة من مائة قصيدة.

عاد الصبي إلى بيته، ومضغ رغيفه دون شهية. مضغه كأنه سعف نخلةٍ يابس، ثم أسرع إلى الكُتَّاب.

ما إن دخل الساحة الواسعة المؤدية إلى بيت معلمه حتى شاهد كلبا هَرِيتَ الشدقِ ضامرَ البطن، يركض جهة صبيٍ واقف يمحو لوحه عند جذع شجرة.

هجم الكلبُ على الطفل وأطبق أسنانه على طرف وجهه فسقط مغشيا عليه. انحسر جانب وجهه عن عظم الفك الأيسر والوجنة مما يلي العين حتى الفك.

تصارخ الصبية، وجاء المعلم يركض، فانهالتْ الألواح الخشبية من كل جانب على الكلب الذي ظل ينبح حتى تحول نباحه إلى أنين تحت وقع الألواح والعصي وصرخات الأطفال.

ظل عمرو واقفا في مكانه لا يتحرك، وقلبه يخفق، مقارنا -في

دخيلة نفسه- بين موت الكلب تحت ألواح أطفال الكُتاب، ووقع السياط.

* * *

لا تكاد الشمس تُخرِج حاجبها مطلةً على نهر سيحان بالبصرة حتى تكتظ جنباتُه بالسمّاكين والصيادين والباعة والفضوليين. كانت مجموعة من الملاحين تقترب من حافة النهر وهي تغني أهازيجها بعد ليلة اصطياد. بدتْ وجوهُهم مرهقةً بعد ساعات طويلة من الصيد والغناء، والقصص الملفقة والأحلام السخيفة.

اقترب الزورق الصغير رويدا رويدا من حافة النهر حيث يقف عمرو. كان وجهه قد بَقَلَ، فبدا أقرب إلى الفتوة منه إلى الطفولة، أو هو واقف حائر ما بين صلابة الفتوة وغضاضة الطفولة كانت عيناه تتأملان حركات الزورق الصغير، وذهنه -الذي لا يفتر عن المقارنة بين الأشياء والأفكار- يتأمل الشبهَبين الحياة والأنهار. فالحياة مغرية دائما؛ مع جهل الإنسان بما تخبئه أحشاؤها المعتمة. فهي مكونة من موجات تعلو بالإنسان لتغرقه في الأماني البيض، وموجات أخرى تهبط به إلى قاع اليأس راميةً إياه في متاهات التيه. ما الحياة إلا نهر هائج لا يدري راكبه أين ستأخذه أمواجه الطامية! فهل سيعود المسافر ظافرا باللآلئ والأماني الشهية، أم ستفترسه أول موجة ليتحول جثةً تافهةً تضيق بها كل موجة فترميها لجارتها؟

ما كاد الزورق الصغير يلامس حافة النهر حتى صاح عمرو وقدمُه تكاد تنزلق في النهر:

- هل أتيتَ بما يكفي من سمك الشبّوط؟

- قاتلك الله! والله لا أرى يومي هذا إلا يوما نكِداً. لماذا كان أول من تلقاني أنت؟

- النكد ما أنت فيه وما جئتَ منه وما أنت صائرٌ إليه! والنكد بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك؟ وهل يفرُّ النكد من النكد...؟

ضحك الصيادون رغم الإرهاق البادي على وجوههم وهم يتقافزون من الزورق. أما الغلام فأكبّ على الحمولة ينتقي منها انتقاء الماهر. كانت ذراعه النحيلة تروح وتجيء داخل سِلال السمك. وكان إذا انتقى سمكة تأمّلها قليلا ثم رماها وراءه لتستقر بمهارة داخل جراب جلدي واسع مُثبتٍ على ظهره.

وتذكر الصياد أن عينيْ الفتى الأسمر لا تخطئان هدفا ولا يتوارى عنهما شارد، فبادر:

- اسمعْ يا عمرو، لا تأخذ كلَّ الشبوط. خذ منه واترك لغيرك.

التفت صياد آخر منهمكٌ في شد أمتعة على ظهر حمار أشهب، قائلا بعربية فيها نفَسٌ فارسي:

- أنت تناديه عمرو؟ كل الناس هنا ينادونه الجاحظ.

ثم التفت إلى الفتى وقال بالفارسية:

- تُو الجاحظ هَسْتى!

كان الفتى قد فرغ من الإغارة على السمك بعد أن انتقى منه ما شاء، فأخذ دراهم ودسّها في يد الصياد وقال بابتسامة واثقة ساخرة:

- والله إن اسمَ عمرو لأخفّ على اللسان وأسبق إلى الذهن، وإن

الجاحظ لتبدأ بحرف مُسْتَصعَبِ النطق، فلماذا تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟

وترامق الصيادان مبتسميْن، وأدبر الفتى شاقاً طريقَه بين زحام المارة والباعة، رافعا أسفل إزاره الداكن ليتّقيَ بقايا السمك المتناثرة على الأرض.

ترك نهرَ سيحان وراءه، سالكا أزقة قادته إلى درب الطويل.

كان دربُ الطّويل ضاجا بالحركة، لكن ضجيج الأفكار والخواطر التي تكتظ بها جمجمة الفتى أعلى من أي ضجيج، يحفظ درب الطويل عن ظهر قلب، بل يكاد يعرف كل أسرار هذا الدرب المترعِ بالفضائل والفضائح، بدا له الدرب في هذه الساعة مكتظا بالمارة على جانبيه أكثر من المعتاد.

سلك الدرب الواسع فقاده إلى الساحة الفسيحة الواقعة عند مدخل سوق البصرة الكبير. تجاوز المسجد عن يساره قاصدا الباب الأحمر المقوّس للسوق. وقبل وُلُوجِه سمع تلك الجملة التي طالما سمعها تنبعث من خيمة الوبر المضروبة أمام خانقاه الصوفية قرب مدخل السوق على اليمين:

- متاعُ الغرورْ!

كان الصوت الخارج من الخيمة يمط كلمة الغرور مطا طويلا حتى تكاد نفس صاحبه تتقطع رغم مخارجه الفخمة وصوته القوي الحاد. ابتسم الفتى متذكرا كيف كان يتراهن هو وصديقُه مهْدِي على الركض من جانب المسجد ليصلا باب السوق قبل نهاية مطّ صاحب الصوت كلمةَ الغرور.

لا يحب الفتى مكانا حبه سوق البصرة ودرب الوراقين. فهنا يروج كل شيء. بدءا من العلم الذي تنوء به كواهل الوراقين الرائحين الغادين، إلى الكذب الذي يتردد على ألسنة الباعة وهم يقسمون على أسعار بضائعهم، إلى وعود المدينين لدائنيهم.

ومن أسباب حب الفتى للسوق غرامه بتأمل التشابه الدفين بين الأشياء المختلفة ظاهريا عند الناس. فالسقائف الرابطة ما بين جانبيْ السوق تُظِلُّ سُحَناً مختلفة، وأمشاجا وأخلاطا لا تجتمع بمكان في الدنيا إلا في هذه المدينة. غير أن عينيْ الفتى تظلان تلتقطان أوجه التشابه بين تلك السحن والأمشاج. كانت السُّحَنُ تعلو وتهبط في دروب السوق الضيقة أمامه، وأذناه تشرئبان تطلعاً لسماع نبض الحياة، وتلتقطان لهجات ولغات متباينة تضج بها أروقة السوق المتعرجة.

كان يسمع اللسان الفارسي بمطّاته الحلوة، واللهجةَ البدوية الصقيلة وسط لهجات عربية ولكنات هجينة أخرى، وهو يضحك في نفسه قائلا: والله ما البصرةُ إلا حسناء يتعاقب عليها الأزواج فتلد الأحمر والأصفر والأسود... ومن رأى تداخل الأنهار في أطرافها وكثرة السفن الواردة على موانئها، يخيل إليه أنها بغِيٌّ مستباحة العِرض.

سمع من يناديه:

- الجاحظ!

التفت فرأى صديقه سهْلاً يركض حافي القدمين، مرتديا جبةً قذرةً. فبادره قائلا:

- ما وارءك؟

ابتسم سهل بن هارون لاعباً بجفنه الأيسر، مُغضِّناً خدَّه:

- هل ترى تلك الفتاة؟ لقد حادثتُها فشتمتْني، ولولا أبوها الذي معها لما فعلتْ ذلك!

قال الجاحظ والريق يكاد يتطاير من فيه:

- لم افترضتَ أنها ما صدّتْك إلا لوجود أبيها، ولمْ تفترض أنها شتمتك لقذارة جُبّتك وخلق قميصك! والله لو برزتَ في هذه الصورة لجنيةٍ في فلاةٍ لاستعاذتْ بالله منك!

ما زاد سهل على التبسم وهو يعيد النظر جهة الفتاة، لاعباً بطرف عمامته المسترخي على صدره.

دارت الفتاة والتفتت جهة سهلٍ مبتسمة. فتسارعت دقات قلبه، رافعا يده إلى صدره، وقبل أن يكمل إشارته لها سمع صوتا يناديه من خلفه:

- اتقِ الله يا سهل! ما هذا اللعب في السوق وعلى رؤوس الناس؟

التفت سهل فرأى شابا يلبس جبة سوداء نظيفة، معتجرا عمامة بيضاء ناصعة اللون، مرخيا طرفها بين كتفيه.

اقترب الشاب، فلم يزد سهل على أن سلم عليه وهو يقول بارتباك:

- كيف حالك يا علي؟

رفع الشاب بصره عن الأرض وهو يقول:

- أنا بخير، لولا أني رأيتك تُشَبِّبُ بفتاة تمشي وراء أبيها. ألا تعلم أن هذا لا يجوز؟

كان الفتى -رغم حداثة سنه- يتحدث بألفاظ فخمة، ووقار

لافت. فشعر الجاحظ بالخجل وأن الفتى يكبره سنا، مع أن وجهه الطري وشاربه الذي لم ينبت يشي بأنه في عمره.

كان الجاحظ يتشبث بجرابه الجلدي المملوء سمكا وهو يصعّد النظر في الشاب، بينما صمت سهل بن هارون هُنيهة، ثم قطع الصمت والارتباك:

- جزيت خيرا على النصيحة يا علي، وأنا في عجلة من أمري.

نظر الجاحظ إلى الفتى نظرة متجهمة، ثم مد يده اليسرى وجذب بها صديقه سهل، أما يده اليمنى فظلت متشبثة بطرف الجراب الجلدي الذي على كاهله. وانطلقا يمشيان وسط الزقاق الضيق المؤدي لسوق الوراقين.

التفت الجاحظ إلى سهل وقال:

- من هذا الطفل/ الكهل؟

- هذا علي بن المديني. كان معي في الكتاب، وكان ظريفا غير أنه منذ أشهر يريد أن يصبح سفيان بن عيينة في غداة واحدة.

دلف الفتيان إلى أول ورّاق على يمين الزقاق. ما إن دخلا حتى وقف صاحبه قائلا:

- أهلا! هل أتيت بشبّوط؟

- نعم، هو ذا.

أشار الوراق إلى أحد غلمانه فتقدم وأخذ السمك. تقدم الجاحظ وسهل وجلسا في طرف جماعة من الرجال كانت تجلس عاصِبةً حول أبي محمد الوراق.

عاد الوراق إلى مكان جلوسه وسط الرجال المتحنكين بعمائمهم. وكان شيخٌ منشغل بفلْي قميصِه غير منتبهٍ للحديث، فلما رأى الشبوط يهيّأ للشواء نشط وانتبه، ورفع بصره وقال:

- ما أخبار الناس؟ وما الوارد من بغداد؟

فرد عليه الرجل الجالس بجنبه:

- لقد بُويع في بغداد لهارون الرشيد بالخلافة بعد وفاة الهادي الذي كان حبسه ليخلعه من ولاية العهد. كما كان قد حبَس يحيى بن خالد البرمكيَّ والفضلَ لقربهما من هارون الرشيد.

تحرك رجل آخر عميق الحدقتين وهو يمسح لحيته ويحك أسفل ذقنه:

- سمعتُ أن يحيى البرمكي قرّب الشعراء وأغدق عليهم الأعطيات. وأن الرجل ربما أتى بقصيدة يمنحه عليها ألف دينار عداً ونقداً.

قال الوراق، وهو ينظر للسمك وقد مسته النار:

- آل برمك أسرة إدارة وسياسة. كان جدهم برمك مجوسيا من كبار خدام بيوت النار بكابول. وسمعت أن الرشيد ويحيى أكثر من أخوين.

كان الجاحظ يستمع إلى حديث القوم وهو جالس في طرف المجلس مما يلي الباب، والغبارُ المتصاعد من وراء العتبة يلفح وجهه أحيانا. تلتقط أذناه المرهفتان كل مفردة يفوه بها الرجال. أما عيناه فتسافران بين الوجوه، وسقف الدكان، والكتب والباعة والمارين في الزقاق.

ومع زوغان بصره بين تلك التفاصيل، ما كانت تضيع صورة أو فكرة دون أن يهضمها ويقلّبها على وجوهها. كان يضع يده اليسرى تحت ذقنه وهو ينصت لحديث الوراق عن البرامكة:

- يحيى البرمكي هذا يضرب به المثل في الكرم. فإذا كان بينكم من يقرض الشعر فليذهب إليه ليعودَ لنا بالأحمر والأصفر. فالبرامكةُ لا يَعُدُّون ألف دينار شيئا.

قارن الجاحظ بين الدوانيق التي يكسبها بعد ساعات من الجلوس على النهر، وألوف الدنانير التي يقبضها شاعر في لمح البصر، فخفق قلبه. ثم تذكر أمه التي تركها في البيت واقفة بين العجز والفقر، مفكرا كيف ستكون لو جاءها في يوم واحد بألف دينار، وهي التي لم تملك في حياتها عشرين دينارا.

تخيل نفسه ناظما قصائد طوالا في مدح يحيى البرمكي وهارون الرشيد. لكنه ما لبث أن شعر بوخز بين أضلاعه. غاب عنه حديث الوراق، وذهب خياله إلى صورة شاعرٍ يئن تحت الجَلْد، ونظارةٍ يصفقون، وسياطٍ تعلو وتهبط في مقدمة سفينة.

أزال يسراه من تحت ذقنه هازّا رأسَه وكأنه يطرد الأفكار التي غزته، متأملا الزقاق المكتظ بالمارة.

* * *

الدوحة، 1438هـ

دخل القروي إلى الكافيتريا فاستقبلته رائحة البن الممزوجة بروائح الطعام الطازج ودخان التبغ. لمح الفتاة المضغوطةَ في بنطال الجينز جالسة في الركن وحيدة. كأنها فكرةٌ مهملة. كانت أول مرة يراها دون صاحبة البطاطا البدينة.

أخذ قهوة كابتشينو وعاد إلى وسط الكافتيريا وجلس مهموما. لم ينم البارحة ساعاتٍ لتفكيره في إمكانية إنجاز النص الذي يكتبه عن الجاحظ. كان كلما كتب فقرات عاد ومحاها. ومما زاد في همه تلك الابتسامة اللئيمة من أحد منتجي النشرات البارحة، إذ قال في نهاية نقاش وكأنه يعنيه:

- كتابة النصوص للأفلام فنٌ لا يتقنه المتمرسون!

تذكر تلك العبارة، وتخيل نفسه فاشلا في المهمة. خيل إليه أن طعم القهوة مرّ، فأعاد الكوب إلى الطاولة بتضايق. ثم جاءه صوتها:

- أهلا محمد، ممكن نتحدث؟

- جدا، يا مرحبا.

أشارت إلى الكرسي، فجلس إلى جانبها.

- كيف أهلنا في شنقيط؟

فاجأته لهجتها. إذ كان يظنها من دولة عربية معيّنة لطريقة لبسها. غير أن حياته في الخليج علمته أن الخليجيين هم أكثر من يستخدم عبارة الشناقطة. فقال لها وكأنه ينتزع نفسه من الكآبة التي كانت تُظلل مزاجه:

- تمام، مدفونون في بحر الرمال!

- حرام عليك، كيف؟

- تلك المنطقة كان يسميها بعض المؤرخين «بحر الرمال». أما المؤرخون الشناقطة فيسمونها البلاد السائبة... والمنكبَ البرزخي!

لفت انتباهها تحلله من العقد التي تعشعش في أذهان معظم زملائها. عُقَدُ المناطقية والهويات المصنوعة صناعةً من طرف المستعمر، فاستزادته قائلة:

- أي المؤرخين يسميها بحر الرمال؟

- وصفها ابن خلدون بهذا الوصف، أما ياقوت الحموي فقال في «معجم البلدان» عندما أراد الحديث عنا: «ومن السوس الأدنى إلى السوس الأقصى مسيرة شهرين، وبعده بحرُ الرمل وليس وراء ذلك شيء يعرف».

وبعد استظهاره للنص من ذاكرته، رفع عينيه في السقف وقال مُتَظارِفا:

- وأنا -يا سيدتي- من ذلك العالم الذي لا يُعرَف!

رفعت هاتفها عن الطاولة وقالت:

- وماذا كان يسميها الجاحظ؟

فاجأه السؤال. ثم خطر له أنها قد تكون علِمتْ بمشروعه الذي يعمل عليه. فرد باسما:

- الجاحظ لم يتحدث عن تلك الأماكن، فهي هامشية وبعيدة بالنسبة له.

- كويس!

- لم نتعارف

- أنا حصة إبراهيم

- من وين؟

- من السعودية؟

وقع جوابها وقع الصاعقة. فالسعودية آخر البلدان التي كان يتوقع أن تكون الفتاة منها. دارى استغرابه برشفة من القهوة لم يذقْ لها طعما:

- من وين في السعودية؟

- من المنطقة الوسطى.

- من أي مدنها بالضبط؟

لم تجبه. فشعر بخجل يجتاحه، ونظر جهة مدخل الكافتيريا وقال مُغيّرا الموضوع:

- في أي الأقسام تعملين؟

- أعمل في قسم أمن المعلومات، بالقسم التقني.

- أوه، أنتِ -إذنْ- من النفاثاتِ في العُقَد؟

قطبت جبينها مخفية ابتسامة فاترة، وهي تلعب بهاتف نوكيا المتواضع قائلة:

- كيف يعني؟

- يُفسر بعضهم الآية: «ومن شرّ النفاثات في العقد» بأن دلالتها الحالية تقع على العاملين في أمن المعلومات، الذين تلعب أصابعهم بأمن الناس وأخبارهم ومعلوماتهم، يعقدون العقد الإلكترونية ويحلونها.

- والله هذا التفسير ذكي جدا.

مدت يدها إلى هاتفها ناظرةً في الرسائل الواردة. فانسدل شعرها الفاحم على الهاتف. فخطر له أن اللقطة يمكن أن تُرسم باحتراف: هاتفٌ متواضع مُلقىً، وشعرٌ فاحم منسدل على أطراف طاولة. ثم خطر له مع ذلكأن الفتاة أبعد ما تكون عن الجمال.

فوجهها طويل قليل اللحم، وعيناها عميقتان، وشفتاها مُحايِدتان، مع قامة مربوعةٍ أقرب للقصر. وجسم يشي الجينز الضاغطُ له بأن لا شيء فيه يدعو للاهتمام أو ليِّ الأعناق.

رفعت رأسها عن النظر إلى هاتفها. فلم تكن تبحث عن شيء معيّن، بل كانت فقدت روح الاندفاع في الحديث لكلامه عن الآية. فهي لا تضيق بشيء ضيقها بالمتدينين. ثم حملقت فيه متأملةً شفتيه الغليظتين وذقنه الحليق قائلة:

- تخصصك أدب؟

- لا، لماذا؟

- من تعلقك باللغة العربية.

فاجأه حديثها. فهو لا يذكر أن بينهما تعارفا سابقا يجعلها تعرف

عنه كل هذا. فقبل قليل أشارت للجاحظ، والآن تتحدث عن ولعه بالعربية. قال بتضايق وهو ينظر إلى هاتفها التعيس (نوكيا أبو المصباح)، مستغربا استخدامها له مع كَلَف بنات عصرها بآخر موضة في عالم الهواتف:

- هل قرأتِ سيرتي الذاتية؟

ارتبكت قليلا، لأنها لم تتوقع سؤاله، وقالت:

- النفاثات في العقد...

ووقفت، مستأذنة وسط صدمته.

اجتاحته موجة أسئلة مفكرا في هذه الفتاة الغريبة. وتساءل في نفسه: هل يعقل أن تكون دخلت على حاسوبه واطلعت على ما يكتب وعلى كل ملفاته؟ ثم تساءل عن انطباعاتها عنه وهي تقرأ كل ذلك دون علمه. وسط صدمته، أخذت حقيبتها وابتعدت خطوات، ثم رجعت ومالت عليه هامسة:

- بالله لا تقل لأحد ما قلته لك!

- لا بأس

- أمانة! بالله أمانة... سأشرح لك لاحقا.

هز رأسه موافقا، فيما كان أنفه قد اقتبس من رائحة البخور المعقودِ بالعطر الباريسي الفائحِ من أردانها.

أفاق على نفسه وهو يردد أبياتا علِقتْ بذاكرته قديما:

عَـدِّ عـن ذا، ففـي الخليـج نسـاءٌ

فــاتـنـاتٌ يَـسـبيكَ منهـنَّ عطـرُ

خــادراتٌ، فانظــرْ بأنفــكَ وارسُــم

صــورَ الــحســن، والـخيالُ يسرُّ!

أتبعها نظره وهي تنزل مع السلم، حيث تبادلت التحيةَ مع أحد الصحفيين الداخلين إلى باب الكافيتريا. لبث في مكانه قليلا حتى قدّر أنها تجاوزت غرفة الأخبار إلى القسم التقني، فنزل مسرعا إلى مكتبه.

جلس وفتح حاسوبه، محاولا طردَ صورتها من ذهنه.

البصرة، 175-180هـ

كان الجاحظ مستلقيا على بطنه واضعا مرفقيْه على الأرض ويديه تحت ذقنه، وهو يتأمل مدينة البصرة من ربوة عالية. كان يستلقي داخل خُصٍّ من الأخصاص التي يسكنها طلاب الخليل بن أحمد.

تأمل البصرة متسائلا: هل القرب من المحاسن يعمي عنها؟ أم البعد يوحي بمحاسن زائفة؟ وإلا ما بالنا نكون داخل البصرة فلا نرى إلا قصاباً في ثوبه الوسخ، أو سائلا أعور، أو كناسا يهوديا، فإذا خرجنا منها رأيناها مكتملة المحاسن بأنهارها ودورها وأسواقها، كأنها عروس تُجلى لعاشق؟

إن القرب أكبر حاجز عن رؤية المحاسن. وإلا لمَ لا يعشق معظم العشاق إلا من لا يقدرون على القرب منه، ولا يساكنهم؟ لذا يرون محاسنه مجتمعة، كما نرى محاسن القمر وهو بعيد، ولعل أحدنا لو طار إلى القمر ما رأى منه إلا بقعة باهتة تحت قدميه، ولزالت دائريته وبريقه وجماله ورُواؤه. ثم إن الحسناء نراها جميلة ما دامت بعيدة، فنرى مشيتها المترنحة، ونسمع نغَمها الساحر ونتأمل معاقد الحسن في جسمها البضّ. فإذا التصق بها عاشقها لم ير منها إلا ما قرب من عينيه فحسب!

جلس بتثاقل طاردا تلك الأفكار عن ذهنه. ذهب خياله بعيدا مستعيدا ذكريات مجيئه إلى هذا المكان رفقة أمّه قبل سنوات طويلة. يذكر جيدا كيف جاء معها على عادة أهل البصرة رغم أنه كان شابا يافعا.

تذكر يوم جاء معها إلى هذا المكان وكيف تقدم أمامها عندما وصلا فاعترضهما شاب أحمر يلف عمامة أكبر من جمجمته وسألهما: ما حاجتكما؟

بادره الجاحظ:

- نريد رؤية الخليل بن أحمد.

- انتظراني هنيهةً.

عاد الغلام بعد قليل طالبا منهما أن يتبعاه.

أحكمتْ المرأةُ لفّ خمارها الذي كان مرتخيا على جانب وجهٍ طرزتْه الغضون رغم مَيْعةِ الشباب الباقية. أمسكت بطرف خمارها وأمرّتْ طرفَه لتسمح به حبات العرق المتجمعة تحت حدقتيْ عينيها وشفتِها السفلى، ودخلت مرتبكة.

- السلام عليكم

- وعليكم السلام ورحمة الله

كان الخليل جالسا في ركن الكوخ الواسع، متربعا على طنفسةٍ خضراءَ نظيفة، وحوله نحو العشرة من طلابه، وبين يديه إناء زجاجي مملوء بشراب الرمان.

قام أحد الطلاب ورمى تجاههما وسادتيْن جلديتين فجلسا عليهما.

- هذا ولدي عمرو بن بحر. جئتك به ليتعلم علمَك ويرى سمْتَك. فهو لا ينفكّ ينفق كل ما تقع عليه يده لشراء الكتب. ولا ينفك منذ صغره يسألني عما لا أقدر على فهمه.

كان الخليل يستمع لحديث المرأة مطرقاً ممسكاً لحيته البيضاء بيده اليسرى، واضعا كفه اليمنى تحت مرفقه الأيسر. وكان طلابه يحدجون المرأة بأبصارهم عجباً، وهي تتحدث وكأنها تلاعب ولدها وهو في عامه الرابع:

- لم يكن كغيره من أترابه ولِداتِه منذ عقل. كنت لا أرمي له كلمة أسكتُه بها عن أمر إلا احتج علي بما يَبْهتُني...، كنا مرة في السوق وكان في عامه الرابع، فمرّ بائع عنب فطلب عنقودا منه فقلت له: إنه مرّ. فقال: هل ذقتِه؟ دعيني أجربه لأحكم، فقد يكون مرّا في حلقك حلواً بين فكّيّ.

كانت المرأة تتحدث وكأنها نسيت أنها في حضرة أعقل العرب. بل تحولت إلى أم تروي قصص طفلها لإحدى جاراتها.

تزحزح الخليل قليلا فوق الطنفسة، رافعا وجهه الأشيب والابتسامة لا تفارق محياه، ثم التفت إلى الفتى:

- صفْ لي حبَّك للعلم يا بني.

التفت الغلام إلى الطلاب المُطْرِقين وقد سكنت أقلامُهم ورفعوا أبصارهم صوبَه، منصتين لما يقول. أعاد بصره إلى الخليل وقال بلسان منطلقٍ وصوتٍ صافٍ:

- نعم. أحبه حبَّ الأم ولدَها، والغائبِ أَوْبتَه، وحبَّ الظمآن الصادي للماء الزلال.

- والله إنك لفصيح يا بني، ونحن إلى التعلم منك أحوج.

قاطعته أم عمرو قائلة:

- حبه للعلم عجيب. فهو ينفق معظم ما يجنيه من بيع السمك لشراء الكتب، ولقد جاء يوما وكنا ننتظره نكاد نقضي جوعا. فوضع الجراب عن ظهره فلما فتحته وجدته مملوءا كتبا، وكأنه نسي فوضع الكتب مكان السمك...

ثم اندفعت أم عمرو تضحك بصوت عال. شعر الجاحظ بحرج ضحك أمه بين يدي أعقل العرب، وظهر ذلك في تعرق جبهته، التي تكاد تكون المكان الوحيد الذي يفضح مشاعره كلما حاول إخفاءها. ابتسم الخليل مخاطبا أحد أنجب تلاميذه إبراهيم بن سيار النظّام، قائلا:

- قم يا إبراهيم وخذ عمْراً معك وأدرجْه في حلقتك.

تحفز الشاب الأسمر النحيف ذو الأنف الأفطس للوقوف -وهو يدسّ قلمَه ما بين طرف أذنه الأعلى وصدغه- ورحب بالجاحظ طالبا منه صحبتَه إلى أحد الأخصاص.

ودَّع الفتى أمَّه ثم تبع النظام، سالكا طريقا متعرجا وسط أخصاص متناثرة. لاحظ الفتى -وهو يسير خلف شيخه الجديد- أن الهيْنمةَ المنبعثة من الأخصاص ترتفع كلما ابتعدا عن مجلس الخليل بن أحمد. بدأت أذنه الواعية تلتقط أصواتا متناثرة تخرج من هنا وهناك.

كان يسير خلف النظام وأمشاج الأصوات تتسابق إلى أذنيه حتى لا يكاد يستمع لصوت حتى يشغله آخر.

سمع أصواتا تقرأ أشعارا قراءة قريبة من الحُداء، وسمع ترتيلا

مُشْجِياً لآيٍ من القرآن. غير أنه ما كاد يستمتع بالقراءة المشجية حتى ازدادت الأصوات المنبعثة من الأخصاص تداخلا.

وصلا بعد خطوات إلى خص واسع، فدخل النظام، وتريث الجاحظ ليسمع الحديث الدائر بين رجلين يجلسان تحت شجيرة عند مدخل الخص:

- انطقها كما ينطقها الهذليون.. لا تستطيع! قلت لك لا تستطيع!

- والله إني لأستطيع.

- إن لسانك أكثر التواءً من نيّتِك. وإنك لأكثر عجمةً من جدك وجدتك!

جاء شاب يجري وبيده خيط رفيع. وقف عند زجاجة ضخمة مثبتة على الأرض ثم اتكأ بقربها وبدأ يقيسها بالخيط. كانت عيناه لا تكادان تفتحان لتقابلهما مع أشعة الشمس، لكنه ظل صابرا حتى عدّ ووصل الرقم خمسة وعشرين.

كان الجاحظ يرقب الجِدّ البادي في عين الرجل المنبطح على الأرض، والخيط الدقيق المترجرج بين يديه، فكاد يضحك لولا حاجز الحياء.

دلف إلى الخص. كانت أرضيته مفروشة بحُصُرٍ من جريد النخل، والكتب والوسائد متناثرة في أطرافه. ارتبك قليلا غير أن النظّام دعاه للجلوس في الركن المرتب من الخص، حيث يجلس شاب ذو ذؤابتين تتدليان على كتفيه. تقدم النظام وخاطب الجاحظ قائلا: هذا صديقي الحسن بن هانئ أبو نواس. ثم التفت لصديقه وقال:

- هذا عمرو بن بحر، سيكون شريكنا في المسكن والدرس.

مدّ يده للفتى بارتباك محاولا تذكر المكان الذي رآه فيه قبلُ. أين رأى هاتين العينين العميقتين الناعستين.. وتينك الذؤابتين المنسدلتين؟ كان يتأمل الوجه الدائري المشوب بحمرة، وكلما تأمله ازداد شعورا بغرابته مع يقينه أنه رآه قبلُ.

خطر له أن المرء يرى بعض الوجوه أحيانا فيشعر بأنها ناتئة عن عقله وقلبه، فيقوده ذلك لسوء الظن بها من أول نظرة. وبعض الوجوه تملك مفتاحا سحريا تتسلل به إلى قلب المرء دون استئذان.

كانت هذه الأفكار تلعب بذهنه، بينما انشغل النظام بجمع بعض الكراريس واندفع يرتبها. جلس الجاحظ جنب الشاب دون أن يتحدث أحدهما للآخر. كان مندهشا من المكان اندهاش الداخل في مكان مجهول، وكان الشاب مستثقلا حضور الجاحظ استثقال صاحب البيت لغريب تسور عليه فجأةً.

اقترب النظام وبيده حزمة من الكراريس فجلس يمين الجاحظ وقال:

- كيف معرفتك بالشعر وأيام العرب؟

- حضرتُ مجالس الأصمعي وأبي عبيدة أشهرا. وإذا كان حضور التحريش بين الأعراب وكتابة أقوالهم معرفة بالعربية فقد شهدت من ذلك ما يغني.

لم يُعِرْ إبراهيم النظام إجابةَ الجاحظ كبير اهتمام، بل لم ينتبه لما قاله؛ فقد اندهش وهو يتأمل وجهه الشائه كأنه يلاحظ معالمه للوهلة الأولى.

عينان بنّيتان واسعتان جاحظتان يخيل للناظر أنهما موشكتان على السقوط لنتوئهما عن الحاجبين الكثين الأغَمَّيْن. وأنف أفطس متوسط الحجم، تحته خدّان كأنهما حُفِرا حفراً. ونتفٌ من الشعر بدأت تغزو عارضيه على غير هدى. وأسنان متشاكسة تظهر وتختفي بين شفتين غليظتين.

أفاق النظام ملاحظا انتباه الجاحظ لتأمل خِلقته، فقال:

- لعلك تجد في صحبة أبي نواس ما يُعجب ويُطرب، فهو شاعر وفقيه ومتكلم.

نظر الجاحظ بطرف عينه اليسرى إلى أبي نواس، فرآه متشاغلا بالنظر في مجلد ضخم. خُيّل إليه أنه لا يفهم منه شيئا، وإنما يتشاغل عن الترحيب به ضِيقا بحضوره.

تفرس أنه من أهل خوزستان، تلك المدينة التي لا يضيق بأحد ضيقه بأهلها. ثم ذهب خياله بعيدا متذكرا أنه رأى تيْنك العينين الناعستين المليئتين بالألغاز، والذؤابتين المنسدلتين عند الفرّان القريب من منزل أهله.

ومع غرابة استقبال المضيف للجاحظ، فإنه شعر بسعادة غامرة ورغبة في حفظ وإتقان كل ما يمور به هذا المكان المليء بالعلم والتجارب. جعل يُصعد عينيه ويخفضهما في الكتب المصفوفة والكراريس المتناثرة، مفكرا في حجم الإمتاع والأنس العظيمين اللذين ينتظرانه بين هذه الأخصاص المطلة على البصرة.

اقترب النظام من الجاحظ ليسأله:

- أي الفنون تود أن تنشغل بها هذه الأيام؟

كان الجاحظ قد بدأ يستريح للمكان، وكان الشعور بالغبطة مستوليا عليه فأجاب طبقا لخاطره، لا للسؤال:

- كيف لرجل منّ الله عليه بصحبة الخليل أن يتركه ويعود للعيش في حي بني كنانة؟

أفاق الجاحظ من ذكرياته تلك وهو ما يزال جالسا في مكانه ينظر إلى البصرة من علوّ. وقف متثاقلا، ملقيا نظرة على الكتب المرصوصة في طرف الخص، وخرج لحضور مجلس الخليل، مفكرا في ذكرى أمه التي توفيت منذ أشهر.

* * *

استيقظ كعادته قبيل الفجر بقليل، واستل نفسه من بين أجساد زملائه. وضع رجليْه في نعليه المهترئتين ومشى خطوات متثاقلة. كان عازما على حضور درس مع أحد أئمة الحديث.

ترك الأخصاصَ المتراصة وراءه، وكان هدوء الليل ينحسر عن أطراف البصرة بتدرج، وأصوات نباح الكلاب تختلط بصياح الديكة ونداءات المؤذنين. دخل مسجد الإمام إسماعيل بن علية، فوجدهم فرغوا من صلاة الصبح.

بدأ الطلبة يتزاحفون مقتربين من ابن علية. زحف هو من جهته بعد أن صلى سريعا. تحرك الشيخ من محرابه ليجلس عند إحدى السواري وعَصَبَ الطلاب حوله.

الجو ساخن رطبٌ داخل المسجد. وضاعف تقاربُ أجساد الطلاب في شكل دائري حول الشيخ من السخونة والرطوبة. جلس الجاحظ

مقابل الشيخ، فغشيتْه رائحة الملابس المتسخة والأجساد المتعرقة.

بدأ ابن علية ببيان شرف علم الحديث، مذكرا بأن شرف كل علم نابع من شرف موضوعه. كان يتحدث بهدوء وكأن بقية نعاس ما زالت متواريةً في حباله الصوتية، رغم القراءة الندية التي قرأ بها في الصلاة قبل قليل.

بعد ساعة، اتضحت أوجه الطلاب شيئا فشيئا. إذ تكاد الشمس تخرج حاجبها من كُوّة المسجد. فبدا وجه أنجب طلاب ابن علية -علي بن المديني- شديدَ البياض، مفعما بالحياة، حتى لكأنه الوحيد الذي نام نوما هنيئا تفضحه صفحةُ وجهه المتورّد. كما بدتْ عمامته -المكورة بأناقة حول شعره الفاحم- وأنفُه الأقنى وشفتاه الدقيقتان أكثر وسامة من ذي قبل.

كان الجاحظ متلفعا في ثوب متخرق بال. أطرافه مشققة ولونه لا يكاد يُتَبين. وكان أفضل ملابسه طيلسانا أسود ما زال متماسكا يلقيه على عاتقه.

رفع الشيخ ابن علية عينيه وخاطب طالبَه عليَّ بنَ المديني قائلا:

- حدثنا عن شرف علم الحديث!

كان ابن علية يحب أن يسمع حديث تلميذه المديني. فحلاوة ألفاظه وقوة حجته ووسامته تجعل مثل ابن علية يفخر بأنه من طلابه. تنحنح المديني وقال بصوت واضح:

- إن شرف كل علم -كما قال الشيخ- نابع من شرف موضوعه. فإذا كان بعض الناس مثلا يبكّرون في مثل هذه الساعة لدراسة

الكيمياء، والانشغال بالهيولى والمنطق اليوناني، فنحن نشتغل بكلام خير البرية.

ما إن نطق المديني كلمة «خير البرية» حتى صاح شيخ مضطجع بين السواري بصوت مرتفع:

- بأبي هو وأمي! ﷺ.

فالتفت ابن علية جهة الرجل المضطجع، فقال له المديني:

- هذا صوت المتجنن رأس النعجة.

ثم واصل ابن المديني:

- إن أهل البصرة اليوم منقسمون إلى أقسام. فقسمٌ عاكف على علوم الأوائل، لا يفتر عن ذكر أريسطو طاليس وأفلاطون وإقليدس. وقسم مستهتر بأخبار العرب وأيامها وأشعارها، وما قال الشاعر في بني فلان وما هجا به بني علان.

فهم الجاحظ في كلام المديني غمزا فيه وفي شيخه الخليل بن أحمد وصديقه النظام. همّ بأن يتكلم لكنه تراجع، فواصل المديني:

- وقسمٌ لا شغل له إلا أيام موبذان، وما قال أردشير بن بابكان، وما فعل كسرى أنو شروان. وقوم آخرون وفقهم الله للعكوف على سنة المصطفى أيام إدبار الناس عنها، ولعل هذه الجماعة المرحومة من أهل الحديث رأس ذلك. جعلنا الله من المتمسكين بسنة رسوله...

ثم جاءت الصرخة من جهة رأس النعجة أقوى هذه المرة:

- بأبي هو وأمي! ﷺ. تعيشون من بركاته، وتأكلون الفالوذج من

كلامه، ثم تكسلون عن الصلاة عليه؟

سكت الجميع، بينما كان الجاحظ يواري ابتسامة. لكن ابن علية قال بصوت مغضب:

- صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. تجنبْنا يا هذا.

قفز شابان من الحلقة ليخرجاه، فقام رأس النعجة وركض خارجا من المسجد، مراوحا بين الغناء والتصفير.

واصل ابن علية حديثه، فيما كانت الشمس قد ارتفعت من جهة الكوة فاتضحت الأوجه أكثر فأكثر. حيث بدتْ جبهةُ ابن علية الواسعة وعليها أثر الحصى من الصلاة.

وختم ابن علية حديثه فاتحا الأسئلة لمن شاء.

تحرك شاب في طرف الحلقة ومال بجسمه دون أن يترك مكان جلوسه:

- يا شيخ، لقد كثرت علينا الأحاديث. فما ندري ما نترك وما ندع. فلماذا لا نعمد إلى القرآن الكريم فنلزم ما فيه من أمر ونهي ونطرح ما عداه؟

في هذه اللحظة، شخصت الأبصار إلى ابن علية في انتظار جوابه. إذ شهد المسجد بعد صلاة العصر أمس حديثا بين بعض طلبة العلم في هذا الأمر. ثم اتفقوا على أن يسأل أحدهم ابن علية.

مد ابن علية يسراه جهة كتفيه وخلع طيلسانا كان عليهما رغم الحرارة والرطوبة. ثم وضعه تحت ركبته اليسرى معتمدا عليه، وقال بصوت مفعمٍ بالجدية والاحتشاد:

- روينا عن غير واحد من شيوخنا أن النبي ﷺ قال: «ألا إني أوتيتُ القرآنَ ومثله معه». ثم إننا إذا عمدنا إلى القرآن وحده، لن يشفي غليلنا في أمور كثيرة. فكيف سنعرف مقدار الزكاة في أموالنا؟ ومن لنا بمعرفة عدد ركعات الصلاة وأوقاتها؟ ثم من أين سنعرف مناسك الحج؟ وأنى لنا بمعرفة شروط صحة النكاح؟

كان ابن المديني منتبها أشد الانتباه لكلام شيخه. غير أنه ما إن سمع كلمة النكاح حتى سرح خاطرُه بعيدا. فتذكر كيف حدثته أمه قبل أيام عن نيتها تزويجه من فتاة فاتنة. وكيف وصفتها له ذلك الوصف الذي ما كان يظن أنه يدور بخاطر أمه المنهمكة في العبادة أبدا.

خفق قلبه وهو يتذكر قولها:

- إنها يا ولدي غضّةُ البدنِ، لدِنةُ القد، تتثنى في مشيتها كأنها خوط بانٍ. والله إنها لتنسي المهمومَ همَّه، وتُسلي الغريبَ عن أهله وأحبابه.

انتبه المديني، مُؤنّباً نفسَه كيف سرح خاطره عن أحاديث رسول الله، وبين سواري بيت الله، ليفكر في محاسن فتاة ما زالت أجنبية عليه. فاستغفر وتحرك في مكانه، مراوحا بين الجلوس على رجليه.

ثم انتبه إلى أن ابن علية قد أنهى الجواب على السؤال، ودخل في الحديث عن جهود أهل الأثر في حفظ السنة:

- إن الله سبحانه وتعالى قد تعهد بحفظ القرآن فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. ونحن نرى أن حفظ السنة من حفظ القرآن؛ إذ بها يُبيّن القرآن ويُفهم.

ثم سكت ابن علية قليلا وتنحنح، فبرزتْ بوضوح أصوات قراءة الأطفال في أحد الكتاتيب القريبة. فبادر الجاحظ سائلا:

- لكن كيف نثبت أن القول الفلاني من كلام النبي قطعا؟

- نعرف ذلك بمعرفة الرجال الناقلين والتأكد من صدقهم وضبطهم.

- لكن هذا لا يصح. فلو كان الرجل المعروف بالصدق لا يكذب، والأمين المعروف بالأمانة عند الناس لا يخون، والثقة لا يَنسى، والوفيُّ لا يغدر لطاب العيشُ يا شيخ. فهذا أمر متعذر عقلا.

بدا الحرج في وجه ابن علية، وانتابته كحة خفيفة، بصق في منديل صوفي ثم رده إلى جيبه قائلا:

- هذا القرآن محفوظ. فلو طارت كل المصاحف الآن أو رُميتْ في البحر، لاستطاع كل حي من أحياء المسلمين كتابته كاملا من صدور أطفالهم. أليس كذلك؟

- بلى!

- وما دام الله قد تعهد بحفظه فهو محفوظ، وحفظ السنة جزء من حفظه لأنها شارحة له. ثم إن الثقة ممكنة عقلا، والثقات معروفون، وبراهين الوقائع تثبت ذلك.

كان الجاحظ يستمع بانتباه لكلام ابن علية، وكان المديني ينظر إلى ردات فعله أكثر من نظره إلى شيخه. فقال الجاحظ:

- لولا أن الثقات يكذبون في آرائهم لما تناقضت آراؤهم، فنحن نرى الرجل من المعروفين بعلم الحديث يدعي أنه التقى فلانا وهو لم يلقه.

- هذا يا ولدي ليس بثقة، وهو مجروح عندنا.

- لو وجب علينا تصديق المحدث لظاهر عدالته لوجب علينا تصديق مثله وإن خالف روايته وناقض خبره، ولو صدقناهما لتناقضا ولو تناقضا لصدقنا الضدين، وهذا لا يصح عقلا.

ثم اشتدت الكحة على ابن علية، ورفع عينيه الدامعتين وقال للجاحظ:

- هذا ما نراه وما ننتحله يا ولدي. فإن كنت من أصحاب الأهواء فاصحب غيرنا.

وارتفعت غمغمات في أطراف الحلقة، قطعها صوت المديني:

- إن أهل الأهواء مولعون بالشغب على أهل السنة.

وشعر الجاحظ بالإساءة، ثم تذكر ما قال له النظام من أن أهل الحديث لا يؤاخذون بما يؤاخذ به أهل الفلسفة والكلام. فأمسك ولم يتكلم.

ساد الهدوء هنيهات، ثم وضع ابن علية يديه على الأرض ووقف. فوقف بوقوفه كل الحضور وودعوه إلى باب المسجد.

عاد ابن المديني إلى مكان جلوس ابن علية وأسند ظهره للسارية. غير أن نصف الحضور انصرف، ولم يبق معه إلا فتية ثلاثة رابعهم الجاحظ.

تنحنح المديني وكأنه يحاول تقليد صوت شيخه دون قصد منه:

- إن الشيخ لم يعدُ الحقَّ حين قال إن السنة محفوظة، فهذا مالك بن أنس ألف كتابا جمع فيه السنة من أفواه التابعين في المدينة. وقد

قيض الله رجالا ليتبعوا الأسانيد وينقدوها ليميزوا الصحيح من السقيم.

وتوقف عن الحديث ليمسح حبيبات عرقٍ تجمعن تحت جانب عمامته مما يلي صدغه، فبادره أحد الطلاب ممن هم أكبر منه سنا:

- لمَ قبل أهل الحديث الرواية عن أصحاب البدع؟ ولمَ لا تُقصر على أهل الأثر الملتزمين بالسنة؟

رد المديني يده إلى مستقرها فوق ركبته وقال:

- لا. لقد قبل أهل الحديث أحاديث مخالفيهم لأنه لا يمتنع عقلا وطبعاً وجود الصادقين بينهم. فالخُلُق خصلة معزولة عن الورع. فقد تجد الرجل الذي لا بأس بدينه يترخص في الكذب. وقد تجد الرجل الذي لا دين له يتصوّن ويأنف من الكذب مروءةً لا تأثماً.

- ولكن، ألا يستطيع صاحب البدعة الترخص ووضع الحديث حتى وإن كان خلقه متينا؟

ابتسم المديني، وهو يرى نفسه قد تصدر للإفتاء ولمّا يصل العشرين من العمر، فقال بغبطة:

- إنا معاشر أهل الأثر لا نسعى إلا لمعرفة الصحيح والسقيم من الأحاديث، ولا يمتنع عقلا وجود حديث عند بدعي ثقة وصل إليه بطريق لم تتيسر لغيره.

كان الجاحظ قد شعر بعدم جدوى النقاش، غير أنه قرر مواصلة الاستماع حتى يفهم المنطق الذي يقوم عليه مذهب القوم.

ثم سأل سائل في صوته بحة رافعا صوته:

- لعل ذلك ممكن في مكة والمدينة حيث كان أصحاب رسول الله. أما في بصرتنا هذه فما أرى في هذ المبتدعة -من معتزلة وخوارج وروافض- خيرا.

التفت ابن المديني إلى الزقاق المحاذي للمسجد فلاحظ ارتفاع النهار. فأعاد نظره إلى الطالب قائلا:

- لكن هنا أمرا ربما غاب عنك. وهو أن البصرة كانت سكنا لجمع من صحابة رسول الله مثل أنس بن مالك، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن عباس الذي توَلَّى إمارتها لعلي بن أبي طالب.

كان المديني يتحدث منطلقاً، وهو يسرد أسماء الصحابة الذين نزلوا البصرة للزيارة أو السكن. وكان إذا تحدث في أسماء الصحابة وتفاصيل حياتهم يستغرب سامعه كيف حفظ كل هذا العلم مع حداثة سنه.

كان المديني يتحدث، والطلاب شاخصو الأبصار إليه، والهدوء يخيم على جنبات المسجد المسقوف بالآجر وجريد النخل. فجأة، تحرك باب المسجد، فالتفت أحد الطلاب فرأى جارية هندية تحمل إناء كبيرا.

أشار المديني إليه بالقيام إليها. وقف الطالب إليها فناولته إناء خزفيا مترعا باللبن. ثم قالت والحياء يغلبها:

- لقد بعثتني مولاتي بهذا الشراب.

عاد الطالب بالإناء، وعين الجاحظ لا تكاد ترتفع عنه. فقد كان يشعر بجوع شديد.

وضع الطالب الإناء بين يدي المديني، ثم قام إلى حجرة في جانب

المسجد وأتى بإناء صغير. أترع الإناء الخشبي الصغير من اللبن المخيض وناول ابن المديني فاعتذر، فناول الطلاب واحدا واحدا.

واصل المديني حديثه بهدوء، وصوتُ ازدراد اللبن يترامى إلى سمعه وقال:

- لقد نزل بالبصرة كثير من الصحابة مثل عتبة بن غزوان، وعمران بن حصين، وأبي برزة الأسلمي، ومعقل بن يسار، وعبد الرحمن بن سمرة، وأبي زيد الأنصاري، وعبد الله بن الشِّخِّيرْ، والحكم وعثمان ابنيْ أبي العاص.

كان الإناء قد وصل إلى آخر الطلاب جلوسا في طرف الحلقة، فعبّ منه ثم وضعه على الأرض، ومسح فمه بيده وقال:

- ولا تنس أيها الشيخ أن الناسَ تعلموا في هذه المدينة على يديْ الحسن البصري الذي أدرك خمسمائة من الصحابة، ومحمد بن سيرين، وأيوب السَّختياني، وبَهْز بن حكيم القشيري، ويونس بن عبيد، وخالد بن مهران الحذّاء، وعبد الله بن عون، وعاصم بن سليمان الأحول، وقتادة بن دعامة السدوسي، وغيرهم.

تهللت أسارير المديني ثم استدرك على الطالب قائلا:

- هذا صحيح. غير أننا نرى أن الحسن البصري مدلِّس.

فقاطعه الطالب وقد خف الجفاف الذي كان باديا على محياه قبل الشراب:

- أعلم ذلك أيها الشيخ. ولكنّ في تلاميذه ثقاتا عدولا.

لم يتمالك الجاحظ أن قال بصوت منخفض:

- إذا كان الحسن البصري غير عدل، فكيف نثق في العدالة معيارا للرواية؟

قال المديني:

- الحسن البصري عدل ثقة، لكنه يدلس في الرواية. وهنا فرق دقيق.

وابتسم الجاحظ، وهمّ أن يرد بجملة مفحمة، ثم تذكر أن ابن المديني قد يغضب، وأن لا فائدة من محاورة هؤلاء بالحجج المنطقية.

تثاءب ابن المديني وهو يبادل الجاحظ النظرات، وسالت دمعة على خده الأيمن، مسحها بطرف أصبعه قائلا:

- لعلنا نلقاكم في صلاة الظهيرة.

وقف القوم واحدا تلو الآخر، والتفت المديني إلى أحد الطلاب قائلا:

- أعد إلى الجارة إناءها.

خرج الجميع من باب المسجد. وخرج الجاحظ مفكرا في طول المسافة التي تفصله عن مدرسة الخليل. ثم توسط الطريق وهو يفكر كيف سيجد ما يسد به رمقه، فأمعاؤه تكاد تتشقق جوعا.

***

الدوحة، 1438هـ

لا يذكر كم جالسها بعد ذلك، ولا كيف بدأ يشك في تصيّدها له في الكافيتريا.

لكنه كان لا يلقي لها بالا بداية، فما هي من الفتيات اللائي تشعر نحوهن بانجذاب من أول مرة. بل كانت من ذلك النمط من النساء المحتاج لوقت طويل كيْ يرميَ حبالَ غوايته. تستطيع بعض النساء رمي الفؤاد بسهم من أول لقاء، أما بعضهن فلا بد أن يسافر الرجل في عوالمها كي ينجذب إليها بتدرج. تماما مثل أمواج الشطآن.. تزحف بتدرج حتى تُغرق الغافلَ الواقف على ضفافها.

لقد سافر في عالمها أياما، وأبحر في تلافيف شخصيتها أشهرا دون أن يدري.

بدأت العلاقة تتوطد، وشغاف القلوب تتماهى. تواعدا على الكورنيش، دون أن يمشيا معا.

بل يمشي كل منهما على حافته، بحيث يراه الآخر من بعيد، ثم يتحدثان على الهاتف. تستمر أحاديثهما أحيانا ساعاتٍ. عرف عنها كل شيء، عرف كيف ترك والدُها السعودية وقرر الاستقرار في قطر، وكيف طلق أمها التي بقيت هناك، وكيف سافرت هي لدراسة أمن

المعلومات في إحدى الجامعات الأميركية.

مكنته مئات الساعات الهاتفية، واللقاءات الخاطفة في كافيتريا قناة العروبة، من التعود على شخصيتها الغريبة.

فلم تكن حصّة فتاةً سعودية عادية.

فقد أورثها الجو الديني المكثف في منطقتها بالسعودية ضيقا شديدا بالمتدينين، وفهما خاصا للإسلام. فهي تسخر دائما من المتدينين، لكنها تخشى من العين خشيةً جنونية. تدعو إلى الليبرالية الاجتماعية، لكنها ضد الحرية السياسية. تنتقد الحركاتِ الإسلامية السياسية، لكنها تُدافع عن المدرسة الوهابية بعقلية بدويٍ يطلب ثأر أبيه!

كلمتْه قبل أيام هاتفيا، قائلةً دون مقدمات:

- قل ما شاء الله لا قوة إلا بالله!

- ليش؟

- قل وبعدين أقل لك.

- ما شاء الله لا قوة إلا بالله!

- قبل يوم قلت لي إن سيارتي جميلة، ومن يومها وأنا ألاحظ أني أكاد أقع في حادث سير عند كل منعرج.

ومع ذلك تعطي الانطباع بميلها إلى التفسير العقلي للدين مع محدودية ثقافتها، وتدعي أحيانا ميلها إلى شيء من التحرر السياسي، ثم ما تلبث في أول نقاش جادّ أن تنفجر:

- نحن العرب لا نصلح إلا للحكم الاستبدادي.

ومع ملابسها اللافتة وحرصها الدائم على ارتداء الجينز وكشف

الرأس، فهي محافظة اجتماعيا.

كانت غرابة شخصيتها أكبر ما يغريه فيها، ومن أشد ما يضايقها من نفسها. فهو يضيق بالفتاة الباهتة العادية التي تخلو حياتها من أي تعرجات أو نتوءات. كان يقول لأصحابه:

- أنا لا أريد أن أتزوج فتاة مثل جدتي. أريد فتاة تفاجئني طول الطريق، حتى ولو كانت مفاجآت سلبية.

أما هي فكان أيضا مما يجذبها إليه غرابة شخصيته. تحب تعلقه باللغة ومبالغته في أهميتها في كل شيء، وكانت تتمتع بمراقبته وهو يكلم العمال الآسيويين بالفصحى. فإذا تعلموا منه كلمة برقت عيناه بسعادة طفل فقير حصل فجأة على لعبة، كان يعلمهم ويكتب لهم الكلمات على المناديل، ويهجّيها لهم حتى يتأكد من صحة نطقهم لها، وإذا عاد إلى نفس المكان استخدم معهم نفس الكلمات التي علمهم إياها.

ومع أن سر انجذاب كل منهما للآخر غرابة شخصيته، فإن كلا منهما يود لو غيّر ذلك الجانب من شخصيته.

والإنسان لا ينتبه دائما لأقوى أسلحته التي يملك.

كان من أكثر ما جذبها إليه تدينه المخالف للتدين الذي عرفتْه. فعندما رأته أول مرة لم تتوقع تدينه، لكنها مع طول الصحبة هجمَتْ منه على خصائص غريبة. فقد اكتشفت استحالة التواصل معه ببعض الأماسي. وبعد تتبعٍ وكيدٍ فهمت أنه يعتكف في مسجد منعزل في ضاحية من ضواحي الدوحة.

كما اكتشفت ولعه بصدقة السر، وكلفه بمساعدة المعوزين، فكم ذهب إلى وُرَش البناء في منطقة الدفنة مترصدا العمالَ الآسيويين لحظة

انقلابهم من أعمالهم منهكين ليدسَّ مئات الريالات في جيوبهم، وكم وزع عليهم المشروبات في أيام الدوحة القائظة.

ومما زادها إعجابا بتدينه المختلف، ذلك الجهد الذي يبذله في إخفاء صدقاته وعباداته حرصا على الأجر. كان هذا الجانب من شخصيته مناقضا لأنماط من التدين ألفتها في أهل منطقتها ممن يتدثرون بعباءة التدين.

اليوم، كانا جالسين في الكافيتريا، فضاع هاتفه. طلب منها أن تتصل عليه، فاتصلت. رن الهاتف فوجدته مرميا تحت الكرسي. أمسكته لتناوله إياه فكانت المفاجأة أن رقمها مخزن في هاتفه تحت اسم: «مطوَّعة بريدة!».

صاحت:

- حرام عليك، لمَ تسميني مطوعة بريدة؟ هل تراني أشبه مطوعي بريدة!

- أرى أنك حنبلية في مسلاخ ليبرالية! وقبَليّة في لحاف مواطنة.

- كيف؟

تردد قليلا، وهو يشيح بوجهه نحو مدخل الكافيتريا مداريا ابتسامة:

- مطوعة بريدة اسم جميل!

ابتسمت، وهي تشعر بألفة غريبة مع اسم تسمعه لأول مرة. ثم حركت كأس القهوة وقالت:

- لكنك تعرف أني لا أضيق بشيء ضيقي بمطاوعة بريدة!

- تلك القشرة البادية، لكن أفكاركِ الدفينة كلها أفكار مطوع من بريدة.

ظلت تنظر في كوب القهوة، وهي تفكر في مدى دقة ما قال.

حانت منه التفاتة إلى شاشة التلفاز المعلقة، فرأى خطأ نحويا فادحا أسفل الشاشة. وقف دون مقدمات وصاح بلهجته الموريتانية:

- الله يقَصّرْ أعمارِكمْ!

انتشلها منظره من الجو الجاد الذي كانت فيه، فدارت ضحكة وهي تراقبه. ثم قالت:

- اجلس، ما عليك. ولا تنس أنك لست مدققا الآن!

عادت لحظات الصمت، ثم قطعها هو بعد أن سكنت فورته قائلا:

- اللغة العربية يتيمة بين هذه الجدران، ولا يهتم بها أحد. أنا من أسرة تُعلي من قيمة اللغة، وكان جدي لا يرضى أن يبيتَ بمكان ليس فيه نسخة من القاموس المحيط.

شعرت بملل وهي تسمعه يبدأ في الحديث عن اللغة، لعلمها أنه إذا فعل ينسى المكان والزمان ولا يتوقف. فقاطعته ساخرة:

- أما أنا فكان جدي قاطع طريق!

انتبه إلى أنه قد يكون بالغ في مدح أجداداه، وهو يتحدث مع بنت من مجتمع يعلي من القيم القبلية وإن تنكرت هي لكل ذلك، فقال بخجل:

- ونصف سكان بلدي كانوا قطاع طرق أيضا.

قطعت الحديث قائلة بمكر أنثوي:

- تعجبني لغة المذيعة سلمى!

رمت العبارة، وحدجتْه بعينيها حتى تقرأ كل حركة في جفنيه، وكلَّ دوران لحدقتيْه. رمت العبارة، ثم كمَنَتْ له متحفزةً كأنها هرة تستعد للوثوب. فقال بعفوية:

- إي والله!

انتبه لوقوعه في الفخ، والتفت. رأى عينيها مترعتين بالغيرة الحارقة. قال –وكأنه طفل أمسكه أبوه يسرق من الجيران– قصدي أن لغتها جيدة، لكنها ثقيلة الدم.

لم تجبه، وساد صمت لثوان. ثم ظهر صديقه مازن قادما من مدخل الكافتيريا، ملوّحا بيده المقبوضة على سيجار.

قطع القروي الصمت وقال:

- ألا تريْن أن الوقتَ حان لنناقش الموضوع.

فهمت ما يقصده، وتغافلت مقطبةً جبينها:

- أي موضوع؟

- الموضوع الذي ناقشناه البارحة هاتفيا.

لم تجبه، وفكرت أن تصيح في وجهه:

- وهل مر على تعارفنا إلا أشهر قلائل؟

غير أنها دارت مشاعرها، والتفتت جهة موظفة الكافتيريا متخيلة صورة والدها يقول لأمها:

- البنت انهبلتْ! كيف تتجرأ على التفكير في هذا؟

لاحظ سحابة غضب مشوب بهمّ على وجهها وعينيها العسليتين.

لم يتكلم، بل قرر انتظارها حتى تبدأ الحديث. مر وقت مترعٌ بالصمت الثقيل، ثم قالت:

- لا أرى أن الوقت مناسب للحديث مع أهلي في هذا الأمر.

وقفت دفعةً واحدة، وأخذت حقيبتها اليدوية، وتوارت. ركض هو إلى مكتبه، وخيالُه يبتعد شيئا فشيئا عن عالمها.. وعن عالم الإعلام والصور المعاصرة ليغرقَ بعيدا... في حواري البصرة.

* * *

التفت الجاحظ بعد أن غزتْ منخريْه رائحةٌ شهية. فرأى الدجاج المشوي الشهي يسيل سمناً أمام دكان فرّان. فازدادت سخونة البخار الحار الذي يكاد يفتت أمعاءه. تخيل موائد الأثرياء وما فيها من مُتع وأُنس وبهجة، وهو يدخل إلى باب الجامع الكبير بالبصرة.

أدار بصره في الجامع المكتظ. رأى صالحا الخوزي -أشهر مناظرٍ عن عقائد المجوس في البصرة- قادماً من الباب الآخر يتخطى الرقاب بصعوبة وهو في طريقه إلى منبر منصوب بين السواري، بعيدا عن المحراب.

جلس الجاحظ، ووقف شاب واضح اللهجة حلو مخارج الحروف، أسمر السحنة، وبيده ورقة وقلم وقال:

- يا أهل البصرة، هذان شيخان من أجلّ مشايخكم. هذا صالح الخوزي، وأبو هذيل العلاف سيتناظران وفق آداب المناظرة والمباحثة. صالح يناظر عن الثنوية، والعلاف عن التوحيد. فلا تنسوا أن الحق مقصدنا، وأن الصراخ والصياح ليسا غلبة بل شغبا وسوء أدب.

ثم التفت الشاب إلى صالح وطلب منه الوقوف لبدء المناظرة.

وضع صالح يديه على الأرض، ثم تحامل عليهما واقفا. مشى خطوات وارتقى المنبر بصعوبة ثم جلس، التفت يسرة فرأى مجموعة من الشبان جالسين بزيهم المحتشم وعمائمهم المكورة فعرف أنهم من تلاميذ العلاف. والتفت يمنةً فلاحت له كوكبة من طلابه وحوارييه جالسين حاسري الرؤوس. أمرّ يسراه على طرف لحيته الصهباء وقال:

- نحن نقول إن النور والظلام هما أصلا الخير والشر في هذا العالم. ونرى أن العالم مركّب من عشرة عناصر؛ خمسة منها عناصر خير ونور، وخمسة منها عناصر شر وظلمة.

كان صالح يتحدث والهدوء يغزو جنبات المسجد إلا من صرير الأقلام على القراطيس بأيدي الطلاب، أو كحةٍ شاردة من صدر شيخ مريض. فنوافذ المسجد مغلقةٌ لتلبد السماء بالغيم وهبوب ريح الشمال الآتية برائحة سوق الغنم غير البعيد، مما زاد كثافة رائحة العرق الناشئ من الزحام.

واصل صالح حديثه بمخارجه الواضحة، ولغته العربية الصقيلة:

- إن الإنسان مركّب من تلك الأجناس على قدر ما يكونُ في كلّ واحد من رجحان جنس الخير على جنس الشّرّ. ثم إن الإنسان -وإن كان ذا حواسّ خمس- فإنّ في كلّ حاسّة منها عناصر من الأجناس الخمسة. فمتى نظرتْ الأم مثلا نظرة رحمة فتلك النّظرة من النّور، ولا نسبَ بينها وبين الظلمة، ومتى نظر الإنسان نظرة غضب إلى عدوه فتلك من الظلمة لا محالة، وقس على هذا. غير أن ها هنا جزءًا لطيفا لا بد من التنبيه عليه. ف...

التفت صالح يمينه ملقيا ناظره إلى طرف المسجد فرأى رجلا كبيرا نحيفا يدس يديْه الشاحبتين ليفليَ ملابسه القذرة، منشغلا بإخراج القمل وقتلِه.

احمرّت وجنتاه، واستولى عليه شعور بالرغبة في إنهاء الحديث. إذ كيف يتحدث إلى هؤلاء عن مسائل من دقيق الكلام.

ثم التفت فرأى عينيْ أبي الهذيل العلاف العميقتين مستقرتيْن عليه تترصدان كل كلمة يفوه بها، فانبعث من جديد بعزيمة شاةٍ رأتْ ذئباً:

- فأنتم تُصرون على أن الله واحد، ولا تنكرون من عقائدنا شيئا إنكاركم للثنوية. فما الدليل على أن الله واحد؟

واصل حديثه حاشدا كل الأدلة على فكرة الثنوية وقيام العالم على أصليْ الخير والشر المتنافرين، مستخدما كل ما أوتي من جدل وبلاغة. ثم أشار له الشاب الأسمر القائم على تنظيم المناظرة عاقدا أصبعين، منبها إياه إلى أن عليه إنهاء حديثه.

بعد هنيهات، التفت الشاب إلى العلاف طالبا منه التقدم لصعود المنبر.

وقف العلاف دفعة واحدة كأنه يقفز، فجسمه النحيف المخروط وملابسه الخفيفة البيضاء تجعل حركته سريعة تشبه حركة الصبيان، مع كونه جاوز الأربعين. تقدم إلى المنبر، مُبسملا ومُحوقلا.

جلس على المنبر وأخرج من جيب جبته منديلا مسح به أرنبة أنفه القصير وجبهته.

بدأ العلاف يتحدث، بادئا بقراءة الآية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. ثم طفق يحشد الأدلة على استحالة قيام العالم إلا على إله واحد مدبر لطيف.

كان الجاحظ جالسا وسط طلاب أبي هذيل، وبين يديه كومة كراريس لا يكاد يرفع بصره عنها إلى المتناظرِيْن لانشغاله بالكتابة. أما النَّظَّام فكان جالسا عند ظهر شيخه أبي الهذيل حتى إن ركبتيه تكادان تلامسان المنبر، ثم جاء صوت العلاف:

- أما سؤالكم: لماذا نؤمن بأن الله واحد لا ثاني له، فلأنه لو كان معه إله قديم لوجب أن يكون مثله في القدم. وهذا يستلزم عقلا أن يكون قديما لنفسه، وذاك يعني أن يكون أيضا قديرا لنفسه، وإذا كان الإلهان قديرين لنفسيهما وجب أن يريد أحدهما إرادة ويريد الآخر أخرى. وإذا وقع ذلك فالأمر لا يخرج عن ثلاثة احتمالات: إما أن يقع ما يريده كل منهما، وهذا محال لتضاد إرادتيهما، وإما ألا يقع مراد أيٍ منهما، وهذا محال لأنه يستلزم ضعفهما معا، والإله لا يجوز في حقه الضعف. أما الاحتمال الثالث فهو أن يقع مراد أحدهما وذلك يوجب أنه أقوى، وأن الآخر ضعيف، والضعيفُ لا يكون قديما ولا إلها.

كان العلاف يتحدث، والنظام يدير عينيه ناظرا إلى الحضور متفرسا مدى فهمهم وإدراكهم، فوقعت عينه على شاب مُسْتَوْفِزٍ، يُراوح بين الجلوس على ركبتيه والتربّع، فاغراً فاه، يتلقف كل كلمة، وكان عن يمين الشاب المشدوه صهيبٌ الحمّال، واضعا يدَه تحت ذقنه عابثا بأسنانه.

أما تلاميذ أبي الهذيل المحيطون بالنظام فمشرئبّو الأعناق، يلتقطون كل كلمة ويلاحظون كل حيلة من حيل المناظرات الرائجة في مساجد البصرة.

أما زمرة الطلاب حاسري الرؤوس عن يمين الخوزي، فكان أحدهم يقلب مجلدا ضخما كأنما يبحث عن شيء أضاعه، أما الباقون فكانوا منصتين، وأبصارهم شاخصة.

أشار الشاب المنظم للمناظرة إلى الخوزي بالعودة إلى المنبر، فلما وقف وبدأ الحديث، صاح رجل من جهة الباب المؤدي إلى السوق:

- أمه زانيةٌ من لا يؤمن بالله واليوم الآخر!

أشار الشاب بيده لصالح بالتوقف، ملتفتا جهة الباب سائلا بصوت مليء بالاحتجاج:

- من صاحب الصوت المنكر؟

تصاعدت غمغمات وهمهماتٌ. وجاء صوت شيخ مزَّمِّل في ثوبه، مستلقٍ على قفاه:

- ذاك عبيد الكناس؛ وقد ولى هاربا.

هدأت الأصوات، ثم أشار الشاب للخوزي بمواصلة الحديث.

مرت ساعات، ثم انتهت المناظرة بانقطاع الخوزي. والانقطاع أن يُلزِمَ الخصمُ خصمَه بدليل عقلي لا يستطيع الانفكاك منه.

بعد نهاية المناظرة انفض الجمع، فيما تصافح المتناظران وتقارب طلابهما، وخرجوا جميعا من المسجد متجهين صوب منزل الخوزي لتناول الطعام.

وكانت هذه أفضل اللحظات التي ينتظرها الجاحظ والنظام بترقب. فهي فرصتهما الوحيدة لملء بطنيْهما طعاما.

***

تتراص الأخصاصُ خطيا وأبوابها مشرعة جهةَ البصرة. كان الجاحظ قد تعوّد الجلوس خلال الأشهر الماضية على هذا الكثيب الصغير المجاور للأخصاص. فهدوء الليل وظلامُه يملآن روحه رهبة.

كثيرا ما يجلس هنا وحيدا بعد نوم رفاقه للخلو بنفسه ومعرفة دخيلتها، فيخاطبها قائلا: إنكَ لتنفق سحابةَ يومك متأملا في نفوس الناس، فاصبر لتفهم نفسك التي بين جنبيك.

يجلس على الكثيب ينكت في الأرض بعود بيده، مُستغربا كيف أنه أحيانا يفاجأ بسِماتٍ من دخيلة نفسه غريبة عنه. حتى إنه فكر مرة في أن روحه لو تجسدت شخصا أمامه وتحادث معها لما عرفها!

غرق في التفكير في معايب نفسه ومثالبها، متذكرا مواقف مرت به اليوم. رمى العود وهو يتذكر كيف مازحه أبو نواس بقوله:

- تخيلْ لو أن الله مَسَخَ كلَّ حسناوات الدنيا وصيّرهن على شكلك، كيف يطيب العيش بعد ذلك؟

وتذكر كيف تكلّف الضحكَ مجاملةً، لكن أبا نواس أحس بذلك فاعتذر له. لكنه أنكر غضبه من المزاح، وهو يعلم في دخيلة نفسه أنه غضب. طوّحت به الأفكار، وكان الجو هادئا إلا من أصوات بحّارة سمّار على نهر غير بعيد. تترامى ضحكاتهم إلى مسمعيْه أحيانا، وسط صرير ريح الشمال العابثة بأبواب الأخصاص.

وقف من مكان جلوسه متذكرا أن الخليل بن أحمد عادة ما يخصص هذا الوقت للصلاة. وكيف أن صوت قراءته للقرآن في تهجده من أعذب ما يحرك كوامن نفسه.

نزل من فوق الربوة ناظراً جهة المدينة وهو يفكر في أن الخليل لزهده وورعه اختار هذا المكان بحيث تصبح المدينة وكأنها تولّيه ظهرها حتى لا يرى محاسنها.

وصل إلى الخُص الأول على يمينه لكنه لم يسمع قراءة الخليل، مع أن هذا وقت تهجده عادة. ثم تذكر أنه لم يأت الليلة على خلاف عادته.

فقد عوّد الخليلُ طلابَه أن يقضي بداية الليل في بيته في طرف البصرة، لكنه ما إن يصلي العشاء في بيته حتى يأتي إلى هذه الأخصاص، ويبدأ تدريس طلابه النحو والصرف والموسيقى والرياضيات والأنساب.

سمع صيحة منكرة.

التفت فلمح أحد الطلاب قادما من جهة البصرة يركض. ورأى النظّام قادما يمسح عينيه من نوم لم يستلذّه طويلا وهو يكرر:

- إيش؟

اقترب الرجل فتسابق إليه الجاحظ والنظام، بادره النظام قائلا بصوت ما زال مفعما بنبرة نعاس:

- ما الخبر؟

- لقد توفي شيخنا الخليل!

لم تكد قوائم النظام تحمله فجثا على ركبتيه مرددا:

- إنا لله وإنا إليه راجعون!

بدأ جمع من الطلاب يتململون في أخصاصهم يستيقظون الواحد تلو الآخر لارتفاع الأصوات. جاء أحدهم يركض إلى النظام:

- ما ذا حدث؟

- لقد توفي شيخنا الخليل!

- حسبنا الله ونعم الوكيل.

- ارجع ونمْ حتى ينبلج الصباح.

مشى النظام عائدا إلى خصه والجاحظ يتبعه واجما، وجدا أبا نواس جالسا عند الباب. دخلا بصمت.

جلس الثلاثة كل منهم في ركن من الخص. كل واحد ينتظر تصرفَ الآخر. فلم يُجمع أهل البصرة على حب رجل كما أجمعوا على حبهم للخليل.

يلف الظلامُ المكانَ، وتنخنق صدور كل منهم بغصة، وتدور دموع في العيون المتلففة في الظلام، يجمع بين أخيتلهم في تلك اللحظة صورة الخليل بن أحمد وهو يبتسم ويعلّم.

بعد ارتفاع الشمس بقليل، تجمع الطلاب واتجهوا جهة دار الخليل لحضور جنازته. امتلأت جوانب الدار بأصناف الطلاب الذين لم يجتمعوا قط خارج مكان الدرس قبل اليوم، تقدم نجل الخليل مشيرا بيده للناس بالهدوء، ثم ارتقى صخرةً جاثمة ما بين باب الدار وباب الحائط وقال:

- أيها الناس، إننا ننتظر أبا الهذيل العلاف للصلاة على الشيخ، ثم بعد ذلك نذهب إلى المقبرة.

كان الجاحظ في طرف الناس مما يلي مدخل المنزل. وكان الهدوء يخيم على المكان إلا من نشيج يتعالى أحيانا من صدور بعض الطلاب، يجاوبه نحيب نساء قادم من جهة الدار.

جلس بعض الطلاب على الأرض، ودخل بعضهم إلى غرفة واسعة عند مدخل البيت في انتظار قدوم العلاف. كان الجاحظ والنظام جالسين على الأرض وظهراهما للدار، ويحاولان تخفيف الحزن عنهما بالنظر إلى كل داخل إلى الدار من الشارع الصغير الذي يشرف عليه المنزل.

التفت الجاحظ دون أن ينظر إليه وقال:

- لقد خلت البصرة من أعقل العرب.

رفع النظام وجهه وشفته السفلى الغليظة ترتعد قليلا:

- لقد كان الخليل آية في الزهد، والله لقد رأيت الخلفاء يبعثون له ملحّين طالبين زيارته، فلا يزيد على أن يقلب الورقة ويكتب على ظهرها معتذرا.

دخل أبو الهذيل العلاف مقنعاً يمشي كأنه يقفز فقام الناس محيين ومسلمين. سلم على الطلاب المجتمعين في ردهة الدار، ثم أخذه نجلُ الخليل ليحدثَ النساء ويصبرهن. تراجع الطلاب وواصل العلاف التقدم مع نجل الخليل في الدهليز الداخل إلى الدار حتى اختفيا.

تقدم ابن الخليل أمام العلاف مشيرا له بيده إلى ردهة واسعة وجد فيها عدة نساء مجتمعات، ولهن خنين من البكاء.

وقف العلاف، وحمد الله وأثنى عليه ثم بدأ الحديث. لكنه ما إن

بدأ حتى تذكر شمائل صديقه فخاف أن تخنقه العبرة فيثير مكامن شجنٍ جاء ليُسلي عنها، تمالك نفسه ورفع صوته:

- أما بعد، فإن هذا الشيخ قدِم إلى ما قدَّم. وأنتم تعلمون أنه ليس في هذه المدينة الواسعة رجل اتفق الناس على صلاحه وحسن سمته وشبه سره بعلانيته منه، فنحن لا نستطيع أن نحدثكم عن شمائله وعبادته فأنتم بها أدرى، ولها أرأى. لكنا نذكركم بوعد الله لمعلمي الناس العلم، وهذا الشيخ ما كان له همّ إلا كيف يعلم ذراري المسلمين العلم ويمهّد لهم ما لم يُمهّد من علوم.

واصل العلاف حديثه، فهدأ الخنين والبكاء الذي كان هاج في بداية حديثه، فهيبة أبي الهذيل فرضت على النساء هدوءا وسكينة.

ثم دعا وانصرف.

ما كاد العلاف يعود إلى الردهة الواسعة عند مدخل الدار حيث يجتمع الطلاب حتى جاء النعش محمولا على الأعناق ليوضع.

وضع النعش، وتصافّ الناس للصلاة عليه، فجأة خرجت فتاة من داخل الدار حاسرة الرأس، باكية وألقت نفسها على النعش تقبّله.

خرج نجل الخليل راكضا وأمسك ذراعها وأعادها إلى البيت.

كان الجاحظ واقفا في الصف الأمامي مما يلي النعش، لم يدر ما وقع بالضبط. كل شيء كان سريعا وخاطفا.

لكنه وجد أثر ما وقع في قلبه، إذ وجد قلبه مأخوذا بتأمل شعر الفتاة الذهبي وجبينها الوضاء، وذلك اللغز المتجمع ما بين عينيْها وفمها.

شعر بحرج شديد، وسخطِ على نفسه وتضايق. كيف أمكنه النظر بريبة إلى بنت شيخه لحظة وفاته؟

هل يمكن أن تكون كل هذه القساوة والبلادة والأنانية تعشش في قلبه دون أن يدري؟

كيف يمكن لمن تتلمذ على الخليل ورأى خصاله أن ينظر إلى بناته بريبة في منزله وجثمانه مسجى والصلاة عليه قائمة؟

شعر الجاحظ بضيق شديد. فجعل يراوح بين قدميه كأنه واقف على جمر، يرفع رجله اليمنى ويضعها ثم يرفع اليسرى ويضعها.

كان يمسك طرف عمامته ويمسح بها جبينه الذي بدأ يتفصد عرقا، شعر كأن كل من في الدار رأى نظراته للفتاة واطلع على الخواطر التي ظللت فؤادَه، تعجب مما رآه خسة في نفسه ودناءة في نحيزته! شعر أن كل من في المكان أبصر ما في قلبه فرأى خواطره المذنبة وهو يشتهي بنت الخليل على نعش الخليل!

فجأة، التفت إليه النظام وهو يقول:

- ما لك؟

- ما لي؟ لا شيء! لا شيء!

- آوه، لا بأس عليك، لله ما أخذ وله ما أعطى فلا تذهب نفسك حسرات.

ازداد ألم الجاحظ للمنزلة التي يضعه فيها رفيقه وهو لا يستحقها، تسارعت دقات قلبه حزنا وأسفا على تلك الخواطر، وأثناء ذلك تقدم العلاف وقال بصوت فصيح قوي:

- الله أكبر.

كبر الناس خلفه وبدأت الصلاة، فهدأ كل شيء، هدأت أصوات النشيج والخنين القادمة من داخل البيت، ولم يبق إلا لحى الرجال المصلين تتحرك بالدعاء والقراءة، يقطعها بين الفترة وأختها صوت العلاف:

- الله أكبر.

غالب الجاحظ خواطره، فاطمأن قليلا، لكنه ما إن بدأ قراءة الفاتحة، حتى عادت صورة الجبين الوضاح، والناصية المقطبة، والشعر الذهبي، والبنان الخضيب، مترائيةً من فوق النعش.

تمتم رافعا بصره إلى السماء متوسلا، والعَبرة تكاد تخنقه. ثم جاء صوت العلاف وهو يقول بهدوء:

- السلام عليكم ورحمة الله!

تحرك بعض المصلين من أماكنهم راكضين جهة النعش ليحملوه، فأشار إليهم العلاف بيده أن يبقوا في أماكنهم. ثم اعْتلى الصخرة الموجودة وسط الفناء وقال:

- أيها الناس! ها نحن اليوم نودّع شيخ أهل البصرة وقدوتهم. ها نحن ندفن الزهد والورع والعلم، لقد أكل الناس الفالوذج وكنزوا الذهب والفضة من علم صاحب هذا الجثمان المسجى، وهو في أخصاصه التي تعرفون لا يبرحها. ها نحن اليوم نودع أعقل العرب وأزهدها وأنقاها ولا نزكيه على ربه. لكننا شهداء بما نعلم، ألسنة الخلق أقلام الحق.

ارتفعت صيحة في الطرف، فأشار العلاف بيده طالبا الهدوء، ثم عدل عمامته وواصل:

- لقد علمتم كيف توفي الخليل. لقد جلس يفكر عشرين يوما كيف يضع قواعد حسابية لا يظلِم بعدها أحدٌ أحداً في الحساب، ولا يتمكن بعدها بائعٌ أو صاحبُ دكانٍ من خداع الشاب الغِمْر أو الفتاة الغريرة.

ما إن نطق بتلك العبارة حتى قفز قلب الجاحظ. فدس رأسَه بين ركبتيه محاولا التخلص من الصورة التي هجمت على خياله.

تابع العلاف حديثه قائلا:

- كان يسعى إلى أن يستوي الناس في علوم الحساب فلا يستطيع تاجر مهما كان أن يظلم آخر، فنظم قواعد حسابيةً تجعل كل ما يهجس الخاطرُ بوقوعه بين الناس من معاملات محفوظا ومعلوما بالعدد، ولشدة استغراقه في الأمر ظل يدور بين سواري المسجد إلى أن اصطدم بسارية فشجت رأسه فسقط، ولم يتعاف منها إلى أن توفي رحمه الله.

انطلقت حناجر المشيعين بالترحم، والدعاء، فنزل العلاف من فوق الصخرة، وتبادر الناس إلى النعش لحمله إلى المقبرة.

حاول الجاحظ التقدم جهة النعش وسط الزحام. غير أن رجلا قوي البنية، ناصع البياض، تفوح من أردانه رائحة المسك، ويرخي عمامة بين كتفيه، قفز أمامه حتى أصبح لا يرى إلا منكبيه العريضين، فحرمه من التقدم قيد أنملة.

حاول الجاحظ، تأمل وجه الرجل صاحب المنكبين العريضين الذي زحمَه، ففوجئ بأنه علي بن المديني.

وقف مكانه وهو يفكر لمَ تقاعس عن حمل النعش عند أول زحمة؟ ولمَ خانتْه ساقاه حتى وجد نفسه متأخرا الصفوف التي تخرج من المنزل؟

حدثته نفسه لحظة خروجه من باب الدار أن يلتفت وراءه، وبّخ نفسَه وقفز خارج البيت دون أن يلتفت... لكنّ قلبه كان متلفتا.

***

يتدافع حمالٌ ومُكارٍ عند مدخل سوق المربد، ويزعم كل منهما أنه سبق الآخر إلى المرأة التي تجرّ حملا ثقيلا من أمتعة اشترتها توًّا. ينقطع الجدال بينهما بعد أن يصمَّ الآذانَ نهيقُ حمار بقربهما، فيركض الحمّالُ جهة جماعة من الأعراب دخلت السوق حالاً.

تتزاحم في السوق -الذي يكتظ عادة ضحىً- روائحُ الغبار المتصاعد المختلط بروث البهائم، مع أيمان الباعة المغلّظة، ولهجات الأعراب المُستطرفة، ولَكَنات الجواري والغلمان الهجينة.

بدأ النهار يرتفع، غير أن الجاحظ والنظامَ لا يملّان من سماع أحاديث الأعراب، لاسيما إن كان الأصمعي والكسائي يُحرّشان بينهم. فهذا الأصمعي والكسائي جالسان وسط جماعة من الأعراب في طرف السوق.

يجلس الأصمعي على الأرض الداكنة ليس بينه وبينها حائل رغم نظافة جبته السوداء، ويتربع الكسائي على حصير وبين يديه محبرة ودواة وقراطيس.

يجلس قبالة الكسائي أعرابي أسمر البشرة أشعث الرأس، نحيف الأعضاء مشتملا في شَمْلَةٍ لا تكاد تواري نصف جسمه. لا يستقر الأعرابي على حال، فتارة يجلس على قدميه، وتارة ينكت في الأرض بعصاه وهو يتكلم دون رفع عينيه إلى مخاطبه.

رفع الكسائي بصره إلى الأعرابي وقال:

- هل يستقيم كلام من يقول: «أردتُ لكيْ أنْ أذهبَ إلى بيتي»؟

- ما سمعت هذا الكلام قط.

التفت الأصمعي إلى الكسائي قائلا:

- لكنا سمعنا من يروي قول القائل:

أردتُ لكيْما أنْ تطيرَ بقِرْبتي

فتتركَها شَنّاً ببَيْداءَ بلقَعِ.

فقال الكسائي، دون أن يرفع بصره عن دفاتره:

- هذا بيت لا يُعرف قائله، ونحن لا نحتج بالبيت المجهول قائله.

كان النظام يراقب دون أن يتحدث، أما الجاحظ فكان لا يرفع عينه عن الأعرابي وبيده كراريس يكتب فيها. تنحنح الجاحظ وقال للأعرابي:

- من أي العرب أنت؟

- أنا إيادي

- ما أظنك إلا دخيلةً فيهم وما أنت منهم في شيء، فأنا أعرف سحنَهم وأكاد أميز نَعَمَهُمْ في مراتع الكلأ، فكيف بمن هو منهم صليبةً!

وثب الأعرابي من مكانه واقفا رافعا عصاه جهة الجاحظ، حتى فرق الغبارُ كراريسَ الكسائي التي بين يديه.

قهقه الجاحظ وهو يشير بيده للأعرابي أن يجلس، مُقسما له أنه يمازحه. احتدم الحديث بين الجاحظ والأعرابي، بينما كان الكسائي لا يكف عن التبسم في وقار، متعجبا من شطط الجاحظ وسرعة غضب الأعرابي. جلس الأعرابي مع تمنع متصنع، ومرّ بائعٌ ينادي على كومة من البقول:

- قرع قرع! من يشتري القرع؟

التفت الأعرابي عاقدا بين عينيه، مشيرا إلى القرع بعصاه:

- وما القرع؟!

أجابه الكسائي وهو يشيح بنظره بسرعة عن فتاة حسناء مرت بقربه:

- ضربٌ من البقول يكثر في الحواضر. ألا تعرفونه في باديتكم؟

- لا أعرفه.

كان الأعرابي يجيب على أسئلة الأصمعي والكسائي، لكنه بدأ يتلفت ويكثر القول إنه يريد اللحاق بأهله قبل انتصاف النهار. أدخل الكسائي يده في كمه وأخرج درهما ومده إليه. فالتقطه بيمينه دون أن يمدها حتى لا تسقط عصاه المثبتة تحت إبطه. أخذ الدرهم ووقف دون أن ينبس.

التفت الجاحظ إلى الكسائي قائلا:

- أترى أنه لم يسمع قط بالقرع؟

- نعم، لا أُراه أبصره قبل الآن.

ابتسم الجاحظ بسخرية:

- ما أرى إلا أن نصف لحمه نبت من القرع، وأكاد أقسم أن أمه حنَّكتْه به. لكنه لما علم أنكم تفضلون الرواية عن الأعرابي المفرطِ في التوحش على الرواية عن الأعرابي الذي ينزل الحواضر تظاهر بجهل البقول.

ابتسم الأصمعي رافعا طرف ثوبه ليضع يده اليسرى على النظام قائلا:

- كنت أنا والنظام هذا في سوق الوراقين بالبصرة فوقف علينا أعرابي مُخَشوشِن مستبشَع المنظر، وطَفِقَ يكلمنا بلهجة أعراب ربيعة فما شككنا أنه لم ير الدورَ ولا الديكَ إلا يومَه ذاك. وجلستُ وسألته عن عشرين حرفا وكتبتها عنه، وما هي إلا ساعة حتى أطل علينا حمّاد الراوية.

فلما دخل حماد، لاحظنا اضطراب الأعرابي وجزعه، فلما التقتْ أعينُهما ناداه حماد:

- أهلا بأبي لُبيْنى!

قالها حماد ومطّ النون كالمتغني والساخر، فوضع الأعرابي عمامته على فمه وهو يضحك وولىّ مدبرا.

أمسك الجاحظ حزمة الكراريس التي بيده ولفها لفا ثم دسها في كمه وهو يلتفت إلى الأصمعي:

- أنا لا أدري لماذا أوقفتم الاحتجاج بالشعر عند بشار بن برد؟

ولِمَ قلتم إن أشعار المولدين لا يحتج بها؟ مع أني لا أشك في أن صاحبنا أبا نواس فصيح فصاحة الأعراب.

- إن الأمر لا يتعلق بالفصاحة. فنحن لا نشك في كون عرصة المربد هذه ملأى بالفصحاء من أهل البصرة وعربها القاطنين فيها، وأن فيها من يتفنن في القول. لكننا لا نكتب إلا لغة الأعراب التي لم تختلط بالهُجنة ولم تشُبها الرطانات، فالأذن لقّاطة لما تسمع، وما نضمن إذا أطال العربي القُحُّ المكث في الحضر أن يعلق بلسانه لحن فنقيسَ على كلامه، فيصبح اللحن مصدرا من مصادر القواعد التي نضعها.

كان الأصمعي يتحدث فبدأ جلساؤه يقتربون منه متحلقين. كان حلو الكلام ثابتَ الأعضاء أثناء الحديث. وضع الكسائي يده على ركبة الأصمعي وهو يقول:

- والله إن عجائب الأعراب لا تنقضي، كنا مرة عند الخليل نتدارس، فجاءنا أعرابي مشتمل بشملة وجلس إلينا، فسمع كلامنا عن الفاعل والمفعول والجار والمجرور والعامل والمعمول، فدهش لكلامنا وأظهر الاستغراب والتفجع. فلما انفضّ الدرس دعوناه للأكل معنا في أحد الأخصاص، فلما ملأ بطنه من السكباج والكباب اضطجع على قفاه وجعل يُهَيْنِمُ بكلام غير مسموع. فاقترب منه يونس بن حبيب وقال له:

- ما الذي تهينم به؟

- إنما هي أبيات قلتها في يومي هذا، فما زال مجلسكم وطنطناتكم في أذني.

- إيه أسمعنا. وماذا قلت؟

فرفع الأعرابي رجليه وجلس دفعة واحدة -كأنه أرنب في فلاة- وقال بلكنة أعالي تهامة:

إني ربِيتُ بأرضٍ لا تُشَبُّ بها
نارُ المجوسِ ولا تُبنى بها البِيَعُ
ولا يطَا القردُ والخنزيرُ تربتَها
لكن بها الرِّيمُ والرئبالُ والضبُعُ!

فضحكنا منه، وكانت قصته سلوانا لغاية الجمعة.

ما إن أنهى الكسائي القصة حتى وقف نافضا ثوبه وهو يقول:

- لقد انتصف النهار.

مد الجاحظ يده للكسائي وهو يقول:

- والله لا يطيب الحديث في المربد إلا من الآن. فقد بدأ الحمّالون والبغّالون في الانصراف، وقلّ صخب العامة وزُعاقُها، وسيطيب الحديث فلا تعجلْ.

- إن الصبية ينتظرون طعامهم وما كلّفتُ من يأتي به، فعلي الانصراف حالا.

ضمّ الكسائي دفاتره، وشدها بسير من جلود، ولفّ عمامته ونادى مُكارياً.

اقترب يهودي قصير القامة طويل الأنف، يجر حمارا من أذنه. فبارده الكسائي:

- بكم تأخذني إلى حي بني أسد؟

- عشرة دوانق.

- قفز الكسائي على ظهر الحمار فيما اندفع المكاري يجذب حماره من أذنه وهو يتمتم ويغمغم.

كان ظل الخص قد بدأ في الانحسار عن الجلساء، مع أن أشعة الشمس خفيفة الوقع بسبب تلبد السماء وتغيمها في الشتاء، لكن النظام طفق يحبو جهة تكاثف الظل داعيا جلساءه إلى ذلك، أما الأصمعي فاتكأ على يمناه واضعا نعليه تحت مرفقه كالوسادة، وقال موجها كلامه للنظام، وفي صوته نبرة تهكم:

- يا أبا إسحاق، سمعت أنك بدأت تناظر شيخك العلاف. فلم هذا العقوق؟

فقال الجاحظ وهو ينظر إلى بائع بُقُولٍ يعرض بضاعته، ومعدته تكاد تتقدد جوعا:

- والله إنه لأعق من هرة!

ابتسم النظام ابتسامة باردة ليداري غمامة الضيق التي لاحت في جبينه الأسمر وهو يقول:

- لا ليس عقوقا. وإنما نختلف ونتفق ونتناظر وما في الأمر عقوق.

فقال له الجاحظ، دون أن ينظر إليه:

- لكنه درسك وعلمك.

- هو كذلك. لكن الحق أحب إلي منه.

جاء البائع فوضع قِنْعاً مليئا بالفواكه. فأخرج الأصمعي -الذي لاحظ أن الجاحظ لا يرفع بصره عن البقول- كيسا واشترى موزا،

وناول جلساءه منه وهو يقول:

- سمعت أن الخليفة بعث يطلب إحصاء من في البصرة من العلماء والطلاب. فهل الأمر صحيح؟

- نعم، لقد مر بنا العلاّف في جمع من تلاميذه ومعهم دفاتر وأحصوا كل من كان مع الخليل، حتى انحدروا إلى أصحاب الكتاتيب يسألونهم عن أسمائهم. ولقد وجدوا في البصرة سبعمائة عالم وأحد عشر ألف متعلم.

- والله إن هارون الرشيد جمع ما بين سؤدد الرئاسة وجلال العلم.

اعتدل الأصمعي في جلسته وهو يقول:

- كان الخليفة المهدي أيضا محبا للعلم مقدرا للعلماء قبله.

شعر الجاحظ بحرارة تجتاحه وهو يسمع ذكر المهدي وتقديرَه للعلم، ذهب خياله إلى صورة الرجل الضخم الجثة الأعمى وهو يجلد وسط ضحكات الجواري وزمجرة الجند.

أمسك عن مضغ نصف موزة، ومسح طرف شفته بكمه وقال:

- إن المهدي قد قتل بشارا، ووالله ما يفعل ذلك إلا جاهل بحق العلم والعلماء.

- لا لا، لقد قتله لزندقته.

عدّل الجاحظ جلسته، مطبقا ذراعيه أمام ركبتيه وهو يقول:

- والله لا يقول هذا مثلك. أوَ تصدق أن المهدي قتل بشارا لزندقته؟ ومتى كانت الزندقة المحضة سببا للقتل في دولة الإسلام؟ ألا تذكر أن بشارا وصالحا الخوزيَّ وأضرابَهما كانوا يجلسون في

مجلس الخليل. وكان بشار ينشد شعره فإذا انتقده منتقد يقول: هذه قصيدة أحسن من بقرتكم وآل عمرانكم. فلا يزيد الناس على أن يضحكوا؟

كان الجاحظ يتحدث ويرتفع صوته متصاعدا دون أن يدري، كان أشبه بخطيب على منبر منه بجليس يخاطب جلساء وأصحابا. بدأت يداه ترتجفان وجبهته تتعرق وهو يتحدث. أما صاحباه فكانا مطرقيْن ينظران إليه:

- والله لم يَقتل خليفة قط على الزندقة، وإنما هي معاذير باردة وتترسٌ من لوم الناس للسلطان على أنه قتل رجلا من المسلمين -أو من غيرهم- على بيت من الشعر أو كلمة أو مقالة، وأنتم تعرفون أننا نجتمع في مسجد البصرة ونحضر المناظرة الطويلة بين من يقول بالثنوية ومن يقول بالوحدانية، فما أنكر ذلك أحد من الخلفاء.

تململ الأصمعي، ثم اعتدل في جلسته وهو يضع قشرة موز على الأرض قائلا:

- لقد جالستُ المهدي وما رأيت منه إلا إكباره للعلم وتقديره للعلماء، ولقد كان يأتي إلي ومعه غلمانه فيجالسني ويسألني عن أيام العرب، ثم لا يخرج حتى يهديني المال الكثير.

زمّ الجاحظ شفتيه يتلمَّظُ تلَمُّظَ الغضبانِ وقال:

- ذاك فعله معك، لكن فعله مع بشار ما سمعت. فما الذي جعله يتحفك بالتحف والدنانير ويتحف بشارا بالسياط الحامية؟ إلا أنك لاينتَه وأسمعته ما يريد أم....

كان الجاحظ يتحدث متخيلا نفسه تحت السياط الحامية وابنة

الخليل بن أحمد تنظر إليه، فشعر بحمية تجتاحه، فارتفع صوته وهو يتحدث...

ثم أفاق منتبها إلى أنه أغلظ القول لشيخه الأصمعي.

ساد صمت.

ثم نظر الجاحظ إلى الأصمعي فرآه ينظر إليه بتضايق. حاول تدارك الأمر قائلا:

- أنا لا أشك في أنك كنت تنصحه في خلواتك معه، لكني كذلك لا أشك في أنه لم يقتل بشارا إلا بسبب سخريته منه وتحريش العامة عليه.

- دعنا من هذا.

قالها الأصمعي وهو يشيح بوجهه عن الجاحظ ليخاطب النظام بقوله:

- هل ترى أن الجاحظ لو جالس المهدي أو أحد الخلفاء سينصحه على رؤوس الأشهاد؟

قال النظام وهو يلعب بحاجبيه:

- لا والله! فصاحبي يكره الظلم قدر حبه للإحسان، ويمقت الظالمين كما يحب المحسنين. ويحنو على الضعاف لكنه على نفسه أكثر حنوّا.

قطّب الجاحظ جبينَه مُواريا ابتسامةً فضحتها ابتسامةٌ ندّتْ من شفتيه.

عادت النفوس إلى أماكنها بعد الاستفزاز والاستنفار، وجفّت

حبيبات العرق التي تجمعت قبل قليل على جبين الجاحظ في هذا اليوم الشاتي. فحرك عينيه مشيرا بذراعه الطويلة إلى جنبات السوق التي بدت شبه خالية:

- لقد كاد السوق يخلو، فلْنمِلْ إلى دار صاحبنا سهل بن هارون لنصيب عنده طعاما.

قال له النظام وهو يبصق على الأرض:

- أنت تعلم أنه ليس في جنبات البصرة أبخل منه.

- أعلم ذاك، ولذلك أعتبر بخلَه إداماً لطعامه، فبخله به يجعله شهيا في حلقي، سلسَ المرور في بطني، فما ذقتُ طعاما قطّ أشهى من أطعمة البخلاء، فأنا أنوي بأكله التنكيد عليهم فيسيغه ذلك ويأدِمه ويهضمه.

دوّت ضحكات رفيقيْه وهم يسيرون وسط السوق تجاه البغال المربوطة عند بابه. التفت النظام إلى الجاحظ وقال:

- هلا حدثتَ الأصمعي بقصة سهل بن هارون مع رأس الديك؟

وقف ثلاثتهم، واستعاد الجاحظُ صورةَ سهل بن هارون جالسا في مجلسه في يوم شاتٍ وقد دخل عليه خادمه ووضع الطعام على الخِوان، فرفع سهلٌ رأسه وصرخ:

- أين رأس الديك!؟

فارتبك الغلام وقال:

- رميتُه!

- صحيح، رميتَه في بطنك، أخزاك الله!

ثم تأمل سهلٌ وجوهَ الرجال الجالسين في بيته، فخاف أن ينكروا عليه اهتمامَه برأس ديك، فمسح وجهَه بطرف ثوبه وقال بهدوء:

- إن الرأس أشهى الأعضاء، وذلك لاختلاف الطعوم فيه. «فالرأس فيه الدماغ: فطعمُ الدماغ على حدةٍ؛ وفيه العينان وطعمُهما شيء على حدة؛ وفيه الشحمة التي بين أصل الأذن ومؤخرّ العين وطعمُها على حدة. على أن هذه الشحمة خاصّة أطيب من المخّ وأنعمُ من الزبد وأدسم من السّلاء؛ وفي الرأس اللسانُ وطعمُه شيء على حدة. وفيه الخيشوم والغضروف الذي في الخيشوم، وطعمُهما شيء على حدة؛ وفيه لحم الخدّين وطعمه شيء على حدة».

فبارده أحد جلسائه، وقال وهو ينظر إلى الخادم الواقف وهو يرتجف:

- ولكنك -يا ابنَ هارون- رجل من أهل الحكمة والعقل، فلا تلمْ هذا المسكينَ على رأس ديك!

فانتفض، سهل، ورمى عمامته وقال:

- إن اهتمامي برأس الديك إنما مردُّه إلى اهتمامي بالحكمة والعقل. «فالرأس سيّد البدن، وفيه الدماغ، وهو معدن العقل، ومنه تتفرّق السّامعة والذائقة؛ وإنما الأنف والأذن بابان. ولولا أن العقل في الرأس لما ذهب العقل من الضربة تصيبه، وفي الرأس الحواس الخمس. ولذلك قال الأعرابي:

إذا احتملوا رأسي، وفي الرأس أكثري

وغُودِرَ عند الملتقى ثَمَّ سائري!».

ما إن أنهي الجاحظ القصة حتى كان الأصمعي يكاد يسقط ضحِكا، وكانت عينا النظام مترعتان دموعا. فرفع رأسه وقال:

- شيء عجيب!

أمسك الجاحظ يد الأصمعي وقال:

ولابد أن أقص عليك قصة صاحب سهل، عبد الرحمن مع ابنه.

فقال الأصمعي وكلامه يكاد لا يتضح لمغالبة الضحك:

- وما هي يا أبا عثمان؟

كان عبد الرحمن هذا -وهو من أبخل أصحابنا- لا يأكل اللحمَ إلا مرة واحدة في الأسبوع. وكان لا يدع ولده يجلس على الخِوَان إلا بعد تشَرُّطٍ كثير، ثم يقول له إذا مدّ يدَه ليأكل: «إياكَ ونهمَ الصبيان، وشَرَهَ الزُّراع، وأخلاقَ النوائح. ودع عنك خبط الملّاحين، ونهْشَ الأعراب. وكلْ من بين يديك، فإنما حظّك الذي وقع وصار أقرب إليك. واعلم -عدِمْتُك!- أنه إذا كان في الطعام شيء طريف ولقمة كريمة ومضغة شهيّة، فإنما ذلك للشيخ المُعظم والصبي المدلل، ولستَ واحدا منهما. فأنت قد تأتي الدعواتِ وتُجيب الولائمَ، وتدخلُ منازل وعهدك باللحم قريب، وإخوانك أشدّ قَرَما إليه منك. وأنا -بعدُ- أكره لك الموالاةَ بين اللحم! فإن الله يُبغض أهلَ البيت اللحمين. وكان عمر يقول: «إياكم وهذه المجازر، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر». وكان يقول: «مدمنُ اللحم كمدمن الخمر». وقال المسيح -ورأى رجلا يأكل اللحم- «لحم يأكل لحما، أفٍّ لهذا عملا». أيّ بنيَّ! عوّدْ نفسَك الأثرة ومجاهدةَ الهوى والشهوةَ، ولا تَنهشْ نهشَ الأفاعي، ولا تَخضمْ خضمَ البراذين، ولا

تُدِم الأكلَ إدامةَ النعاج، ولا تلقم لقم الجمال».

وتوقف الجاحظ عن الحديث، فقال له الأصمعي:

- أخبروني أنك تجمع هذه الأقاصيص وأضرابَها في كتاب عن البخلاء؟

وتبسم الجاحظ، وجاء صوت النظام:

- ستذهب إلى سهل وحدك، أما نحن فذاهبان في طريق آخر.

وتفرقوا وهم يقتربون من باب سوق المربد، وقرّب الجاحظ بغلا لمكارٍ سِنْدِي ملوّحا لهما بالوداع.

طلب المكاري من الجاحظ أن يقفز على ظهر البغل، لكن الجاحظ لم يقفز.

ركب بهدوء -كما يَركب البدين- خوفا من تشقق الإزار الوحيد الذي يملك. ضرب المكاري البغلَ ليسرع، بينما بدأ ذهنُ الجاحظ يخرج من جوّ السوق، لينصرف للتفكير في تماضر بنت الخليل.



الدوحة، 1438هـ

يجلس القرويُّ على مكتبه منشغلا بهوايته المفضلة. يضع نصا في خانة ترجمة غوغل، ثم يقترح ترجمة بديلة. خطر له أن يمتحن غوغل بنص للجاحظ ويرى مدى دقته. اختار الجملة التالية من «البيان والتبيين»:

«والدلالةُ الظاهرةُ على المعنى الخفي: هو البيانُ الذي سمعتَ الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن وتفاخرت العربُ وتفاضلت أصنافُ العجم».

فجاءت الترجمة:

«The significance of the phenomenon on the hidden meaning: it is the statement I heard the Almighty God praises and calling him and urges him. Thus, the Koran pronunciation and boasted Arabs and Persians differentiated varieties».

ابتسم منهمكا في تصحيح النص الإنكليزي على غير عادته. فهو عادة يصحح ترجمة غوغل من الإنكليزية إلى العربية، سعيا لصقل الذائقة الغوغلية عربيا.

وبينما كان منهمكا في التصحيح، جاءه مازن راكضا وهمس في أذنه:

- هل علمت بإمكانية تعيين بسّام رئيسا للتحرير؟

- مستحيل.

- أنا جاد، لقد سمعت الخبر من سكرتيرة رئيس التحرير.

التفت القروي نصف التفاتة دون رفع بصره عن الشاشة وقال:

- بالله، شوف ترجمة غوغل لكلام الـجاحظ. لقد دمر العربُ المعاصرون ذائقةَ غوغل المسكين.

شعر مازن ببعض الملل، لكنه مال جهة الشاشة وقال:

- طريف؛ العجم هم الفرس فقط؟

- تلك ليست أسوأ ما فيه. فالعجم في اللغة اسمٌ لغير العرب، لكن العرب أحيانا يخصّون بها الفرس.

- صحيح، أهل الخليج هنا يسمون الفُرس العجم.

وقفا وشقّا غرفة الأخبار ماشييْن إلى مخرج خلفي يقود لفناء مفتوح يجلس فيه بعض المدخنين. أخرج مازن سيجارا كوبيا وأشعله قائلا:

- الخبر مؤكد يا صديقي. سيعيّن بسّام رئيسا للتحرير.

- رئيس التحرير الحالي ممتاز بعقله التحريري وصياغاته الخبرية. وهو جيد في إدارة الفريق فلمَ يقال؟

- لا أدري. سمعت أن نائبه تآمر عليه مع بعض المقربين منه حتى وجدوا مستمسكات تدينه.

استند القروي على طرف الجدار، وهو ينظر إلى المصابيح الكهربائية في طرف الشارع قرب سوق واقف. تذكر أن من أسباب قدومه إلى هذه البلاد إيمانه بإخلاص أهلها في حب العرب وخدمة لغتهم، فقال بنبرة انزعاج:

- ميزة رئيس التحرير أنه يملك وعيا حضاريا عميقا. فهو يفهم أن اللغة الأم عماد النهضة، ولن تقوم نهضة إلا على سيقان اللغة الأم. أما ذلك الأصلع المغموسُ في بحار العجمة -كما يقول ابن خلدون- فلا أستطيع تخيله مسؤولا.

والتقم مازن سيجاره بنهم، وقال بلهجة فلاّح من ضواحي رام الله:

- والله ما نعرف المصلحة وين يا صديقي!

وسمعا صوت منتج قادم يركض:

- تعال يا مازن، النشرة قريبة!

ودخلا إلى غرفة الأخبار. ركض مازن إلى قسم المقابلات، وتجاوز القروي الغرفة إلى القسم التقني مترصدا حصة إبراهيم. دخل، فرأى صديقتها البدينة فاغرة فاها مُحملقةً في الحاسوب، وعن يمينها علبة بلاستيكية من مشروبات مكدونالدز. تردد في سؤالها، ثم قال:

- هلا، بالله حصة داومت اليوم؟

- والله ما أدري!

ونطقت «ما» مفخمةً بلكنة فارسية كأن صوتها قادمٌ من بئر سحيق. وشعر بالندم على سؤالها، وقبل خروجه من القسم رأى حصة خارجة من غرفة قريبة.

تلعثم كلاهما.

وقفا في طرف الممر الواسع مرتبكين لوقوفهما وكأنهما يضيقان الطريق. غير أن الرغبة في الحديث كسرت الحرج. وقفا، دون أن

يكون في ذهن أحدهما ما يريد قوله للآخر. المهم أن يقفا معا، متقابلين تتراقص أعينهما سعادة.

قال ساعيا لكسر الحرج:

- كيف عملك اليوم؟

- ممتاز.

والتفت وراءه فرأى صديقتها البدينة ترمقه بحنق. فمال جهة حصة:

- بالله، لمَ لا تبيعين صديقتَكِ تلك؟

- كيف يعني؟

- كان الجاحظ يكره أهل مدينة خوزستان في فارس ويقول: من كان له جارٌ خوزيٌّ فلْيبعْه!

تضاحكت، مستثقلةً حديثه عن الجاحظ وهي تنظر داخل حقيبتها قائلة:

- لا بالعكس، ترى هي طيبة.

وأخرجت هاتف نوكيا القديم، وقالت:

- عندي عمل...

- دعينا نلتق في الكافيتريا إن وجدت وقتا.

- إن شاء الله.

وعادت إلى مكتبها، واستدار مستغربا تعرّقَ جبهته وانعقادَ لسانه عندما رآها بغتة. عاد إلى مكتبه، وهو يُدندِن بصوت شنقيطيٍ يحدو إبلَه وقت المغيب:

وما هو إلا أنْ أراها فُجاءةً

فأُبْهتَ، حتى ما أكادُ أُبينُ!

وسمع صوت صحفي قادم من قسم الاقتصاد:

- إيه ده؟ عايزين هدوء يا ناس!

تصامَمَ عن احتجاج زميله، وأصرّ على ترديد البيت بصوت عالٍ مرة أخرى، وهو يجلس إلى مكتبه. فتح ملف وُورْد، وهو يبتسم مستغربا أنه يتطلع إلى معرفة مصير حبّ الجاحظ لتماضر بنت الخليل!

***

تكاد الريح تصك باب الغرفة، غير أن الزعازع التي يتموّج بها خاطر الجاحظ كانت أقوى. كيف لمثلي أن يعشق، وما قيمة تلك الأطمار والكتب التي درستُ إذا كان العقل يطيش عند مرور أول غزالٍ أحوى؟

رمى وسادة كانت عن يمينه، ونزل من فوق السرير المهترئ ليجلس على الأرض، ووضع يديه على رأسه فكادتا تغطيانه. ثم بدأ يهينم بأشعار في الحنين والوجد.

استغرب كيف أن شعر الغزل قد يتحول عند العاشق إلى عقار يلتهمه كالمجنون ليتخفف من زوابع روحه.

طفِقَ يذهب ويجيء في الغرفة مفكرا في حاله، ها هو ذا بكل عقله وعلمه وحيدا يهذي دون أن يملك على نفسه سلطانا! وكل ذلك بسبب بنانٍ مخضوب وجبين وضاءٍ لمحهما قبل سنين.

كان عقله لا يتوقف متسائلا: إذا كان العقل لا يملك سلطانا على

القلب إلى هذا الحد، فلماذا أثقُ بكل تلك الأطمار والفلسفات المرمية في ذلك الركن؟ لمَ أثق في أن ما قاله واصل بن عطاء أو الحسن البصري أو أريسطو طاليس غير تابع لميولهما البعيدة عن العقل؟ وما أدراني أن العقل الذي تتحدث عنه الكتب ما هو إلا خادم ذليل طيّعٌ للميول والأهواء وزوابع الوجدان؟

ثم ابتسم ساخرا من نفسه: وما الفرق بين العقل والقلب أصلا؟ فكلاها عضو يمْتحُ من معينٍ واحد ويتأثر بصاحبه وجاره.

كان وحيدا في الغرفة المربعة الشكل المملوءة بالكتب والكراريس. يوجد قرب الباب كرسيان خشبيان. يأتي بعدهما السرير المنحرف إلى اليمين في ركن الغرفة. توجد منضدة خشبية ملبسة بقماش، فوقها قلم وكتاب.

غير أن المنضدة أقصر قليلا من السرير، ولذلك فالكتابة عليها غير مريحة عندما ينحني عليها وهو على سريره.

أما المساحة الباقية فمفروشة بحصير من جريد النخل مغطى بلحاف مهترئ، لا يكاد لونه يُتبيّنُ من كثرة الكتب والقراطيس المتناثرة.

في نهاية الزاوية عن يسار الباب، وُضعت طاولة ذات ثلاث قوائم عليها مواعين مبعثرة.

توجد نافذتان إحداهما مشرعة جهة الجنوب والأخرى جهة الشمال. غير أن تلك المشرعة جهة الجنوب تكاد تُطمَر من الخارج بالرمال الزاحفة التي أوشكت أن تغطي نصف جدار البيت. لذلك يجد الجاحظ صعوبة في فتحها أحيانا كثيرة.

انحنى ليستخرج من تحت سريره إسطرلابا وضعه على الأرض، ونظر فيه ليعرف التوقيت بالضبط، فقد وعده النظام البارحة بأنه سيزوره.

أعاد الإسطرلاب إلى مكانه، وهو يفكر في حديث الأعراب عن معرفة الأوقات بالحدس، مقارنا في ذهنه بين فضائل الحدس الفطري في البادية، وفضائل الصناعة في الحضر.

خرج من باب الحجرة ونظر في جنبات الحائط المتعرج المحيط بحجرته، متسائلا في نفسه هل حان موعد دفع إيجار السكن أم لا؟ ثم فكر قليلا في مالك الحجرة ووعورة أخلاقه، متذكرا كيف اضطر ليقول له الشهر الماضي: كأنك تتعمد مخالفة الحديث: «رحم الله من باع سمحا واشترى سمحا».

تذكّر المؤجرَ في جبته المتسخة وشعره الثائر رغم ملكه أكثر من عشر دور في البصرة. ثم التفت جهة باب الحائط فرأى النظام قادما.

ما إن لمحه حتى تلقاه، فمع كونهما لا يفترقان إلا أنهما لا يلتقيان بعد فراق ساعة إلا كان كل منهما أشد لهفة على اللقاء والحديث.

بادر النظام قائلا:

- كيف كانت ليلتك؟

- لا تسأل!

قالها الجاحظ وقد وضع قدمه داخل الحجرة. تقدم خطوات ورمى بجسمه على السرير، فيما جلس النظام على الكرسي.

دارت عينا النظام وهو يمسح أرنبة أنفه الأفطس قائلا:

- ما بال ليلتك؟

جلس الجاحظ واضعا كفيه بين ركبتيه ضاغطا عليهما -وهي حركة يفعلها إذا تهمّم لأمر- وهو يقول:

- ما زال خيالها يسكن عقلي. وقد عزمت على خطبتها من أهلها.

مدّ النظام يده وراء ظهره مصطنعا حكّة في كتفيه حتى يداري استغرابه، وقال بنبرة غير مكترث:

- وهل تراك قادرا على النفقة والكسوة الآن؟

- لا والله. لكن قدرتي على الإنفاق أقوى من قدرتي على التحمل.

التفت النظام فرأى غمامة همّ تظلل وجه صديقه. وأحس في تجاويف صوته حزناً عميقا وصبابة عذبة. تأمل وجهه، ثم سرح عينيْه في أطراف الغرفة متخيلا قدوم معشوقته إلى هذا المكان الموحش. رفع وجهه قائلا:

- يا أبا عثمان، ألا ترى أنك في عشقك لتلك الفتاة قد ظلمت نفسك وتعجلتَ من وجوه ثلاثة. فأنت..

وقبل استرسال النظام قاطعه الجاحظ:

- بالله عليك جنبني تشقيق الكلام وتوزيعه إلى مقدمات، وتقسيمات ونتائج..

ابتسم النظام قائلا:

- شيء عجيييب! لابد أن تذوق شيئا مما تُذيق الناسَ طعمَه.

عاد الجاحظ بصوت جاد مترع بالهم:

- لقد احتلتُ حتى رأيتها قبل أيام.

- وهل حدثتها عن حبك لها؟

- نعم. لقد أعلمتني جارية جارتهم أنها ذاهبة لسوق العطارين، فكمنتُ لها هناك. ثم تقدمت لها وحدثتها عن ميلي إليها.

برقت أسارير النظام كأنه طفل:

- وماذا قالت؟

- لقد ماشيتها من وسط سوق العطارين إلى نهايته، ثم عبرت لها عن تعلقي بالزواج منها، لكنها لم تضع في يدي شيئا.

قام النظام من مكانه ثائرا وهو يقول:

- ألم تقل لي مرة إن الرجل لا يخلو بالمرأة فيسمعها من حديث الحب والهجر والقرب والبعد، ويقسم لها ويفدّيها بأبيه وأمه ونفسه، إلا أجابته كائنة من كانت؟

- بلى، لكني كنت عجلا وكانت المرة الأولى التي أراها فيها وكنت أخشى العيون.

كان الجاحظ يتحدث، ثم تذكر الفتاة وتصعيدها النظر فيه، فطاف به خاطر حزن؛ فتصعيدها النظر في وجهه وأطرافه لن يكون بداعي الإعجاب قطعا.

أحس النظام بانشغال ذهن صديقه فبادره:

- لكني لا أرى أن أهلها سيقبلونك زوجا لها، ثم ما الذي يدعوك للتعلق بها، فغيرها كثير...

هنا وقف الجاحظ كأنه كان ينتظر هذا السؤال.

بدأ يدور بين سريره وكرسي النظام وهو يقول:

- هي فتاة كأنها نارٌ تتوقد، وشعلةٌ تتوهج. طينتُها حرةٌ، وعرقُها كريم، ومَغرسها طيبٌ، ومنشؤها محمود.

- مقامُ الحديث ليس طينتها هي ولا حسنها، بل....

قالها النظام وهو يطرد ذبابةً بكمّه.

غير أن الجاحظ كان ما زال مغمِضا عينيه متخيلا فتاته مواصلا حديثه:

- ولقد غُذيتْ بالنعمة وجرى في أطرافها ماء الحياة... والله إنها لنهر من أنهار الخلود، ونفحة من نفحات الجمال، وخاطر من خواطر السرور.

فتح الجاحظ عينه فرأى النظام مبتسما فقال:

- لمَ تبتسم ولمَ لا تعين صاحبك؟ أوَ تحسبني بالغثُ؟

- والله لا أرى إعانتك إلا أن تقلع عن هذا فما أرى القوم سيزوجونك. وما أرى إلا أن تصبر حتى تجد لك جارية تتسرى بها.

عاد الجاحظ وجلس على سريره، ثم تذكر أنه لم يعرض طعاما ولا شرابا على صاحبه، فقام إلى طاولة المواعين في ركن الغرفة وأخذ من فوقها مِخلاةً محشوةً بالخبز اليابس، وهو يقول:

- والله لقد بدأت أخشى على نفسي يا أخي. فلقد أصبح التفكير فيها مستوليا على قلبي، فإذا قرأت كتابا لمحتها بين سطوره، وإذا وجهتُ وجهي للصلاة رأيتها معترضة ما بيني وبين الكعبة.

كان يتحدث، وهو يفرغ ماء ساخنا على شيء من الخبر اليابس في

صحن. ثم ذرّ عليه قليل ملحٍ ووضعه بينه وبين صديقه.

مد النظام يده إلى الخبز وهو يقول:

- هل حاولتَ السلوَّ عنها؟

- والله لقد حاولت، لكن حسنها ليس الحسن الذي تبقى معه عقيدة، أو تصحُّ معه سلوى، أو يثبت معه عزم.

- يا أبا عثمان، أجمِلْ في العشق!

- والله ما رأيتُها قط إلا ذكرت الجنة، ولا رأيتُ أحسنَ النساء بعدها إلا ذكرت النار.

ضحك النظام حتى تطايرتْ حبيباتُ طعام من فيه، فوضع يده على فمه وهو يقول:

- والله ما أنصفتنا يا أبا عثمان! هلّا تغزّلت بتماضر بنت الخليل وتجنبت تشبيه حسناوات البصرة بنارٍ تلظى!

وقف الجاحظ، وأتى بماء وصابون.

اقترب النظام من باب الحجرة ومد يديه من فوق العتبة حتى صار نصف جسمه خارجها. فخرج الجاحظ وجعل يصب له الماء على يديه ليغسلهما، وهو يقول:

- هل سمعت بما يُحكى عن أبي نواس؟

- نعم، سمعت.

توقف الجاحظ عن صب الماء بعد أن غسل النظام يديه ونفضهما في الهواء، ثم تناول النظامُ الإناء وبدأ يسكب الماء على يدي صديقه.

جلس الجاحظ وطفق يفرك يديه بالصابون وقال:

- سمعت أنه مستهتر هذه الأيام بجارية من جواري عبود. ولقد قيل لي إنه أرسل لها رسالة كتبها بدمه.

- لا أشك في ذلك. فمع أنه كان متين الديانة حادّ الفهم إلا أنه تهتّك.

- قاتله الله ما أظرفه، وأنا لا أخشى عليه التهتك، فصاحب التهتك والمجون يملّ ويقلعُ ويتوب. إنما أخشى ألا يَسلم قلبُه من الشُّبَه. إذ سمعت أنه يكثر مجالسة بعض المانوية والديصانية، وهو ضعيف في الجدل كما تعلم.

- شيء عجيب! وماذا عند المانوية يغري غير طعامهم؟

وفهم الجاحظ ما يرمي إليه صديقه. وتذاكرا كيف كانا قبل سنوات يذهبون لمعبد للمانوية خارج البصرة يناظرونهم. لا رغبة في المناظرة بل حرصا على طعام يقدمونه بعد انقضائها. تذكرا رهبان المانوية في ملابسهم البيضاء ورؤوسهم الحليقة، وكيف كانوا يجلسون معهم الساعات الطوال في انتظار لحظة وضع الطعام.

قال الجاحظ وهو يمد يده لأخذ طيلسانٍ أسود مهترئ فوق سريره:

- فلنذهبْ إلى دار مويس فقد اقترب الزوال.

نظر النظام إلى الحصى المجتمع على طيلسان الجاحظ، وقال:

- أيش هذا الغبار؟ ما أرى إلا أنه من تلك النافذة فلم لا تسدها؟

نفض الجاحظ الطيلسان نفضا قويا، وقال:

- ما رأيت أقلَّ فائدة من هذه النافذة. إذْ لا يأتي منها إلا الحصى، ثم

هي مشرعة جهة منزل مُكارٍ يملك عشرين حمارا، فلا يأتيني منها من الأصوات إلا نهيق الحمير، ولا من الهواء إلا الحصى. وحتى إذا فتحتُ ونظرتُ لم أر إلا حمارا ينهق، هذا إذا لم تدخل حصاة في عيني، والله لكأنها نافذة مفتوحة على جهنم.

وما إن نطق «جهنم» حتى تذكر حديثه قبل قليل عن تماضر، وكيف أنه إذا رأى فتاة غيرها ذكر النار، فبادر قائلا:

- هل ترى أن أطلب من شيخنا العلاف أن يخطبها لي؟

- ما دمت قد عزمتَ، فلا أرى بالأمر بأسا، فهو شيخ جليل وهم يقدرونه حق قدره. ولعله يزكيك عندهم.

ما إن أنهى النظام الجملة حتى ذهب خيال الجاحظ بعيدا، فرأى نفسه جالسا مع تماضر يطارحها الغرام، حاكيا لها معاناته لخطبتها، قاصا عليها تثبيط النظام له، وكيف أنه لحبه لها ذلّل كل صعب.

لعبت هذه الأخيلة بذهنه وهو يُحكم إغلاق القفل على باب حجرته، والنظام يقول له:

- والله لا يراك أحد تحكم القفل حتى يظن أنك تغلق حجرتك على كنوز. وإنها لحجرة لو دخلها لص لقعد يبكي على حظه العاثر.

سارا في فناء الحائط متجهين جهة الباب والجاحظ يقول:

- وما أدراك أن الإنسان لا يُغلق بيتَه إلا خوفا من سرقة متاعه؟ إن بيوتنا تختزن نفوسَنا، ونكره اطلاع الغريب على ما بداخلها. ألا ترى أننا نكره أن يطّلع مطلعٌ على ما في دواخل نفوسنا ونحن آمنون من سرقة ما في سويداء قلوبنا؟

كان الجاحظ يتحدث وهما يمشيان في الزقاق المحاذي لحائط الحجرة من جهتها الجنوبية. فالتفت فرأى حمير جاره المكاري في حظيرة واسعة، فقال للنظام:

- إلى متى سنظل جِيرةً للدهماء والسَّقَط والرَّعاع؟ وما قيمة العلم والقراطيس إذا كان منزل النظام والجاحظ لا يتميز عن حميد المكاري وشمعون القصاب؟

ما زاد النظام على الابتسام، وهو يثبت قلنسوته على رأسه ويقول:

- إن لكل ثمرة أواناً يا أبا عثمان، ثم إن العلم يراد لذاته لا لثمنه، ومن تعجل العنبَ في فصل غير فصله فلن يجده، ومن تحرى ليلة القدر في شعبان أعيتْه.

***

رمتْ تماضرُ خمارَها على السرير المثبت في زاوية الحجرة وقالت بِغَنَج:

- من الجاحظ؟

كانت أمها منهمكة في ترتيب سفرة الطعام في الدهليز الضيق المفتوح على الحجرة التي تقف فيها، فرفعت بصرها وهي لا تزال جاثية على ركبتيها:

- قبل ذلك، هل كان الحمّام اليوم نظيفا؟

- لقد كان نظيفا رغم صعوبة ذلك في أيام الخميس لكثرة الناس. وقد جلست فيه مع صاحبتي ساعة. وأنا أفضله على آلاف الحمامات المنتشرة في البصرة.

أعادت الأم بصرها إلى ما بين يديها وقالت:

- أما الجاحظ، فشاب يذكرون من علمه وأدبه وظرفه وفصاحته.

كانت تماضر تتظاهر بأنها لم تسمع باسم الجاحظ، بلْه أن تراه، بل تريد إشعار أمها أنها لم تسمع به إلا بعدما حدثتها أمس أنه خطبها، ثم قالت لأمها -وهي تتذكر حلاوة حديثه عند مخرج سوق العطارين- ومن أي العرب هو؟

أعادت الأم بصرها إلى الطعام المرصوص على السفرة وواصلت ترتيبه قائلة:

- لقد أخبرني أبو الهذيل العلاف أن اسمه عمرو بن بحر بن محبوب الفقيمي الكِناني. وتذكرت أني سمعت أباك ذكره مرة واصفا إياه بحدة الذكاء.

كانت الفتاة قد خلعت ملابس خروجها وبرزت من الحجرة حاسرة الرأس إلى الدهليز النظيف. ثم خاطبت أمها قائلة، وهي تلعب بشعرها المنسدل على صِدارها تغنجا:

- ومن الخاطب الآخر؟

- علي المديني. لمّحتْ لي أمه مرات وإن لم تصرح. وهو من قد سمعتِ عنه جمالا وأخلاقا وعلما.

جلست تماضر في ركن الدهليز غير المفروش، مسندة ظهرها إلى الجدار، فيما كانت أمها جالسة وسطه على حصير نظيف عليه سفرة فوقها أوان وفاكهة. كانت الأم تفكر في أن سبب خطبة الرجلين لها قد لا يكون الميل إليها بل الميل إلى الزواج من ابنة الخليل.

واصلت الفتاة لعبها بأطراف ذوائبها وهي تقول:

- وما ذا ترين يا أماه؟

كان قلب الفتاة يخفق انتظارا للجواب مخافة إصرارها على أحد الرجلين وهي لمّا تختر بعدُ.

- الأمر إليك يا ابنتي... ثم إن...

ولشدة انشغالها بالخاطر لم تسمع كلام أمها بوضوح. فعادت وسألتها:

- ما رأيك يا أماه؟

- الأمر إليك يا بنية. فأنت من ستصبحين أسيرة في بيت أحدهما، فلا أحد يتخير لك غير نفسك.

وقع جواب الأم على قلبها وقعا طيبا. ومع معرفتها بأن هذا رأي أمها دائما إلا أن كثافة اللحظة أنستها ذلك.

كانت الفتاة تعرف في قرارة نفسها أنها ليست جميلة، فأنفها المتوسط الحجم تتربع على أرنبته شامة سوداء تجعلها لا ترتاح إذا ردد شخص النظرَ إليها مرارا، لظنها أنه إنما ينظر إلى أنفها فقط. ومع أنها تحفظ كل ما قاله الشعراء في التغزل بالخال في الوجه، إلا أنها تتضايق من تلك الشامة كثيرا. فكأن تلك الشامة لا تضيف إليها جمالا، بل تُنبه الناظرَ إلى أنفها حتى يتأمله وينتبه إلى دمامته، ويتشاغل به عما في وجهها مما هو أكثر اعتدالا وأقرب إلى الجمال.

أما وجهها فمتوسط الحجم ليس فيه جمال ولا قبح. واحد من تلك الوجوه التي يمكن أن يراها المرء دون أن يدوّن عنها أي ملاحظة

مادحة أو قادحة. أو هو من الوجوه التي لا بد للمرء أن يراها مرارا حتى تخزنها ذاكرته. أما إذا رآه مرات قليلة وحاول تذكره فسيتذكر وجه شخص آخر، أو لا يتذكر أي تقاسيم واضحة.

فعيناها سوداوان لكنهما ضيقتان ضيقا غير مفرط. وفوقهما حاجبان متوسطان، تتراقص تحتهما أهداب غير كثيفة ولا خفيفة. أما أسنانها فمفلّجة، وإن كان لها ما يمكن أن تتيه به فهو جسمها الطري وقوامها المعتدل، دون أن يكون في تفاصيل الجسم لمن تأمله جمال في عضو بذاته. فهو جسم معتدل، جميل في كليته، لكنك لا تستطيع أن تخص عضوا منه بأنه جميل أو متصف بصفات الجمال والاتساق والاعتدال.

غير أنها تعرف مع ذلك أن كثيرا من الرجال يميلون إليها.

فما زالت تذكر كيف قال لها شاب في سوق البصرة:

- ليتني شامةٌ على أرنبة أنف!

ومع أنها قطبتْ جبينها من تلك العبارة، حياء من أمها التي كانت تسمع، فإنها تذكرت كيف وقعت منها العبارة كما يقع المطر من الصحراء العطشى. فقد يتطاير غبار الصحراء لحظة هبوط المطر، لكنه غبار للاحتفال والاستقبال والتلهف والاستزادة، لا غبار الاحتجاج والانزعاج. فالفتاة لا تنزعج أبدا من أي تغزل بجمالها مهما كان وممّن كان. فأي ثورة تبديها إنما هي من قبيل الاستزادة، وأي احتجاج تظهره إنما هو صرخة لطلب مزيد من القول والثناء.

أفاقتْ تماضر من أفكارها على صوت أمها:

- ما رأيك أنت يا بنيّتي؟

ومع أنها أنافت على العشرين وشخصيتها قوية، تلعثمت قائلة:

- ما ترينه يا أمي.

- أنا أرى أن تريْ الرجلين وتختاري بينهما.

- ذاك رأيك يا أماه؟

كانت أمها قد وقفت ومشت قليلا في الدهليز، وأخرجت رأسها من بابه ونادت جارية رومية، فأقبلت ملبيةً تجرّ لحافا خلفها.

عادت الأم واقتربت من بنتها وقالت:

- إن الرجال يا بنيتي هم كما قالت الأعرابية الغابرة عثمةُ بنت مطرودٍ البجلية: «ترى الفتيانَ كالنخْل، وما يُدريكِ ما الدخْل». فالرجل في لحظة إقباله على المرأة يُخرج كل عذوبته ويخفي كل قساوته. فأنت لا ترين منه إلا ما يعجبك، فهو لن يُسمعك إلا كلمة غزل يطير بها قلبك الغرير، ولا تقع عينك عليه إلا وهو متجمل متعطر طيب النفس حسن المزاج.

كانت تماضر تستمع بكل حواسها لحديث أمها رغم ضوضاء ضحكات العبيد التي تصلها من بيت الخدم القريب من مدخل الدار.

بادرت البنت قائلة:

- أنا أعرف المثَلَ: «ترى الفتيان كالنخْل، وما يدريك ما الدخْل». لكني لا أعرف قصته.

رمتْ تماضر سؤالها وهي تعرف أن أمها لا تسعد بشيء سعادتها برواية القصص التي سمعتها من زوجها الخليل بن أحمد. فاندفعت الأم بحماسة وفخر وقالت:

- لقد حدثني أبوك بذلك.

- إيهِ!

- كانت عثمةُ بنت مطرود البجلية ذات عقل ورأيٍ في قومها، وكانت لها أخت ذات جمال يقال لها خود، فجاء سبعة إخوة من الأزد يخطبونها إلى أبيها، وأتى الفتيان السبعة وعليهم الحُلَلُ اليمانية، ويركبون النجائب الفارهة، فقالوا: نحن بنو مالك بن غفيلة ذي النحييْن، جئنا نخطب بنتك خودا، فانظر من ستزوج منا. فدخل عليها أبوها وقال لها: ما ترين؟ فقالت له: «أنكحني على قدري، ولا تشطط في مهري، فإن تُخْطئني أحلامُهم، لا تخطئني أجسامهم».

نطقت الأم هذه العبارة، ثم رفعت بصرها إلى ابنتها لتنبيهها على أهمية احتفاء الفتاة بعقل الخاطب لا بجماله، فلما التقت عيونهما أغضتْ تماضرُ حياءً، وقالت:

- إيه!

وكانت الأم إذا انشغلت برواية القصص -التي روتها عن الخليل- لا تكاد تفيق على شيء مما بين يديها، فوقفت وأخذت بيد بنتها وتمشت بها خطوات حتى خرجتا من الدهليز إلى غرفة الجلوس الكبيرة. ثم واصلت حديثها:

- فخرج والدُ خودٍ إلى الفتيان وسأل كل واحد أن يصف له نفسه، وكانت مع الفتيان ربيبةٌ لهم كاهنة يقال لها الشعثاء. فاندفعت تصف كل واحد منهم بأوصاف حميدة وجمل بليغة، غير أن الفتاة دخلت على أختها عثمة وشاورتها في الأمر، فقالت لها أختها

عثمة: «ترى الفتيانَ كالنخل وما يدريك ما الدخل». اسمعي مني يا أُخَيَّتي: «إن شر الغريبة يُعلن، وخيرَها يُدفن، انكحي في قومك ولا تغررك الأجسام».

فلم تقبل خودٌ نصيحة أختها لفتنتها بجمال شاب منهم اسمه مدرك. فبعثت إلى أبيها قائلة: «أنكحني شابا منهم يسمى مدركا».

فأنكحها أبوها على مائة ناقة ورعاتها، وحملها زوجها مدرك. فلم تلبث عنده إلا قليلا حتى غزتهم فوارس من بني مالك بن كنانة، فاقتتلوا ساعة من نهار، ثم إن زوجها وإخوته وبني عامر هربوا وتركوها فسُبيتْ فيمن سُبي.

كانت الأم تواصل حديثها، فيما انشغلت تماضر بالتفكير في تأويل حديث أمها، وهي تتذكر وجه الجاحظ ودمامته المفرطة مع حلاوة حديثه، فهل تعني أمها بهذا ترغيبها في الجاحظ؟

واصلت الأم القصة قائلة:

- فلما سباها بنو مالك وساروا بها جعلت خود تبكي بكاء مرا. فقال لها أحد الفرسان: ما يبكيك؟ أعلى فراق زوجك؟ فقالت له خود: «زوجي؟ لا والله! قبحه الله!».

فقال لها الفارس: لقد كان جميلا. فقالت له: قبح الله جمالا لا نفع معه، إنما أبكي على عصياني لأختي وغفلتي عن صدقها حين قالت: «ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل»، وأخبرتهم بخبر خطبتها من أبيها وكيف اختارته لجماله، فقال لها رجل منهم يكنى بأبي نواس وكان شابا دميما أفوَهَ مضطرب الخلق: أترضين بي على أن أمنعك من ذئاب العرب؟

فقالت لأصحابه: أكذلك هو؟ قالوا: نعم إنه مع ما ترين ليمنع الحليلة، وتتقيه القبيلة. فقالت: «هذا وربّي هو أجمل جمال، وأكمل كمال. قد رضيت به. فزوجوها منه».

كانت تماضر تستمع إلى حديث أمها باهتمام وهي تتذكر شكوى صديقة لها من ضرب زوجها لها، مع أنها ما زالت تحتفظ بعدة رسائل غرامية بعثها لها قبل الزواج. وكان وجه الجاحظ وعيناه المارقتان -اللتان تكادان تسقطان- شواخصَ في خيالها، كما كانت تتذكر حديث إحدى جاراتها عن وسامة علي المديني.

وقفت تماضر من مكان جلوسها وعادت إلى الدهليز، وأخذت فُرْنِيةً وعضت منها عضة وعادت إلى أمها وهي تمضغها بهدوء، وتقول:

- وما ذا يغني لقاء أو لقاءان مع الرجل إذا كانت هذه هي الحال يا أماه؟

- إن ذلك أفضل من أن تختاري وأنت لم تريْ الرجل ولم تحادثيه. ولقد خطبني أبوك -رحمه الله- من والدي وكان رجلا أزديا من عمان، جديد العهد بالبصرة، ومع ذلك جالسته في بيتنا مرات قبل الزواج.

ما زادت الفتاة على مواصلة مضغ قطعة من الفُرْنِيّة بتلذذ قائلة: الأمر ما ترين يا أماه. دعي الرجلين يأتيان وأنا سأختار.

***

الدوحة، 1439هـ

كان القروي مستلقيا على سريره في الظلام متأهبا للنوم في وقت مبكر على غير عادته. غير أن كأس الشاي الأخضر الذي شربه، والتفكير في استشارة أمه في الزواج، طردا النعاس من عينيه.

خطر له أن وقت طلب الزواج لم يحنْ بعد، وأن هذا تعجل صبياني، ثم علل الأمرَ لنفسه العجولةِ بأن المجتمعات المحافظة تميل لتعجيل الزواج، فليست حصة سويديةً ولا هو دانيماركي!

كان عليه أن يُقنع أمه وأباه. فهو من قبيلة تعتبر زواج أحد أبنائها من قبيلة مجاورة أمرا منكرا، فكيف إذا تزوج خارج البلد كله من امرأة مجهولة النسب. وكل القبائل التي لا يعرفها مشايخ قبيلته قبائل مجهولة النسب.

قام من فوق سريره وضغط زر الكهرباء، متذكرا حديث عمته مع جارتها وهو طفل جالس بينهما:

- إن الرجل إذا سافر خارج البلاد وتزوج من غريبة فكأنه مات، بل إن موته أرحم لأهله لأنه يولّد اليأسَ الحاسم، أما الزواج خارج البلاد فيجعل قلب أهله معلقا بحياة مُتوَهَّمة.

جلس على حافة سريره ممسكا هاتفه، واتصل بأمه. دخل في

الموضوع وقلبُه يخفق:

- أنا تعرفت على فتاة هنا من أهل هذه البلاد وأستأذن في الزواج منها.

رمى العبارة، ثم انتظر الجواب. فخيل إليه أن الخط انقطع، فلم يسمع لأمه همسا:

- ألو، ألو...

لكنه لم يسمع صوتا. انقطع الاتصال، فأعاده من جديد.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام يا ولدي.

شعر بارتباك شديد، فحاول أن يسألها أسئلة ممهدة للحديث، فلم يتذكر إلا جارة لهم بها مسّ من جنون، فقال:

- كيف حال جارتكم زينب!

سمع ضحكة أمه:

- بخير، ما الذي ذكرك بها؟

- أنا أتذكر كل الأهل.

- الله يحفظك يا ولدي.

-- طيب.

- أيوه

- أنا أريد رأيك. فقد قررت أن أتزوج فتاة هنا. وهي فتاة طيبة وأهلها طيبون.

- من أي الناس (القبائل)؟

- هي من قبيلة عربية
- ما اسمها؟

وبما أنه لا يعرف من أي القبائل هي فقد اخترع لها اسما له وقع عربي:

- من بني قحطان!
- يا ولدي هؤلاء لا نعرفهم! وما كنت أظنهم موجودين إلا في الكتب!
- لا لا، عايشين يا أمي.
- أنتَ تعرف رأيي وأني ما كنت أريدك أن تتزوج إلا ببنات الأكارم من المجموعات التي نعرف.
- أيوه
- ولكني كنت عاهدت الله ألا أمنعك ولا أحدا من إخوتك من الارتباط بأي امرأة. الله ييسر لك الخير يا بُني.

انتابته موجة طاغية من السعادة، لم يَدر كيف ينهي المكالمة. فقال بتلعثم:

- هذا ممتاز، طيب. كلمي أبي.
- إن شاء الله.

ما إن قطع الاتصال حتى رنّ على حصة. جاءه صوتها حنونا عطوفا، دافئا.

- كيفك؟
- حمد لله!

- كيف حال مطوعة بريدة الليلة؟

- والله طيبة!

- وينك الآن؟

- أنا في السيتي سنتر، أشتري بعض الأغراض.

- صحيح، مركز المدينة حيث أنت!

فردت بخَفَر مشُوب بضحكة:

- كذاب!

- اسمعي، كلمتُ أمي وقالت لا مانع، وستكلم أبي غدا.

لم تعن كلماته لها شيئا. فهو لم يخبرها بإمكانية رفض أهله، وما كانت تتوقع الرفض ممكنا إلا من أهلها هي. فقالت:

- طيب.

- قلت لك لا مانع عند أمي.

كادت ترمي بكلمة، ثم أمسكت نفسها قائلة:

- طيب.

- ومتى ستكلمين أهلك بشأن الخِطبة؟

- قريبا إ شاء الله!

كانت حصة تتحدث من داخل متجر كارفور الواقع في الطابق الأول من السيتي سنتر وسط الدوحة. مدت يدها وأخذت سلة، ومشت جهة الخضروات. كانت تنتقي منها، لكن قلبها مشحون بسؤال واحد: كيف ستقنع أهلها بالزواج من شاب موريتاني؟ ما المدخل للحديث؟ وإذا رفضوا باديَ الرأي فكيف تراجعهم؟

لكنها لم تنتبه لحجم انشغال عقلها بهذه الأسئلة إلا عندما لاحظت أنها ظلت واقفة بعض الوقت عند صندوق الدفع، والموظف يناديها لتضع البضاعة دون أن تسمعه. حينها، استيقظت من عالمها وبدأت ترمي أكياس الخضروات بين يديه معتذرة.

وأفاقت على صوت البائع قائلا:

- ونسيتِ أيضا أن تزِنيها على الميزان!

قطعت الاتصال، وهرولت عائدة إلى مكان وزن الخضروات وقلبُها يرجُف حياءً.

ما إن انقطع الاتصال معها حتى وقف القروي في طرف غرفته وأطل من النافذة المشرفة على شارع الحمداني -بمنطقة السد- وهو يشعر بخفة وبِشْر وراحة بال. نظر فتراءتْ له «بقالة الفلبّين»، ثم لمح مجموعة من العمال الهنود يقطعون الشارع وهم يضحكون داخلين إلى مطعم مصري لبيع الفول. استعذب فكرة اختلاط الأمم وتمازجها داخل الدوحة، ثم تذكر عالم البصرة واختلاط الأمم واللغات والأفكار فيها حتى قبل عصر التواصل السريع هذا.

* * *

انتفض فوق سريره فزعا. وجلس يفرك عينيه، ونصفه الأسفل مغطى بلحاف مهترئ. تمتم متثائباً:

- اللهم ارحمها.

فهذه من المرات القليلة التي رأى فيها أمه في النوم منذ وفاتها قبل سنين. فمع كونها كانت له في طفولته أبا وأما، إلا أنه يؤنب نفسه على

أنه لم يحزن عليها من الحزن ما تستحقه.

أنزل رجله اليمنى من فوق السرير، فانحسر اللحاف عن ساقه الدقيقة. نظر إليها وهو يفكر في طبيعة الإنسان وكيف لا يستطيع التحكم في مشاعره. فهو يود أن يكون حزينا على أمه بمقدار، لكنه لم يحزن عليها بذلك المقدار. فهل يعني هذا أن الشعور معزول عن الإرادة كليا؟ وما علاقة هذا بموضوع المناظرة أمس في المسجد حول الإرادة، ومدى سلطة المرء عليها وعلاقة ذلك بالثواب والعقاب الأخرويّيْن.

وقف وهو يتمتم بحمد الله، ونظر من نافذة حجرته ليعرف الوقت.

توضأ وصلى العصر. وأخذ حزمة من الكراريس، ولبس جبة بنيةً كانت معلقة عند رأس السرير، كوّر على رأسه عمامة صفراء متسخة وخرج مسرعا.

كان الشارع المارُّ من أمام حائط حجرته حيا صاخبا. فالغبار يتصاعد وسطه لكثرة البغال والحمير والإبل المارة فيه. فهو قريب من سوق البصرة الكبير، بل يكاد يكون من أهم الطرق الموصلة إلى السوق.

كان ذهنه لا يزال منشغلا بمناظرة حضرها أمس في مسجد البصرة بين العلاف وأحد أحبار النصارى، وكان ذهنه منشغلا باحتجاج النصراني على العلاف بأن عيسى ذو طبيعة لاهوتية وناسوتية في آن؛ بحجة أن القرآن يصفه بأنه كلمة الله. فهو بذلك كالقرآن الذي هو كلام الله. كانت تفاصيل المناظرة حية في ذهنه.

مشى حتى حاذى منزل جيرانه النصارى، فرأى والدهم أمام بيته

يُسرج فرسه وبيده مِخلاة. فحياه من بعيد. لوّح الطبيب النصراني من بعيد وقال:

- حياك الله.

لكن الجاحظ لم يسمع ما قاله، فقد حالت بينهما مجموعة من الغلمان متراكضين وراء سيدهم المتربع على بغلة فارهة، ما إنْ انحسر الغبارُ الذي أثارته حوافر البغلة وأقدام الغلمان الراكضين وراءها، حتى كان الجاحظ قد وصل إلى طرف الشارع الذي يقود لساحة الحمام.

لفّ يمينا وهو يفكر في مدى معرفة جاره النصراني بتفاصيل دِينه الذي يتبعه. متسائلا: هل هو مقلد لآبائه فقط؟ أم هي العادة التي جعلته يتشبث بذلك الدين المحرّف؟ وهل هو معذور في الآخرة إذا كان يوقن في دخيلة نفسه بأن دينه هو الدين الحق؟ أم أن الجاحد للحق فقط هو الآثم وغيره بريء أمام الله؟

كان ذهنه لا يزال مشحونا بتلك الأفكار وهو يخلع حذاءه داخلا إلى مسجد زينب، بدا المسجد مكتظا بالشبان المنحنين على كتبهم، والحلقات الدائرية حول كل سارية. تجاوز السارية الأولى فرأى أحد الشيوخ وحوله عصبة من الشباب المنشغلين بدراسة علوم الأوائل؛ من منطق وكيمياء وموسيقى، فهو يذكر أن ذلك الشيخ ذا العمامة الحمراء لا يطيب له إلا تدريس الهندسة والرياضيات، وصل إلى السارية التي اعتاد شيخه الجلوس عندها فلم يجده، لكن مجموعة من الطلاب بادروا إليه مرحبين. ما كاد يجلس حتى قال له شاب كثيف اللحية:

- لقد سافر الشيخ، وما أرى إلا أن تجلس مكانه لنلتمس من علمك ريثما يعود.

ثم دوت غمغمات الطلاب مؤيدين كلام الشاب.

ابستم الجاحظ، وهو يضع يده على منكب الشاب الأسمر:

- هذا مرتقى صعب، وما أراني أصلح للجلوس هنا للتعليم مكان الشيخ.

ثم خيم الصمت، فسمع بوضوح صوت أحد الشيوخ الجالسين عند إحدى السواري يقول:

- «القوة الغضبية والقوة الشهوية هما أصل هذا المنزع».

التفت الجاحظ نحو الصوت، فتراءى له الشيخ مُحَمْلِقاً في صحيفة كبيرة عليها رسوم ملونة. ثم لمح شابا قصيرا أبيض، يجلس عن يمين الشيخ ويشير جهة الجاحظ بأصبعه.

ثم وقف الشاب مقتربا وقال خجِلا:

- هل أنت أبو عثمان؟

- بلى!

ما كاد الشاب يصدق، وانعقد لسانه وهو يشير إلى كومة من الورق بيده:

- كنتُ الآن أقرأ هذه القراطيس التي كتبتَ في «فخر السودان على البيضان» وما أظن أحدا كتب في هذا الشأن قبلك.

ونظر الجاحظ بغبطة إلى الأوراق المنسوخة من كتابه وقال:

- وهل أعجبك ما فيها؟

- إي، بالله.

ثم رفع الشاب يده وحكّ شحمة أذنه وقال:

- على أن عندي بعض الإشكال فيها.

فقال الجاحظ بغبطة:

- وما هو؟

مد الشاب يده بصفحة وقال للجاحظ اقرأ من هنا:

أمسك الأوراقَ الجلدية وبدأ يقرأ:

«والناسُ مجمعون على أنّه ليس في الأرض أمّةٌ السّخاءُ فيها أعمُّ، وعليها أغلب من الزّنج. وهاتان الخلّتان لم توجدا قطّ إلّا في كريم. وهي أطبع الخلق على الرّقص الموقّع الموزون، والضّرب بالطّبل على الإيقاع الموزون، من غير تأديب ولا تعليم. وليس في الأرض أحسن حُلُوقا منهم. وليس في الأرض لغة أخفّ على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قوم أذرب ألسنة، ولا أقلّ تمطيطا منهم.

وليس في الأرض قوم إلّا وأنت تُصيب فيهم الأرتَّ والفأفاءَ والعييَّ، ومن في لسانه حبسة، غيرهم. والرجل منهم يخطب عند الملك بالزّنج من لدن طلوع الشّمس إلى غروبها، فلا يستعين بالتفاتة ولا بسكتة حتّى يفرغ من كلامه.

وليس في الأرض أمّة في شدّة الأبدان وقوّة الأسر أعمّ منهم فيهما.

وإنّ الرّجل ليرفع الحجر الثّقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم. وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء. وهذه هي خصال الشرف.

وهم أهولُ في الصّدور وأملا للعيون، كما أنّ المسودة أهول في العيون وأملا للصّدور من المبيّضة، وكما أنّ الليل أهول من النهار.

والسّواد أبدا أهول!

ودُهْمُ الخيل أبهى وأقوى، والبقر السّود أحسن وأبهى، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى. والحمر السّود أثمن وأحسن وأقوى. وسود الشّاء أدسم ألبانا وأكثر زبدا، والدّبس أغزر من الحمر. وكلّ جبل وكلّ حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة وأشدّ يبوسة.

والأسد الأسود لا يقوم له شيء.

وليس من التّمر شيء أحلى حلاوة من الأسود، ولا أعمّ منفعة ولا أبقى على الدّهر. والنّخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع.

وأحسن الخضرة ما ضارع السّواد. قال الله جلّ وعلا: ﴿وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ﴾، ثم قال لمّا وصفهما وشوّق إليهما: ﴿مُدْهامَّتانِ﴾. قال ابن عباس: خضراوان من الرّيّ سوداوان.

والحجر الأسود من الجنّة.

فمن استنكر لونَ السواد فما في الفرنجة والرّوم والصّقالبة من إفراط سبوطة الشّعر والرّقّة والصّهوبة، والحمرة في شعر الرّأس واللحية، وبياض الحواجب والأشفار، أقبحُ وأسمجُ. ولا سواءَ من لم تُنضجه الأرحامُ وما جازت به حدَّ التمام».

ثم رفع الجاحظ بصره -وهو يجد لذة قراءة كلامه- وقال للشاب:

- وما وجه الإشكال في هذا؟

- لم تقل لنا ما سبب السواد؟ وهل هو لعنةٌ من الله كما يقول اليهود؟ وما الذي رميتَ إليه بقولك: «ولا سواءَ من لم تُنضجه الأرحامُ وما جازتْ به حدَّ التمام».

وقبل أن يجيب الجاحظ، لاحظ أن كثيرا من طلاب الحلقات بدأوا يتجمعون لسماع حديثه، فقال، وقد خامره بعض الغرور:

- لقد تركتُ بسطَ ذلك اتكالا على فطنة قارئ الكتاب. فالله تعالى لم يجعل السواد تشويها في الخَلْق، ولكنّ اختلاف البلاد وقوة الشمس هي التي فعلت ذلك بالناس. «والحجّة في ذلك أنّ في العرب قبائل سودا كبني سليم بن منصور. وكلّ من نزل الحرّة من غير بني سليم كلّهم سود. وإنّهم ليتخذون المماليك للرعي والسّقاء، والمهنة والخدمة، من الأشبانيّين ومن الرّوم نسائهم، فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتّى تنقلهم الحرّة إلى ألوان بني سليم.

ولقد بلغ من أمر تلك الحرّة أنّ ظباءها ونعامها، وهوامّها وذبابها وثعالبها وشاءها وحميرها، وخيلها، وطيرها كلّها سود. والسّواد والبياض إنّما هما من قبل خلقة البلدة، وما طبع الله عليه الماء والتّربة، ومن قبل قرب الشّمس وبعدها، وشدّة حرّها. وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة، ولا تشويه ولا تقصير.

على أنّ بلاد بني سليم تجري مجرى بلاد التّرك. ومن رأى إبلهم ودوابّهم وكلّ شيء لهم تركيّ رآه شيئا واحدا. وكلّ شيء لهم تركيّ المنظر.

وربّما رأى الغزاة دون العواصم أخلاط غنم الرّوم فلا يخفى عليهم غنم الرّوم».

كان الفتى ومن حوله يستمعون مذهولين بكل حواسهم للجاحظ، مُتعجبين من فصاحته وبديهته وقوة منطقه. فلما سكت بارده رجل من طرف الحلقة يشد عليه جبته حياءً:

- وما ذا عن الروم؟

- الروم إنما نقص خَلْقُهم قليلا لانحرافهم شمالا في الأرض. وأنت تعلم أن الأرض على هيئة البيضة، فكأن الأرحامَ لم تنضجهم لقلة الشمس فجاء خَلْقُهم مُتهافِتا، وجلودُهم ضعيفةً. فكأن الأرحام زادتْ على إنضاج السودان، ولم تُنضج الرومَ كبيرَ إنضاج!.

وتذكر الجاحظُ لون محبوبته تماضر، فاستعاد بشرتها المتسوطة بين البياض والسواد. فنظر إلى الأرض، ورفع وجهه، وقلبُه يخفق:

- لذلك ترون أحسنَ الناس أجساما وأجملَهم ألوانا أهل هذه البلاد؛ وذلك لوقوع إقليمنا وسطَ الأرض، فلمْ ننحرفْ شمالا ولا جنوبا.

وسكت وهو يتذكر تماضر، وكيف ودّعها آخر مرة قرب سوق العطارين. فتمتم قائلا:

- عليّ العودة لأمر مهم!

ثم وقف، فوقف معه الطلاب يشيّعونه إلى الباب، ما كاد يضع رجله في نعله حتى شعر بضرب خفيف على كتفه، فالتفت فإذا سهل بن هارون.

ابتسم الجاحظ فاتحا ذراعيه وعانق سهلا قائلا:

- ما الذي جاء بك؟

- جئت أستعير كتاب بطليموس من أحد التراجمة السريان.

انشغل الجاحظ بإعادة عمامته المصفرة وسَخاً إلى مكانها، ونفض طرف جبته الأسفل من أثر طوبةٍ وقعت عليها وهو يقول:

- ألم نقرأ كتاب بطليموس منذ دهر معاً؟

- بلى، وأنا أبتغيه لأنسخه للبيع، لكنني لم أجد الرجل ولعلي أعود وقتا آخر.

- حسنا، ما رأيك في أن تصحبني لدار مويس بن عمران فنتعشى معه؟

- لا بأس.

خرج الرجلان من باب الحائط الدائر على المسجد وبدآ يسيران في الشارع، كانت الضوضاء الآتية من جهة السوق عالية، والشمس تكاد تغيب وأذان المغرب يكاد ينطلق، ظلا يسيران في الشارع، وكان الجو باردا فجعل كل منهما يشد جبته عليه، بينما أخذ الجاحظ عمامته وتقنّع بها.

فالتفت إليه سهل وقال:

- لا أنصحك بالتقنع؛ فأنت عندما تتقنع بعمامتك تخفي محاسن وجهك.

لكزه الجاحظ بمنكبه:

- تعني أني عندما أتقنع أُبرز ما في وجهي من دمامة؟

ثم قطع حديثهما صوت مؤذن قريب.

كانا قد حاذيا الزقاق الكبير المؤدي لساحة الحمام، فازدادت الضوضاء تكاثفا باختلاط أصوات المؤذنين مع صوت مطرقة في طرف السوق.

يتدافع الناس خارجين من سوق البصرة عائدين إلى بيوتهم،

أو متوجهين للمسجد الجامع لصلاة المغرب. يكاد الشارع يضيق بالكتل البشرية الآخذة في كل اتجاه. فهؤلاء قصابون يحملون سيوفهم وآلاتهم، وتفوح رائحة الشحم واللحم من ملابسهم، وهم منهمكون في أحاديثهم بعد يوم طويل من العمل، مروا من جهة سهل، فضم طرف جبته حتى لا تلامس ملابسهم. ثم دخل هو والجاحظ إلى المسجد للصلاة.

بدأت الصلاة في المصلى الصغير المطل على الشارع، دخل الناس في صلاتهم لكن اللوحة البادية أمام المصلين لا تكاد تترك للمصلي مساحة تأمل أو خشوع.

وتلك مجموعة من الجواري يمشين مسرعات وعلى رأس إحداهن كومة ملابس، وهن يتضاحكن ويتغامزن مع شاب في طرف الشارع، ثم مر بين الشاب والفتيات كَلاّبٌ يركض ووراءه مجموعة من الكلاب أفزعت جملا محمّلا يقوده أعرابي رثّ الثياب.

كانت الكتل البشرية تتحرك مبتعدة عن السوق لتتوارى في الشارع الواسع، فيما بدأ الليل يفغر فاه ليلتهم المدينة ومن فيها.

نفض الجاحظ حذاءه وهو يخرج من باب المسجد وقال لسهل:

- هل كُتبتْ هذه الصلاة حسنات أم سيئات؟ وما الذي عقلنا منها وحضرناه بقلوبنا؟

التفت سهل متنهدا وقال وهو ينفض حبيبات الحصى عن أرنبة أنفه الأقنى:

- وما أدراك أنها من أكثر الصلوات أجرا؟ فالأجر يتضاعف كلما تضاعفت الفتن والعوارض، وإنّ أجرَ المتعبد المنفرد في خلوته

المنقطع عن العوارض لأقل عندي من أجر من يصلي وهو مطلّ على سوق العطارين.

- ثم إن الفرق بين السيئة والحسنة دقيق لا يدركه العامة، فالحسنة قد تكون سيئة بحسب المقام والنية، والسيئة قد تصير حسنة بالمقام والنية.

ظلا يتباحثان في الفروق ما بين الحسنات والسيئات، وكل منهما يستعرض قدرته على توليد الأفكار وزحزحة الدارج منها بمنطق حادّ. واصلا السير قاصديْن منزل مويس بن عمران.. ذلك المنزل الوحيد الذي يجدان فيه عادة ما يشبع معدتيْهما الخاويتيْن أبدا.

***

مد الجاحظ يده وقرع الباب بقوة.

خرج غلام صقلبي وفتح الباب، ثم دعاهما للدخول وهو مطأطئ الرأس.

كان مويس بن عمران متربعا في مجلسه الواسع الواقع بالجانب الأيمن من منزله الكبير، ومعه جماعة فيهم النظام وماسرجويه الجنديسابوري وأبو نواس.

قام مويس من مكانه واستقبلهما كأنه يتدحرج، وهو يردد بلثغته التي تبدل الراء غينا:

- يا مغْحباً وأهلا!

مد الجاحظ يده لمصافحته وهو يبتسم متذكراً كيف وصف أبو نواس مويساً قبل أيام بأن مشيته تشبه مشية الإوزة. فجسمه القصير

الممتلئ، وساقاه الأفْحجَانِ يجعلان مشيته متأرجحة متلكئة، ثم تذكر -وهو يعانقه- كيف اغتابه بأن الله يُيسر له الكلمات التي فيها الراء كلما تكلم لتظهر لثغته أكثر، ولتزداد ظرافته في أعين الناس.

جلس الجاحظ عن يمين مويس، أما النظام فكان يجلس عن يسار مويس، فيما يتربع مقابلهم أبو نواس وماسرجويه الطبيب، الذي بدا وجهه أكثر وضوحا من غيره لقربه من المصباح.

كان المجلس دائريا أنيقا مفروشا كله بالسجاد الخراساني الفاخر، والمساند البصرية الأنيقة. وكانت إحدى زواياه مملوءة كتبا. شعر الجاحظ براحة وهو يستنشق رائحة الكتب الجلدية والورقية. فجلس غير بعيد منها -على عادته- وهو يتذكر سخرية سهل بن هارون منه:

- سأقترح على الفتاة التي ستتزوجها أن تصنع قارورة عطرها من غبار الكتب!

التفت مويس بجسمه كاملا إلى الجاحظ وقال بنبرة أرفع من نبرته العادية:

- هل طلبك أمير المؤمنين هارون الرشيد في من طلب أمس؟

تحرك الجاحظ في مكانه -لاعبا بجفنه الأيمن، مُرخياً شفته السفلى، مُغضِّناً خده الأيسر- قائلا:

- لو طلبني لما كنت جالسا بين هذه الوجوه. فما أظن من جالس الخلفاء يعود القهقرى لمجالسة الدهماء والحشوة ومن لا يعبأ الله بهم!

دوّى المجلس ضحكا، واهتز مويسٌ في مكانه، ثم رفع يده وصك

بها يد الجاحظ طرباً. أما أبو نواس فكان يداري ضحكه بسبب توالي ثلاث راءاتٍ في كلام مويس، بادر النظام -وكأن صوته الغليظ آتٍ من أعماق روحه- وقال:

- لقد دعا شيخَنا أبا الهذيل العلاف في جماعة من المشيخة. وطلب إحصاء كل طلاب العلم والعلماء في البصرة.

غاب الجاحظ عن الحديث منطويا على نفسه، وهو يفكر كيف أن الرشيد لو دعاه فلربما تيسر أمر زواجه من تماضر بنت الخليل، ثم تخيل نفسه بين يدي الرشيد وهو يُظهر كل علمه ومهاراته، والرشيد يقول له: لمَ لمْ يخبروني عنك قبل هذا؟

غير أن هذه الأفكار -التي داعبت خياله- قطعتها عليه فكرة أخرى: لماذا ما زال يشعر بالذنب لتعلقه بها عند رؤيتها وهي تنوح على أبيها قبل بضعة أعوام؟ ولمَ يكتمُ لحظة رؤيته الأولى لها عن كل أحد؟

كانت عيناه تدوران بسرعة لافتة، وهي الإشارة التي يعرف بها أصدقاؤه انشغاله بأمر جلل. فانتبه مويس وبادره:

- ما بالك يا أبا عثمان؟ أين طرتَ عنا، وبأي أرض نزلت؟

انتبه، فاعتدل في جلسته شاداً أطراف جبته، وهو يقول بنبرة غير واثقة:

- كنت أفكر في مسألة منطقية!

دخل الغلام الصقلبي ونظره إلى الأرض، وبيده جامٌ واسعٌ مزركش بصور الطواويس ووضعه وسط المجلس، فوقف أبو نواس تفوح من أردانه رائحة عطور مختلطة. أخذ تفاحة وقضمها، ثم قال

وكلامه لا يكاد يُفهم:

- هل سيصلنا شيء من صلة أمير المؤمنين لطلاب العلم والعلماء؟

بادره الجاحظ وقال:

- ومن أي الفريقين ترى نفسك يا ابن هانئ؟

أبعد أبو نواس بقية التفاحة عن فيه وهي تقطر ماء على شدقه قائلا بابتسامة فاترة:

- وماذا ترى أنت يا أبا عثمان؟

- لا أرى أنك مندرج في طلاب العلم ولا في العلماء. فأنت شاعر مفلق، ومنطيق مطرب، فأرى أن تلتمس طريقا حتى يعرف الخليفة مكانتك كأشعر أهل البصرة.

كان الجاحظ يتحدث، غير أن جوا من التوتر والنظرات المرتابة خيم. فأبو نواس فهمَ كلام الجاحظ على أنه حطٌ من مكانته العلمية، خاصة بعد المناظرة التي دارت بينهما قبل أيام في أحد المساجد، وبحضور النظام. فكيف لم يرض أن ينظمه في سلك العلماء وهو الذي يشهد كل من عرفه بتبحره في الفقه واللغة والمنطق والتاريخ، كان النظام يراوح النظر بين وجه أبي نواس الذي تظلله سحابة انزعاج، ووجه الجاحظ الذي تغشاه موجة توتر يحاول إخفاءها، والنظر إلى محيّا مويس الذي لا يحب أن يُؤذى أحد في مجلسه. مد النظامُ يدَه إلى كوز من ماء الورد، وقطع حديث الجاحظ بقوله:

- أنت يا أبا نواس تستحق كل تلك الصفات لجمعك إياها كلها، ثم إن الرجل الكامل في أيامنا هذه لا يستحق صفة الكمال إلا إذا

جمع صفات متباينة...

ومع سعي النظام لتطييب خاطر أبي نواس، فإن أبا نواس لم يرتح لعبارة «الرجل الكامل» مخافة أن يؤولها بقية الرهط تأويلا آخر. فبادر أبو نواس مُخفياً تضايقه -محاولا استعجال الأذهان قبل الانتباه لكلمة «الرجل الكامل»- قائلا بتلعثم، موجها كلامه إلى ماسرجويه:

- سمعتُ أن أحد رهبانكم ناظر في المسجد أمس وقَطعَ مُناظرَه المسلم.

فقال ماسرجويه:

- سمعت ذلك، وما كنت حاضرا.

نزع الجاحظ عمامته، فظهر ظلُّ رأسه الدقيق على الجدار أكبر من حجمه وقال:

- سمعتُ أنها كانت مناظرة مشهودة، حارت فيها ألبابٌ وطارت عمائم.

ابتسم النظام مبتعدا عن الجدار، وأخذ وسادة وثناها لتكون له مُرْتَفَقاً وهو يستقبل وجه الجاحظ.

فانطلق الجاحظ:

- لقد فكرت في سبب انخداع كثير من العامة بالنصارى وتقديمهم لهم على المجوس واليهود، وقد حدثت صديقنا ماسرجويه بذلك من قبل.

فالتفت مويس إلى الجاحظ:

- وما ذا وجدت يا أبا عثمان؟

- وجدت أن المسلمين يحنون على النصارى أكثر من اليهود والمجوس لأسباب. فاليهود كانوا جيران المسلمين في يثرب. وعداوة الجيران كعداوة الأقارب في الشدة والتمكن وثباتِ الحقد. وإنما يعادي الإنسانُ من يعرف، ويناقض من يشاكل، وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد.

عندها التفت أبو نواس إلى ماسرجويه محاولا التظارُف لإثبات أنه لم يغضب، وقال:

- وبهذا تكون دواعي البغض بينك وبين الجاحظ كثيرة يا ماسرجويه!

ابتسم الجاحظ دون أن يستطيع إخفاء انزعاجه من قطع أبي نواس لحديثه وواصل:

- «ثم لما رأى اليهودُ جيرانَهم من الأنصار قد استقبلوا المهاجرين خير استقبال حسدتهم اليهودُ على النعمة في الدين والاجتماع بعد الافتراق والتواصل بعد التقاطع... فمالأوا الأعداء والحسدة، ثم جاوزوا إلى الطعن وإدخال الشبه، إلى المناجزة والمنابذة والعداوة. فجمع المسلمون كيدهم وبذلوا أنفسهم وأموالهم في إخراجهم من ديارهم فطال ذلك واستفاض فيهم وظهر».

كان النظام يستمع بانتباه وهو متكئ على وسادته، ممسكا وسط جبته لا يكاد يتحرك، ولا يزيد على التأمل وإغضاء نظراته المتأملة دوما وترديد كلمته الأثيرة: شيء عجيب!. يمدها بهدوء ناظرا إلى الأرض، سعيدا باتساع علم تليمذه الجاحظ.

واصل الجاحظ حديثه:

- «ثم ترادف ذلك الغيظُ وتضاعف ذلك البغضُ وتمكن ذلك الحقد».

كان يتحدث بصوت مسموع، رغم ضوضاء تصادم الأواني وجَلَبَة الخدم في بيت العمال وهم منكبون على تجهيز العشاء.

أما مويس فكان يفكر في سؤال يرميه أو نكتة يشارك بها. فقبض بيده على يد الجاحظ قائلا:

- سمعنا عن اليهود، فماذا عن النصارى وهم موضوع الحديث؟

التفت الجاحظ إلى مويس، مغيرا لهجته وضاغطا على مخارج الحروف، مبرزا جمال صوته وأناقة ألفاظه:

- «كانت النصارى -لبعد ديارهم من مبعث النبي ﷺ ومهاجَره- لا يتكلفون طعناً، ولا يثيرون كيدا، ولا يجمعون على حرب. فكان هذا أول أسباب ما غلظ القلوبَ على اليهود، وليّنها على النصارى. ثم كان من أمر المهاجرين إلى الحبشة ما حببهم إلى عوام المسلمين. وكلما لانتْ القلوبُ لقومٍ غلظتْ على أعدائهم، وبقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود. ومن شأن الناس حب من اصطنع إليهم خيرا».

تحرك ماسرجويه، مائلا بنصف جسمه إلى الأمام، وقال بلهجة واثقة:

- ألا ترى يا أبا عثمان أنك أبعدتَ النجعةَ وتكلفتَ الغائب، وأهملتَ الحاضر؟ لمَ غفلت عن أن القرآن ناطق بحب النصارى. والآية من سورة الأنعام تقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ

آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

كان ماسرجويه يتحدث، وكانت عيون مجالسيه ترمقه بانتباه. فهو منذ الصبا يحضر مجالس المعتزلة في المسجد فأكسبته مهارة في الجدل.

فلما سكت ماسرجويه، قال الجاحظ وهو يوجه كلامه إليه:

- صدقت، وما كنت لأغفل عن ذلك لكني أخرت ذكر الآية لبعض التدبير المنطقي. فإن من أمتن أسباب ميل عوام المسلمين لعقيدة النصارى تأويل هذه الآية التي «غلطت فيها العامة حتى نازعت الخاصة، وحفظتها النصارى واحتجتْ بها، واستمالت قلوب الرَّعاع والسِّفْلة. وفي نفس الآية أعظم الدليل على أن الله تعالى لم يعن هؤلاء النصارى ولا أشباههم من الملكانية واليعقوبية، وإنما عنى أمثال بحيرا الراهب والرهبان الذين كان يخدمهم سلمان الفارسي».

دخل الغلام الصقلبي ناظرا إلى الأرض، حاملا سفرة نظيفة. جثا على ركبتيه ليبسطها فتباعد الرجال حتى بُسطت وسط المجلس. وقبل أن ينصرف أشار إليه مويس بأن يُحكم إغلاق ستارة النافذة لأن بعض الغبار بدأ يتسلل.

خرج الغلام وعاد حاملا جفنة مملوءة ثريدا، ووراءه غلام هندي يحمل قصعة وكوزا من الماء. اقترب الخادم الهندي من سهل بن هارون ومد له قطعة صابون وبدأ يفرغ الماء على يديْه .

نظر الجاحظ إلى الماء القذر المنحدر بوضوح من يديْ سهل تحت

ضوء المصباح، متسائلا متى غسلهما بالصابون آخر مرة. طرد الفكرة عن ذهنه مواصلا حديثه:

- وإن من أسباب عطف المسلمين على النصارى «أنه جاء الإسلام وملوك العرب رجلان غساني ولخمي، وهما نصرانيان. وقد كانت العرب تدين لهما، وتؤدي الإتاوة لهما، فكان تعظيم قلوبهم لهما راجعا إلى تعظيم دينهما. وكانت تهامة -وإن كانت لَقَاحاً لا تدين الدين، ولا تؤدي الإتاوة، ولا تدين للملوك- لا تمتنع من تعظيم ما عظّم الناس، وتصغير ما صغروا. ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب، معروفة عند الناس».

قال النظام، وهو يفرك يديه بالصابون بعد أن وصل إليه الغلام الهندي بقصعته الواسعة:

- لله أنت يا أبا عثمان، والله ما فكرت في هذا الأمر قبلُ.

شعر الجاحظ بنشوة من تزكية النظام، وهو الرجل المعروف بحدة الذهن. فواصل حديثه، وأبو نواس يرقب حركةَ فكيْه المنعكسةَ على الجدار:

- وقد كانت العرب تتجر إلى الشام، وينفذ رجالها إلى ملوك الروم، ولها رحلة في الشتاء والصيف، في تجارة مرة إلى اليمن، ومرة قِبَل الشام، ومصيفها بالطائف، فكانوا أصحاب نعمة، وذلك مشهور مذكور في القرآن وعند أهل المعرفة. وقد كانت تهاجر إلى الحبشة، وتأتي باب النجاشي وافدة، فيحبوهم بالجزيل، ويعرف لهم الأقدار. ثم إن قيصر والنجاشي نصرانيان، فكان ذلك أيضا للنصارى دون اليهود. والآخرُ من الناس تبعٌ للأول في تعظيم

من عظم، وتصغير من صغر، ثم إن العرب كانت النصرانية فيها فاشية، وعليها غالبة».

تحرك مويسٌ من مكانه مقتربا من الخِوان وقال:

- باسم الله!

تقارب الرجال محدقين بالجفنة الواسعة المحشوة ثريدا مملوءا سمنا، وبدأت الأصوات تخفت بينها علا صوت القضم واللقم. واختلطت مخارج الحروف باصطكاك الأضراس. حاول الجاحظ مواصلة حديثه فلم يستطع مقاومة غواية الثريد، فهو لم يأكل طعاما منذ أمس.

أراد مويس قطع الصمت الذي خيم فُجاءةً، فقال وهو يمضغ ومخارج حروفه مختلطة:

- والله ما كنت أظن قبلك يا أبا عثمان أن كثيرا من العرب كانوا نصارى.

أمسك الجاحظ يده قبل وصول اللقمة إلى فيه وقال:

- إلا مضر. فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية، ولم تفش فيها النصرانية إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العِباد، فإنهم كانوا نصارى، وهم مغمورون مع نبذٍ يسير في بعض القبائل. ولم تعرف مضرُ إلا دينَ العرب، ثم الإسلام.

كان النظام ينظر من طرف خفي إلى الجاحظ، ثم تذكر رقة حاله ومعاناته وحاجته إلى أن يذوق ثريدا ولحما، فخاف -إن ظل مويس يسأله- أن يُحرم من بقية الطعام وهو مستحٍ، فأخذ الكلام قائلا:

- ثم إن النصرانية «غلبت على ملوك العرب وقبائلها: على لخم،

وغسان، والحارث بن كعب بنجران، وقضاعة، وطيّئ، في قبائل كثيرة، وأحياء معروفة. ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس وأفناء بكر، ثم في آل ذي الجدين خاصة.

وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة، إلا ما كان من ناس من اليمانية، ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة. ومعظم اليهودية إنما كانت بيثرب وحمير وتيماء ووادي القرى، في ولد هارون دون العرب».

كان ماسرجويه لا يزيد على تحريك رأسه مومئا بالموافقة. أما أبو نواس فكان مندفعا في القضم، ثم تذكر أنه لم يتحدث منذ بداية الحديث، وذاك قد يكون مثار تندّرٍ عليه. فقال لسهل بن هارون:

- مالك لا تتحدث يا سهل؟

قال له سهل، والطعام يكاد يتطاير من فيه:

- ما لي لا أتحدث؟ كأنك أنت كنتَ قس بن ساعدة على منبره منذ وضع هذا الطعام!

دوّى الضحك في أرجاء المجلس، ورفع الجميع أياديهم إلى أفواههم اتقاءً لانفلات الطعام منها. أما مويس بن عمران فالتفت إلى سهل محاولا زيادة التحريش بينه وبين أبي نواس:

- لا تظلم أبا نواس يا سهل، فما منعه من الحديث إلا الحرص على سماع الدرر التي كان ينثرها أبو عثمان.

فقال سهل وهو يجمع بأطراف أصابعه لقمة:

- والله ما أسكته حب العلم، وإنما خشع لسفرة الطعام.

حاول النظام إعادة الحديث إلى موضوعه بقوله:

- «فعطفُ قلوب دهماء العرب على النصارى -كما تقول يا أبا عثمان- إنما هو للملك الذي كان فيهم، والقرابة التي كانت لهم، ثم رأت عوامُّنا أن فيهم ملكا قائما، وأن فيهم عربا كثيرة، وأن بناتِ الروم ولَدْنَ لملوك الإسلام، وأن في النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين، فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفة وحكماء، ولم يروا ذلك في اليهود».

قال الجاحظ بين لقمتين:

- فكأن الدهماء ظنوا أنه إذا علا شأنُ قوم في الدنيا اقترب دينُهم من الحق. فجلعوا نظافة النصراني من نظافة دينه، وقذارة اليهودي من قذارة دينه. فاليهودي لا يكون إلا قصابا أو سباكا أو نخاسا، فظنوا قذارته وحقارته من قذارة وحقارة دينه.

نفض ماسرجويه يده من الطعام قائلا وهو يتجشأ:

- صدقت يا أبا عثمان.

قال النظام، وهو يشيح بوجهه ليتخلص من رائحة تجشؤ جليسه:

- وهاهنا شيء آخر في باب الديانات. وذلك أن الناس يَخُصون الدينَ بأخطاء وأغلاط لا يخصون بها غيره. فترى الرجلَ عاقلا حازما يزن الأمور بميزان العقل، حتى إذا دخل في باب الدين صار كأنه مجنون يهذي.

اهتز الجاحظ لفكرة النظام وأضاف:

- لله أنت يا أبا إسحاق! لذلك لن تنظر إلى قومٍ إلا وجدتَ دياناتَهم

أدنى من عقولهم. فاليونان مع عقولهم يعبدون الكواكب، والهنود مع حذقهم في الحساب يعبدون البِدَدَة، وكانت العرب مع رجاحة عقولها تعبد الأصنام.

عاد النظام وقال:

- ولهذا انصرفت هذه الطائفة المباركة من المعتزلة إلى عرض أمور الدين على العقل حتى تشكر الله على ما وهبه من قسطاس لتمييز الحق من الباطل.

تباعد الرجال عن القصعة، ودخل الغلام الصقلبي لأخذ الأواني، وعاد الغلام الهندي حاملا الصابون وكوز الماء.

كان الغلام الهندي يفرغ الماء على يدي النظام، فوقف الجاحظ واقترب من النافذة وبصق خارجها، ثم التفت إلى مويس وقال:

- لقد ابهارَّ الليلُ وحان وقت الانصراف.

قال أبو نواس بسخرية:

- لم العجلة يا أبا عثمان، لكأن جارية طيبة الدَّلِّ مَلذوذةَ الحديث تنتظرك! إنما هو كوخك الوسِخُ وكراريسك المتطايرةُ ولحافُك المغبر.

تساءل الجاحظ في نفسه هل وصل خبر عشقه لتماضر إلى أبي نواس، ثم التفت إلى النظام فكانت نظراته خالية لم يقرأ فيها شيئا. عادت إليه نفسه، وقال:

- من سمع حديثك يا أبا نواس يظن أنك مُمَكّنٌ كلَّ ليلة من ليالي هذا الشتاء من الكافات الستة.

ضحكوا جميعا، لكن مويسا ضحك ضحكة متكلفة لعدم فهمه لما يشير إليه الجاحظ. فمال بجسمه المتقارب على الجاحظ وقال:

- علمنا ما الكافات الست يا أبا عثمان!

أمسك يدَ مويس وجعل يعد له على أصابعه القصيرة:

- الكافات التي يُحارَب بها الشتاء هي: الكِنُّ والكيسُ والكافور وكأسُ الطِّلاء والكساء... أما السادسة فاسأل عنها شيخنا النظام!

التفت مويس جهة النظام، فأغضى مبتسما متمتما بهدوء مشوبا بحياء:

- شيء عجيب! شيء عجيب!

تحرك مويس في مكانه وضرب كف الجاحظ، مؤكدا له فهمه للكاف السادسة. أما النظام فكان لا يزيد على الابتسام والنظر إلى الأرض، بينما ينعكس ظل جمجمته الكبيرة على الجدار.

كان الجاحظ أول الواقفين، فقام المجلس بقيامه، وتقدم مويس إلى باب بيته يتدحرج مرددا:

- يا مغحباً يا مغحباً!

* * *

لا يكاد باب الحجرة ينفتح بعصف الرياح الجنوبية البصرية حتى تأتي زوبعة أخرى من زوابعها فتغلقه بقوة، لكن الجاحظ لا يزال يغط في نوم عميق، لقد احتاط قبل نومه لكتبه حتى لا تعبث بها الرياح. فلف عليها الوطاء، ورمى بعضها فوق بعض واضعا عليها لحافا كبيرا ووسائد، ثم نام بعد ليلة طويلة من القراءة والكتابة.

دخل النظام من باب الحائط ماشيا مسرعا وفتح الباب بقوة وهو يقول بصوت ساخر:

- ما بال العريس نائما؟ أهذه حال عريس؟

- تحرك الجاحظ فوق سريره كأنه في حلم، ثم فتح عينيه فرأى النظام واقفا عند طرف السرير ضاحكا.

جلس دفعة واحدة، متذكرا بحماس ما عليه فعله اليوم. حكّ عينيه بطرف يده وقال بتثاؤب:

- علينا الذهاب للحمام.

رجع النظام القهقرى متجها إلى اللحاف الذي يغطي الكتب. كشفه وجلس بين الكتب وقال وهو يمد يده لأحدها:

- ما كنت أظنك ستنام البارحة أصلا، وهل ينام العشاق يا أبا عثمان؟

- لم أنم! تنام عيني ولا ينام قلبي يا أبا إسحاق!

- أسرع! فعلينا الذهاب لحمام مسعود قبل نوبة النساء.

نهض الجاحظ من فوق سريره ثائر الشعر، مرتديا جبة لا يكاد لونها يعرف من تراكم الأوساخ عليها. رفع النظام عينه عن الكتاب الذي يتصفحه، وردد بصره في قامة الجاحظ فبدا له أكثر دمامة مما عهده. ثم فكر في جدوى ذهابه للحمام. لكنه دارى كل ذلك مصانعة لصديقه وأعاد نظره إلى الكتاب، فأتاه صوت صديقه متمتما:

- أصلي ركعتين، ثم ننطلق.

وضع النظام الكتاب الذي بيده جانبا، وخرج من الحجرة، ثم

تبعه الجاحظ وجعل يُحكم قفل بابه كعادته. ابتسم النظام قائلا بلهجة ساخرة:

- أحكمْ القفل يا أبا عثمان، ففي الحجرة أموال هارون الرشيد ونصف أموال بني برمك.

- دعنا من هذا.

مشيا في الفناء الواسع، ثم خرجا من باب الحائط، فالتهمهما الشارع الضاج بالحركة المؤدي إلى طرف سوق البصرة.

يقع حمام مسعود في زقاق ضيق يقود إلى سوق البقول، وتتناثر على أطراف الزقاق المبلط بالحجارة دكاكين البقالين المختلفة الغاصة بأصناف الحبوب والفواكه والخضراوات المجلوبة من قرى سواد العراق ومدن خراسان.

كان الجاحظ والنظام يسيران وسط زحام الناس، فيما تمتلئ مناخيرهما بروائح العنبر الهندي وروائح الفواكه الطازجة والمتعفنة. ظلا يسيران وسط الزحام، ثم سمع الجاحظ صوت بقال يعنف عامله قائلا:

- تعالَ يا وجعَ الضرس!

فرد عليه العامل بقوله:

- أنا قادم يا مؤخرةَ المبطون!

التفت الجاحظ إلى النظام، وهو يرفع طرف إزاره محاولا تجنب بعض القاذورات المرمية، وقال بنبرة ضاحكة:

- لا ينقضي عجبي من كون كلام الدهماء أعلق بالأذن والقلب من الكلام الفصيح.

- وكيف ذاك؟

- أنا مثلا لن أنسى عبارة هذين العاميْن ما حييت. وسأظل أذكر العبارة كما هي مهما تطاولت السنون وتقلبت الأيام. لكني لو سمعت العلاف يقول كلاما مسبوكا لما حفظته إلا بجهد، ولما بقي في ذهني إلا باحتياط وتهمّم.

سحب النظام يده من يد صديقه وهو يقول:

- لعل السبب أن الفصاحة في حقنا تكلف، أما اللحن فيأتينا عفوا، وذلك لملابستنا الدهماء والسِّفْلة، في هذا العالم المُولَّد.

كان الزقاق مليئا بالحركة، فأجساد البشر والحيوانات تتدافع، بينما تختلط أصوات البقالين المنادين على بضائعهم مع قرع الحوافر على الطريق المبلط. ومع أن النهار لما يرتفع، فإن روائح الروث والغبار وعرق الأجساد تكاد تزكم الأنوف.

اقتربا من الباب الخشبي الكبير، فتراءى لهما مسعود، واقفا على باب حمامه ومعه غلمانه.

دخل الجاحظ أولا، فلما رآه مسعود التفت إلى أحد الغلمان وقال له:

- لا تسمح لذلك المتسول بالدخول.

دوت ضحكة النظام، بينما كان الجاحظ غير منتبه، غارقا في التفكير فيما ينتظره.

التفت النظام إلى صاحب الحمام وقال له:

- لقد جنيت على صاحبي! إنه عريس وليس سائلا.

ابتسم الرجل الأصلع الممتلئ، واعتذر قائلا:

- لقد هجم علينا أمس جماعة من متسولي السوق، فصرت لا أرى أحدا إلا تذكرتهم.

كان الحمام واسع المدخل كثير الحُجَر. دخل الجاحظ والنظام، وتبعهما أربعة غلمان.

- أبا إسحاق، هل سبق أحد من خلفاء المسلمين إلى ما فعله الرشيد من بيعة لابنيْه -الأمين والمأمون- في جوف الكعبة قبل أعوام؟

قالها الجاحظ، وهو يتأوه من برودة الماء الذي أفرغه عليه عامل زنجي بقوة.

كان النظام مستلقيا على مغسلة عن يمين صديقه وقد بدأ غلام آخر يغطي جسمه بالصابون. فقال وهو يمسح الصابون عن شفته:

- لا أذكر أن أحدا فعلها قبله.

- مع إصرار الرشيد -رحمه الله- على أخذ العهود منهما داخل الكعبة، وتعليق الاتفاق في جوف الكعبة على أن البيعة للأمين ثم للمأمون من بعده، لم يعصمهما ذلك من النزاع على الأمر عندما جد الجد.

- إي والله. وما جديد خبرهما؟

- سمعت أن جيوش المأمون دخلت الأهواز، وما هي إلا أيام حتى تقتحم البصرة.

- هل سيظل المنصور بن المهدي -أمير البصرة- على وقوفه مع الأمين مع أن أمره يتناقص كل يوم؟

- سمعت أنه أمر بتحصين المدينة استعدادا لأي طارئ أو اقتحام من جيوش المأمون؟

ارتخت يد العامل الزنجي عن الفرك وصب الماء، وهو يستمع بانتباه لما يدور بين الرجلين، فانتهره النظام:

- وما لك أنت في هلاك عمرو ونجاحِ بَكر؟ صبّ وافركْ يا هذا!

ضحك العامل وقال بلكنة ما زال صاحبها يعاني من نطق بعض الحروف العربية:

- والله ما أعرف أيش! لكن أنا أحب حديسكم.

ضحك الجاحظ وقال بتفاصح حتى لا يفهم العامل شيئا:

- وفيكم سمّاعون لهم... سمعت أن القوم غرزوا في كل سرادقٍ أُذُناً، وتَخِذوا من كل سوقٍ مقُدَّمَ شُرَط.

كان النظام نصف جالس، رافعا ذراعه إلى الأعلى فيما ينهمك الغلام في فرك إبطه. فقال بصوت متقطع:

- شيء عجيب.

مد كلمة عجيب فجاءت متقطعة بسبب الفرك الشديد. ثم واصل حديثه وعيناه نصف مغمضتين، وعلى أطرافهما رذاذ صابون متناثر:

- لا عليك يا أبا عثمان، وماذا يعنيني أنا وأنت؟ نحن أصحاب ورق وحبر وكلام، لا أحْلاس خيول وأرباب سيوف وكتبة دواوين. فإذا دخل الأمين البصرة أو دخلها المأمون فكلاهما من هذه الشجرة العباسية الزكية، وما نحن بمُضارّين في الحالين.

اجتهد الغلام الزنجي حتى قلب الجاحظ على ظهره، وأفرغ خليطا

من الصابون المعقود بين كتفيْه، حتى غطت الرغوة أعضاءه الدقيقة ولم يبق إلا رأسه الصغير مُسنَدا على طرف المغسلة. فرفع رأسه -حتى بدا كفرخ في عشه- وهو يقول:

- وما الفرق بين ما ذكرتَ بكبير، يا أبا إسحاق.

كان النظام يفكر في هواية صاحبه في الربط بين المتناقضات والكشف عن العلاقات بين ما يبدو متباعدا. وقبل أن يستفسر منه اندفع الجاحظ وهو يحك طرف رأسه الأنزع قائلا:

- فأصحاب الخيول والنبال والسيوف لا يطيب لهم عيش ولا يقر لهم قرار إلا بمعاونة أرباب الورق والمحابر والأقلام، فنحن نندرج في جماعة الخاصة وننتظم في سلك العِلية، وإن قعدت بنا الحرفة، وجفانا الدهر، وسكنّا حيث تعلم!

- لعله كذلك. وأصحاب الأقلام كثيرا ما يكونون مقدمة للجيوش.

قاطع الغلام الزنجي النظام:

- تعالوا إلى تلك الحجرة... والله وسخ كسير كسير!

غمز الجاحظ النظام بعينه اليمنى قائلا:

- لقد هجانا الزنجي!

- لا تنس أنهم حسبوك سائلا يا أبا عثمان، ولم يعرفوا حدَّ ما بين العريس والسائل!

مشيا بتؤدة، مؤتزريْن بأُزُرٍ بيض ليجلسا في حجرة التنشيف. وكانت ابتسامة تماضر ماثلة في ذهن الجاحظ عندما رآها آخر مرة وهما يخرجان من السوق.

جلس الجاحظ على طرف مِصْطبة مربعة وسط الحجرة، وجلس النظام على طرفها الآخر. ثم أدخل الجاحظ يده في مِخلاة ليُخرج الملابس التي يدخرها لمقابلة تماضر، بينما كان النظام جالسا على طرف المصطبة يتأمل صديقه.

كان النظام ينظر إلى صديقه مفكرا هل سينجح في الظفر بقلب تماضر أم لا. فكّر في ظرفه وعقله وعلمه وطيب معشره، فما الذي يمنعه من سحر تلك الفتاة الغريرة إذا ما استخرج لها ما شاء من أسلحة الغواية التي ما ينفك يستخرجها، وقادها بألاعيب الحديث وجودة الخاطر وطيب اللفظ وحسن المخارج والمداخل؟

وقف الجاحظ في زاوية من زوايا الحمام المعتمة، وأخرج ملابسه من مخلاة مغبرة. لبس قميصا أخضر مزركش الصدر، وإزارا سنديا ملونا، ووضع فوق ذلك كله دُراعة رمادية. ثم وضع قلنسوته وعمامته السوداء.

ثم درج إلى مرآة معلقة في طرف الغرفة مما يلي شعاع الشمس ونظر إلى نفسه. وقف أمام المرآة لكنه لم ير نفسه، بل رآها. رأى تماضر بنت الخليل وهي ترتدي ملاءة مزركشة، وذوائبها السود منسدلة على كتفيها، وهي تبتسم مرحبة به.

صُدم وهو ينظر في المرآة مرة أخرى مفكرا في أنها أحيانا أدق بكثير مما يظنه الناس. وإلا لمَ لمْ ير وجهه في المرآة الآن وإنما رأى وجه تماضر؟ هل يعني هذا أن المرآة تتغلغل إلى أعماق النفوس البشرية فتعكس ما فيها؟ تعرف ما في دواخلنا؟ أم إنه خداع العين، فالمرآة تعكس ما ترى غير أن العين الإنسانية لا ترى إلا ما تريد رؤيته حتى ولو شخص

أمامها غيره؟

ترك المرآة وراءه وقال للنظام:

- كيف ترى العريس الآن؟

- والله إنه البدر قد أطلّ! وما أرى عواتقَ هذه المدينة إلا على خطر عظيم!

- يقولون إن المؤمن مرآة أخيه، ولَتلك المرآةُ المعلقة في حمام مسعود أمسّ رحماً بي منك وأصدق!

تقدم الجاحظ ليدفع أجرة الحمّام، وعاد النظام إلى زاوية الحجرة ليرتدي ملابسه.

وبعد ساعة، كان الجاحظ يسير في الشارع المؤدي إلى بيت تماضر، والعطر يتضوّع من ملابسه. لكنه لم يشعر إلا وهو يهوي في بركة آسنة من مياه الحُشوش. خرج بصعوبة عائدا إلى بيته كسيفا تعيسا كأنه لم يدخل حماما قط.

* * *

الدوحة، 1439هـ

كان الوقت قبل نشرة المساء الرئيسية، فبدت غرفة الأخبار ضاجة بالحركة، فالكل مندمج في إنجاز الجزء الموّكل به في النشرة. يركض صحفي قصير القامة إلى غرفة المونتاج لتسجيل تقريره، ويركض منتج أخبار فارع الطول للإشراف على مَنْتَجَةِ العناوين. فعناوين هذه النشرة من أكثر العناوين التي يمنحها منتجو النشرات وقتا كي يضبطوها، متأكدين من وضوح عباراتها وإشراق كلماتها.

كان القروي جالسا بمكتبه في طرف الغرفة، فرأى رئيس التحرير يخرج من مكتبه قصيرا كأنه طفل وهو يقول:

- من هذا الحمار الذي على الشاشة!

التفت الجميع فرأوا مراسلا مُطلا من مكان فيه حريق، لكنه يرتدي بدلة بيضاء أنيقة ويتحدث عن الحريق.

مشى رئيس التحرير كأنه يقفز، واقترب من قسم المراسلين وقال:

- إذا أنهى حديثه فأعطنيه أكلمْه هاتفيا.

بعد ثوان، مد الشاب الجالس بقسم المراسلين الهاتف إلى رئيس التحرير:

- السلام عليكم، رئيس التحرير معك.

- أهلا ومرحبا

- يا أخي بالله كيف تطل من مكان حريق وأنت ملتحفٌ بدلةً بيضاء كأنك في مهرجان كانْ للأفلام السينمائية؟

- والله، أنا كنت، شوف...

- والله أيش؟ هذا لا ينبغي، وهو يجرح عينَ المشاهد. وإذا كان العرب قديما قالوا: إن البلاغة مطابقةُ المقال لمقتضى الحال، فإن الأمر كذلك في البلاغة البصرية. هناك بلاغة بصرية وبلاغة لسانية.

ثم ودع المراسلَ ورمى الهاتف، وصاح بأعلى صوته وهو يقف وسط غرفة الأخبار:

- ناس ما بتفهمْ!

كان القروي يستمع بكل حواسه لرئيس التحرير، يكاد يطير سعادة بتصرفه خلافا لكل من في غرفة الأخبار. فمعظم الصحفيين يضيقون بجبروت رئيس التحرير، واهتمامه بالتفاصيل، وحرصه على اللغة العربية، وما يسميه الفصاحة البصرية.

مال القروي على كرسيه، وهو يشعر بسعادة غامرة. انتزع نفسه من عالم الجاحظ إلى عالم رئيس التحرير، شاعرا بغبطة.

ثم وقف وتوجه إلى صديقه مازن بقسم المقابلات فرآه منهمكا في الاتصالات.

- أيمكننا أن نشرب شايا في المقهى؟

- هلا حبيبي محمد، لا أنا مشغول كثيرا. نحتسيه بعد نهاية النشرة.

عاد القروي ماشيا وسط غرفة الأخبار، ملتفتا يمنة ويسرة متأملا الهلع المستولي على الجميع عداه.

تخيل نفسه كالنبي إبراهيم يمشي وسط النار، لكن لهبها لا يمسه. كل هؤلاء يركضون ويلهثون عند كل نشرة، أما هو فيعيش ما بين البصرة وبغداد قبل أكثر من ألف ومائتي عام، يكتبون كلاما بلاستيكيا ميتا، مترجما أنتجته عقول محرري رويترز وغيرها من وكالات الأنباء الغربية. أما هو فيكتب بلغة الجاحظ والنظام والعلاف... كما شاء.

جلس على مكتبه، ثم أدار شاشة التلفزة المثبتة في طرف حاسوبه ليشاهد النشرة. جلس يتابع تقريرا لأحد المراسلين من شبه القارة الهندية.

كان التقرير ضعيفا ومهلهلا. فالصور تتقافز دون رابط منطقي. والنص المكتوب لا علاقة بينه وبين تلك الصور. فكّر في الوقوف وتقليد رئيس التحرير. تخيل نفسه واقفا وسط غرفة الأخبار، ممسكا بالهاتف متصلا بالمراسل:

- أيش هذا؟ ما هذا التقرير؟إن اللغة مهلهلةٌ ومنسوجةٌ بالأخطاء، ولا رحِمَ بين الصور والنص. هل كتبتَ النص قبل أن ترى الصور؟ إن الصور والنص لا بد أن يأخذ بعضهما برقاب بعض... تماما كما قال الجاحظ عن الألفاظ والمعاني!

ثم تذكر وجه حصة قبل أسابيع تسخر منه قائلة:

- أنتَ تعيش داخل قوقعة لغوية!

وكيف رد عليها:

- وأنت تعيشين في شراك عنكبوتي ومصابةٌ بوسواس إلكتروني.

وكيف سخرت من كتبه التي يقرأ، ومن أبطاله الذين ماتوا قبل مئات السنين. ابتسم وهو يتذكر كيف رد عليها ساخرا:

- إذا كان السلف الصالح عندي هم الجاحظ والنظام وعمرو بن عبيد، فسلفك أنت: إدوارد سنودن وجوليان أسانج.

وتذكر كيف ضحكت، وأخرجت من شنطتها كتابا بعنوان: «The Dark Net: Inside the Digital Underworld».

انقطع حبل الذكرى إذْ سمع إشعارا برسالة نصية في هاتفه.

كانت رسالة من حصة تقول: «كلمتُ أهلي.... الأمر معقد جدا، ولا بد من اللقيا لنتحدث.. ضروري».

* * *

انتبه الجاحظ إلى أنه تجاوز سوقَ الرآسين. كيف تجاوز كل تلك الأزقة دون أن يلاحظ ذلك؟ انصرف ذهنه متأملا في أن حالة القلوب هي التي تطيل المسافات أو تقصّرها حسب حالة الإنسان. ففي لحظات انتظار ما يحبه الإنسان ويتعجل الحصول عليه، تبدو الساعات كأنها ساعات سجين مقيد يمشي وئيدا، وفي لحظات الهناء يطير الوقت كأنه حصان عربي جموح.

ثم طفِقَ يفكر في العلاقة بين العقل والقلب، إذا كان العقل بالمكانة التي يضعه فيها المتكلمون فلماذا يغيب أحيانا في لحظات تكاثف المشاعر؟

وإذا كانت المشاعر والعقل أخص خصائص الإنسان، فلماذا تطرد المشاعرُ العقلَ؟ لمَ يغيب العقل إذا حضر الشعور القوي؟

هل يختفي سلطان العقل كلما ارفضَّ الإنسانُ عرقاً شوقا إلى محبوب؟ ثم لماذا يتعرق الجسد إذا تسارعت دقات القلب، أو انشغل بأمر، ولا يتعرق الجسم مهما فكر الإنسان بعقله وأعمله في القضايا الكبرى؟

شغلته الأسئلة التي هجمت عليه عن الحذر من بِرَك الحُشوش التي في أطراف الشارع، ثم وجد نفسه عند باب تماضر.

دق الباب، ثم ابتعد عنه قليلا، وهو يشد عليه جبته ويعدل عمامته السوداء ويُمر يديه على جفنيه، وشفتيه.

فتح غلام الباب قائلا:

- من؟

- الجاحظ.

صك الغلام الباب بقوة، فقفز قلبه من مكانه. تأفّف وهو يُراوح بين رجليه قائلا في نفسه: ما هذه العجرفة! ليت الصكةَ كانت بين كتفيك أيها الغلام الأخرق!

ظل واقفا يراقب الشارع الخالي إلا من مُكارٍ يضرب برذونا بطيئا، وصبية يتراكضون ويترامون بالحجارة.

سمع الغلامَ يقول لأهل المنزل: الجاحدْ يستأذنْ.

دق الجاحظ الباب وقال بانزعاج:

- ويحك، قل لهم الحَدَقي، إذا كنت عاجزا عن نطق الظاء، أعوذ بالله من الجحود!

وسمع الجاحظُ الغلامَ من وراء الباب ينادي:

- الحَلَقي يستأذن!

صاح الجاحظ:

- ردني إلى الجحود، أخذَكَ الله!

ثم أمسك نفسه عن أن يصيح:

- الحلقيُّ وأنا آتٍ للخبطة؟ تجلعلني حَلَقيا مخنثا؟!

بعد هنيهات من التوتر عاد الغلام وفتح الباب بوجه مُرْبَدٍّ مشيرا له بالدخول.

دخل فناءً واسعا، ودلف الغلام أمامه، ثم تبعه وهو لا يكاد يبصر أين يضع قدمه، فالمنزل معتمٌ، ولا يكاد يُرى ما بداخله.

قاده الغلام إلى حجرة وتركه.

اعتدل في جلسته، وجعل يصور لنفسه لحظة دخول تماضر عليه، ثم فكر في أسلحة الغواية التي يملكها من حديث أخاذ، ونكتة شاردة.

لكن انتظاره لم يطل، فرأى خيالا قادما من دهليز البيت.

ثم دخلت.

رفع بصره -وقد بدأت عيناه تريان الأشياء بشكل أوضح داخل البيت- فإذا بوالدة تماضر.

- مرحبا بكم.

- يا أهلا وسهلا

جلست أم تماضر في طرف الحجرة. ثم دخل غلام يحمل صينية عليها ماء وفواكه.

أشارت الأم له بتناول شيء، فمد يده وأخذ كوزا من الماء وعب منه عبتين، فقد أنساه التوتر ظمأ خفيفا أحس به قبل الدخول.

بدأت الأم تتحدث وهي تنظر إلى الأرض:

- والله لقد انتظرناك يا أبا عثمان، لكننا حسبناك ضربت صفحا عن الأمر.

انغرزت كلمات الأم سهما مسموما في قلبه، وفقد فجأة كل قدرة على الكلام، لم ينبس ببنت شفة.

رفعت أم تماضر بصرها -على استحياء- كأنها تستحثه للحديث، فرأت عينيه الواسعتين وقد سكنتا، أما رأسه الدقيق المدفون تحت عمامته السوداء فكان ساكنا أيضا لا يتحرك.

مرت ثوانٍ ثقيلة صامتة.

واستعاد قوته، وهو يشعر بخَدَرٍ في أطرافه وقال بصوت بذل طاقته كيْ لا تُسمع فيه رعدة:

- كيف يا أم تماضر؟

- والله لقد انتظرتك تماضر لتراك وتتحدث معك، فهي كما تعرف لم ترك من قبل...

هنا كاد الجاحظ يصرخ: كيف لم ترني وقد التقينا وماشيتها من سوق العطارين إلى باب منزلكم!

لكنه تحكم في مشاعره وقال بصوت مشحون بالعجز والفضول:

- ثم ماذا؟

- كان أحد الخُطّاب قد طلبها وألح في طلبها، وأنت تعرف ضعف الفتيات الغريرات أمام الكلمة الجميلة يا أبا عثمان.

شعر بأن كل كلمة تفوه بها الأم تزيد آلامه وحسراته، فإذا كان ما

تريده تماضر الكلمةَ الغزلية الجميلة ومطارحة الغرام فمن يحسن ذلك غيره!

مد يده إلى الوراء قليلا زاحفا جهة الجدار ليستند إليه، ثم جاءه صوتها:

- لقد وافقت الفتاة على الزواج من علي بن المديني.

كل ما يذكره بعد ذلك أن خياله ازدحم بصورة فتىً في سوق الوراقين ينهى عن النظر إلى فتاة تمشي في طرف السوق، وأن رجلا أبيض مُشرَبا بحمرة زحمه في الصلاة على جنازة الخليل بن أحمد. كما يتذكر صوت أم تماضر وهي تقول له:

- هوّن عليك يا أبا عثمان، فأنت زين فتيان البصرة.

وجد نفسه مستلقيا في مسجد صغير بأحد أحياء البصرة غير بعيد من السوق الكبير، كان في زاوية المسجد، ولا يكاد ينزع عينيه عن السقف المصنوع من جريد النخل والقش والطين، مفكرا هل يخرج من المسجد أم لا؟ فإلى أين يذهب وما قيمة ما هو ذاهب إليه؟

هل يذهب إلى بيته البائس المليء بالكتب والكراريس والأقلام والأوساخ؟ وجاره العاميِّ ذي البراذين والحمير؟ أم يظل هنا؟ أم يخرج من البصرة كلها هائما؟ ظل مضطجعا دون أن يشعر بحاجة إلى طعام أو شراب، حتى جاء المؤذن ورفع الأذان وبدأ الناس يتكاثرون في المسجد الضيق.

جلس متثاقلا. ثم رأى أحد المصلين لا يكاد يرفع بصره عنه، فتذكر أن كثيرا من الطلاب يعرفونه، ولا يليق به أن يظل مستلقيا في مسجد كالمجنون.

وقف متثاقلا وخرج من باب المسجد الصغير ليتوضأ. جلس مستقبلا القبلة وهو يسكب الماء على أعضائه مكررا بلسان متثاقل:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وقف المؤذن وأقام الصلاة، لكنه هو لم يتعجل، بل ظل يستلذ الوضوء ساكبا الماء على أعضائه؛ إذْ خُيل إليه أن الماء يطفئ حرارة ما به.بعد انتهائه من غسل رجله اليسرى، رفع بصره جهة باب المسجد فرأى الناس ما زالوا يصلون.

لم يشعر بأي رغبة في إدراك الصلاة معهم، فما قيمة صلاة الإنسان إذا كان مشغول القلب مُلْتاع الفؤاد؟ وإذا كان المؤمن منهياً عن الصلاة في حالة انشغال ذهنه بجوعٍ أو حاجة إلى خلاءٍ، أفلا يكون العذر أبلغ في انشغال القلب بما هو أهم وأطم.

ثم خطر له أن العاشق الولهان قد لا يكون مخاطبا بالصلاة أصلا ما دام مُدَلَّهاً عشقاً. وتذكر كيف حدثه شيخه عبد الوهاب بحديث: «لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافعه الأخبثان». فالأصل الذي عليه مناط الحكم انشغال القلب وعزوبه، وانشغال القلب بخواطر الحب، وتردد خطراته ما بين وصل وهجر، وأملٍ ويأس، وصعود وهبوط أشد من أي انشغال بأمر آخر.

ظل جالسا حتى انقضتْ الصلاة وانصرف الناس من المسجد.

وقف بتثاقل ودخل المسجد. وما كاد يرفع يديه حذو أذنيه ليكبّر حتى ظهرتْ أمامه، كانت تلبس مِرْطاً من القطن، ويداها مخضوبتان بحناء قانئة، ذكّرتْه بالكف الخضيب الذي رآه منها أول مرة، وغارت صورتها فظهر علي بن المديني بقامته المعتدلة وعمامته البيضاء وألفاظه الفخمة.

استعاذ بالله وبدأ يصلي.

وانتبه إلى أنه أطال السجود على حصباء المسجد غير المفروش، وأن ريح الجنوب الحارة تَصِرّ في أذنه آتية من النافذة. مر وقت، لكنه لا يذكر كم ركعة صلى، ولا بم قرأ في صلاته. أكمل ركعة ثم سلم.

شعر بأنه بدأ يستعيد بعض عافيته، فأقبل على نفسه موبخا لها، أين العقل والكلام والخواطر الشاردة؟ وما أدراني أن الله ادخر لي أفضل وأحسن وأعلق بالقلب من تلك الفتاة الغريرة؟

ما إن نطق كلمة الفتاة حتى أحس بقفزة بين ضلوعه، لكنه لاحظ أن عقله يفكر في عشرات الحجج المقنعة بأنها لا تصلح له ولا يصلح لها، وأنها لا تستحق كل هذا الحب. تنفس الصعداء وهو يتأمل المساحة الممتدة الواسعة الفاصلة بين رأسه وقلبه.

أيعقل أن تكون المسافة الفاصلة ما بين العقل والقلب بهذا الاتساع؟

فقلبه لا يكاد يذكر تلك الفتاة إلا اضطرب، أما عقله فقد بدأ يرى عيوب الزواج منها.

ثم تساءل لمن تكون الغلبة في النهاية: للعقل الذي يضرب ويطرح ويحسب العواقب بتبصر، أم للقلب الذي يحس ويشعر ويستشرف ويبصر ويضطرب ويرقص ويتكدر؟

وقف من مكانه مؤنبا نفسه على أنه لم يستطع إحصاء عدد ركعاته، ثم وجد ابتسامة تتسلل خُفيةً إلى شفتيه وهو يُتمتم بأبيات سمعها من خَلَفِ الأحمر ينسبها لعروة بن حزام:

أُصـلّي فـما أدري إذا مـا ذكرتُها

بخمسٍ قضيتُ العصرَ أمْ بثمان!

خرج من باب المسجد الصغير ليسلم قدميه إلى الشارع وهو يوبخ نفسه: هل نهاية مزاحمة العلماء بالركب، ودراسة علم الكلام والمنطق، وتصفح العلوم ومفاتشة الأذكياء، أن يصبح المرء كمجنون بني عامر وعروة بن حزام؟

أسرع في الشارع عائدا إلى بيته، وهو يتأمل الغبار المتصاعد في الشارع الذي تثيره الحوافر والأقدام السائرة فيه.

وخطرت له-بغتةً-خاطرة: لعل أهل تماضر سألوا عن نسبه، ولعلّ بعض الحسادقالوا لهم-زوارا- ما يقوله أهل المربد من أنه مولىً لبني كنانة، لا صليبة فيهم؟!

***

مرت أيام ثلاثة لم ير فيها أحدا من أصدقائه، والأدهى أنه لم يقرأ فيها كتابا واحدا. فقد تعمّد خلالها أن يقضي نهاره بمسجد مهجور، وألا يأتي حجرته إلا وقت النوم، لكنه الآن أصبح واثقا من أن عقله انتصر على قلبه، بل إنه عاهد نفسه أن يظل عقله قائدا لقلبه ما تبقى من حياته.

ومع يقينه الظاهر بأنه نجح في ذلك، إلا أنه رأى أن يزور أصدقاءَه المسجديين. ثم سأل نفسه، لم اختار زيارة المسجديين -وهم جماعة من ظراف البخلاء يجتمعون بمسجدهم لمدارسة وسائل الاقتصاد في النفقة- مع أنه لم يزرهم منذ أشهر، فهل جاء خاطر الذهاب إليهم لأن النفس موقنة بأنها لم تسلُ بعد، وأن قلبه ما زال يقود عقله؟ وإنما هي

نفسه تبحث عما تستجم به لتتغافل عن الأحزان ثم تعود؟

تزاحمت تلك الأسئلة في ذهنه وهو يخرج من بيته، لكن نهيق حمار ومطاردةَ بغلٍ لآخر أفزعتاه، فانشغل عن أسئلته بالانزعاج من سكنه قرب هذا المكاري الأهوج، وعادت الأسئلة تطارده.

وصل إلى شارع ضيق كأنه منحدر، فالتفت يمينا فرأى بابا مواربا، فتذكر كيف كان هو والنظام يلومان أبا نواس على دوام الإتيان إلى هذه الحانة للشراب، ثم خطر له أن يعرج فيعب من الصهباء علّها تذهب بعض ما به، ثم تذكر أن الوقت بعد العصر بقليل، وأن الحانة لا تفتح إلا بعد المغيب.

توقف عن السير منزعجا مؤنبا نفسه، إذ كيف تخطر له هذه الخواطر أصلا؟

فهل وصل به الأمر أن يفكر في معاطاة الخمر المحرمة فرارا من خيال فتاة غريرة؟

مشى بتثاقل حتى تراءى له المسجد الذي يجلس فيه أصحابه من المسجديين.

قدم رجله اليمنى ودخل.

كانوا متحلقين قرب المحراب، وفيهم الجالس والمتكئ والمستلقي، وكانوا نحو العشرة ما بين شباب وكهول.

ما إن لمحوا الجاحظَ داخلا من الباب حتى وقفوا لاستقباله، ثم بادره كهلٌ منهم -ذو شعر أصهب قائلا:

- أين أنت يا أبا عثمان، وما هذا الهجران؟

- أشغالٌ وترحالٌ، أيها الأصحاب.

قالها الجاحظ وهو يهم بالجلوس في طرف الحلقة التي يتوسطها شيخٌ يرتدي جبة صوف لا يَكاد لونها يُتبيّن من تراكم الأوساخ عليها، جلس الجاحظ وسط الحلقة، ونزع عمامته ليضعها تحت فخذه اليمنى قائلا بابتسام:

- إيه!؟ ماذا كنتم فيه؟

تربّع الشيخ الأصهب -وهو يروّح بثوبه عن أنفه حتى لا تخنقه رائحة دخان القمامة المحروقة قرب المسجد- وقال بنبرة مختنقة:

- كنا في سيرة الأفاضل الصلحاء ممن سلف.

ورأى الجاحظُ ابتسامته وهو يضمر سعادة بأنه جاء في وقت طاب فيه المجلس واطمأن، فأراد استزادة الشيخ فقال مستثيرا له:

- جئتكم اليوم لتخففوا عني. فقد شقيتُ بأصحاب زهدوني في هذا الطريق، لذا فكرت في من أتحدث إليه لعله يُثبّتني فلم أتذكر في هذه المدينة العامرة إلا هذه العصبة المعصومة والجماعة المباركة.

مدّ رجلٌ متّزرٌ عاري الصدر يدَه ولكز الجاحظ:

- والله إنك يا أبا عثمان لا تريد إلا مصانعتنا ومقاربتنا، ونحن نعلم أنك لست من أهل هذا الفن، فأنت مسرف مبذّر، وما تأتينا إلا لتحكي أمورنا على أصحابك وتكتبها في صحائفك.

فنهره الشيخ الأصهب:

- دعه يا عبد الله، فهو مع من أحب، ونحن القوم لا يشقى بنا جليس.

فواصل الجاحظ حديثه متصنعا الجد -وهو يشعر بسعادة غامرة، شاعرا أن الحديث انتزعه انتزاعا مما كان فيه- فقال:

- أنتم والله أصحابي الذين تنتحلون الاقتصاد في النفقة، والتثمير للمال، وقد أضحى هذا المذهب نادرا، وهو كالنسب الذي يجمع بيننا على التحابّ، وكالحلف الذي يجمع على التناصر، وأنا صاحب صاحبكم سهل بن هارون.

فقاطعه الرجل العاري الصدر وقال:

- ما آخر ما سمعتم يا أحبتنا مما يُثبّت على الطريق؟

ما كاد الرجل ينهي سؤاله، حتى اندفع شيخ آدَمُ البشرةِ أشعث الرأس، يرتدي كساء مُخرّقَ الأسفل:

- لقد علمتم أن ماء بئرنا مالح أجاج، لا يقربه حمار، ولا تُسيغه ناقة، ولا يصلح به زرع، والنهرُ منا بعيد، وفي تكلّف الماء العذب علينا مؤونة كبيرة.

فقاطعه الشيخ الأصهب هازا رأسه وقال:

- نعلم ذلك يا أبا رقية، فما الذي فُتح لك؟

فعدّل أبو رقية جلسته وهو يبرم خُصْلةً من رأسه بأصابعه:

- فكنّا نسقي الحمارَ من ماء بئرنا فمرض، فصرنا نسقيه الماءَ العذب صِرفاً، وكنت أنا وأمّ رقية نغتسل بالماء العذب مخافة أن يصيب جلودَنا منه مثل ما أصاب جوف الحمار، وكان ذلك الماء العذب الصافي الذي نغتسل به يذهب باطلا، وأنا أعلم أن ذلك الغسل عبادة، وحاشا للعبادة أن تؤدي إلى إسراف، فسهرتُ ليلةً أفكر

حتى انفتح لي باب من الإصلاح.

فصاح الشيخ الأصهب صيحة استرواح وطرب:

آآآآآح يا قلبي! وماذا فُتح لك يا أبا رقية؟

فضحك الجاحظ نازعا عمامته من تحت رجله وجعل يفركها بيديه طربا، ثم خاف إن تحدث أو سأل أن يقطع ذلك الحديث، فحبس ضحكه وجعل ينظر إلى أبي رقية بتلهف، وواصل أبو رقية حديثه مُقَطّبَ الوجه:

- فعمدتُ إلى ذلك المتوضأ الذي أغتسل فيه أنا وأم رقية، فجعلت في ناحية منه حفرة، وصهْرجْتُها، وملّستُها حتى صارت كأنها صخرة منقورة، وصوّبت إليها المسيل. فنحن الآن إذا اغتسلنا بالماء العذب صار إليها صافيا، لم يخالطه شيء، فنستخدم ذلك الماء لسقي الحمار، والحمار لا تقزّز له من ماء الجنابة، وليس علينا حرج في سقيه منه.

فمد الجاحظ يده مستفسرا:

- وما يدريك أن هذا يجوز؟ ولمَ تسقي ذلك المخلوق بماء الجنابة؟

فالتفت أبو رقية غاضبا:

- ومتى صار الحمار يميز بين ماء الجنابة وماء زمزم؟

- وما أدراك أن الحمير لا تتأذى من ذلك الماء وأنها لم تشربه إلا ترخّصاً مخافة الهلاك من شدة العطش، كما يترخص أحدُنا في أكل الجيفة ولحم الخنزير؟

فقال أبو رقية بصوت منكر:

- أووووووه، ماذا؟ وهل يحس الحمار أصلا بشعور أو يميز؟

عدل الجاحظ جلسته، فبدل التربع ثنى ركبتيه وجلس على ساقيه كما يجلس الناس في حلقات العلم. ثم تصنع الوقار والجد وقال:

- ومن قال إن الحمير لا تحس ولا تعشق ولا تتعبد؟ ففي القرآن: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾. ثم ألم تسمع بقصة حمار بشار بن برد الذي قتله الحب؟

كان الشيخ الأصهب يستمع بهدوء لا يخلو من تصنع، فقال حاثّا الجاحظَ، وهو يعرف أنه قد أوقع أبا رقية في ما يريد:

- وما قصة حمار بشار؟ أيدك الله!

واصل الجاحظ حديثه واضعا يديه على ركبتيه، مُتصنّعاً الوقار:

- قصته دليل على أن الحمير لا تشعر فقط، بل تعشق وتقرض الشعر كذلك، فقد حدثني سهل بن هارون، قال أخبرني أبو شبل عاصم بن وهب البرجمي، قال حدثني محمد بن الحجاج قال: جاءنا بشار يوما فقلنا له مالك مغتماً يا أبا معاذ؟ فقال مات حماري فرأيته في النوم فقلت له لم متّ، ألم أكن أحسن إليك فقال: لقد قتلني عشق أتانٍ -والأتانُ أنثى الحمير- وقد قلت في ذلك شعرا.

سيدي خذْ بي أَتَاناً	عند باب الأصبهاني
تيمتني ببنانٍ	وبِدَلٍّ قد شجاني
تيّمتْني يومَ رُحنا	بثناياها الحسانِ
وبغُنْجٍ ودَلالٍ	سلَّ جسمي وبَراني!
ولها خَدٌّ أَسِيلٌ	مثل خدّ الشيْفرانِ!

ضجّ المسجديون ضحكا. فقال أبو رقية:

- والله ما علمت أن كتابا حرّم ما فعلتُه بذلك الحمار، ولا أن سنّة نهت عنه، وقد أسقطنا بتلك الحيلة مؤونة كبيرة عن النفس والمال.

فضج القوم قائلين بإعجاب:

- هذا والله توفيق الله ومنّه.

شعر الجاحظ بخفة وسعادة وهو لا يكاد يتنفس ضحكا، وجعل يفكر كيف حرم نفسه من مجالسة المسجديين أشهرا، ثم كيف جلس الأيام الماضية محزونا ولم يدر بباله المرور عليهم.

فأقبل عليهم الشيخ ذو الصدر العاري وقال بنبرة محزونة، مُنكّساً رأسَه:

- هل شعرتم بموت المرأة الصالحة مريم الصنّاع؟ فإنها كانت من ذوات الاقتصاد، وصاحبة إصلاح عظيم ومن أعلام هذا الطريق؟

فحثه الجاحظ، مغضّنا ما بين عينيه كالمستفسر وقال:

- لا نعرفها والله، فهلا حدثتنا عنها؟

- مناقبها كثيرة وحديثها طويل، ولكني أخبركم عن واحدة فيها كفاية.

تقارب القوم، وشخصوا بأبصارهم، لعلمهم أن ذا الصدر العاري إذا تحدث أتى بالأوابد، فقال:

- «رحمها الله! لقد زوّجت بنيةً لها فحلّتها الذهب والفضّة، وكسْتها

الذهبَ والوشي والقز والخز ودقت لها الطيب، وعظّمت أمرَها في عين الختَنِ، ورفعت من قدرها عند الأحماء، فقال لها زوجها: أنّى لك هذا يا مريم؟ قالت: هو من عند الله. فقال لها: دعيني عنك، وهاتي التفسير، فوالله ما كنت ذات مال قديما، ولا ورثتِه حديثا، وما أنت بخائنة في نفسك، ولا في مال بعلك، إلا أن تكوني قد وقعت على كنز، فقد أسقطت عني مؤونة عظيمة، وكفيتني نائبة داهية».

فقاطعه أبو رقية قائلا بنبرة إعجاب وتحسر مع نفَس مرتفع:

- لا والله ما كانت صاحبة خيانة ولا تبذير!

واصل ذو الصدر العاري حديثه:

- قالت: «اعلم أني منذ يوم ولدتها إلى أن زوّجتُها، كنت أرفع من دقيق كل عَجنةٍ حفنةً؛وكنّا -كما تعلم- نخبز في كل يوم مرّة، فإذا اجتمع من ذلك مكّوكٌبعتُه. فقال لها زوجها: ثبّت الله رأيك وأرشدك، فقد أسعد الله من كنتِ له سكنا، وبارك لمن جُعلتِ له إلفا».

انتفض شيخ يكنيه المسجديون «الإباضي» وحل حبوته طربا وقال:

- والله إني لأرجو أن يُخرج الله من ولد هذه المرأة من يُحيي هذا الطريق بعد أن عمّ الإسراف وانتشر الإنفاق، وإن قومي -من الخوارج- لأجدى بهم الخروج للحَجْر على السفهاء والأخذ على أيدي المسرفين من الخروج على السلاطين.

مال الجاحظ على الشيخ الإباضي المعروف ببغضه للشيعة قائلا:

- قيل لي إنك تشيعتَ بعدي، فهل الأمر كما قيل؟

- أنا أتشيع؟

- هذا ما قيل لي!

- لن أتشيع حتى يتشيع معاوية بن أبي سفيان!

- وما الذي بغّضك في الشيعة؟

- بغضني فيهم أني لم أجد الشّين في أوّل كلمة قطّ إلّا وهي مسخوطة مثل: شؤم، وشرّ، وشيطان، وشغب، وشحّ، وشمال، وشجن، وشيب، وشين، وشراسة، وشنج، وشكّ، وشوكة، وشبث، وشرك، وشارب، وشطير، وشطور، وشعرة، وشانئ، وشتم، وشنعة، وشناعة، وشأمة، وشوصة، وشتر.

دارى الجاحظ ضحكة مكتومة وهو يستمع إلى الإباضي يعدد معائب الشين، ثم ظللته سحابة حزن وهو يستدعي صورة تماضر مغموسة في الحناء والعطور، مجلوةً لابن المديني، فظهرتْ على محياه سحابة غم وكآبة، ثم قال محاولا تدارك أصحابه قبل ملاحظة ما به:

- والله إني لسعيد بلقياكم.

وانطلقت غمغماتُ مجاملاتٍ من أطراف الحلقة بينما دوّى نهيقُ حمارٍ خارج المسجد.

* * *

بدأت السفينة المثقلةُ بالآمال والأحلام تقترب رويدا رويدا من المرفأ، كانت الجارية تتطلع إلى المرفأ بعين قرّحتها الدموعُ، وفؤادٍ أعياه

نحيبٌ لم ينقطع منذ أعوام، كان سيدها ينظر إلى المرفأ نظرة المنتصر إلى الغنائم.

كان قلباهما من عالمين مختلفين رغم تجاورهما، فما يتموّج به خاطر الفتاة من خوف ويأس وضيق، لا يضاهيه إلا ما يرقص به قلب سيدها من سعادة وتحفز وتفاؤل، حتى كأن جوارَ المتضادين يزيد حدةَ كل منهما اندفاعا في اتجاهه بدل أن يُعدِيَ أحدَهما الآخر.

استل النخاسُ مرآة صغيرة من صندوق خشبي بين يديه، ثم بدأ ينظر في وجهه الطويل ذي الأنف الأقنى، مُعدّلا من وضع قلنسوته السوداء التائهة وسط صحراء رأسه الأصلع، رمى مرآته الصغيرة داخل صندوقه الصغير، وهو يتطلع إلى تفاصيل الحياة التي بدأت تظهر معالمها على مرفأ البصرة من بعيد.

التفتت الجارية سائلة المرأةَ البدينة الجالسة إلى جانبها وكأنها تتوسل:

- هل أنت واثقة من أننا في العراق!؟

لم تجبها المرأة، وحدجها سيدها بنظرة تأنيب.

أما هي فاستيقظت داخلها ذكرى مرّت عليها سنون.

كانت تجلس منزويةً في ركن حجرة في بغداد ترتعد خوفاً.

فمع كونها الوحيدة في الحجرة، فإنها مع ذلك تجلس في زاويتها مُشبكةً ساعديْها على فخذيها، ضامةً ركبتيْها إلى صدرها حتى كأنها مطوية طيا، فالإنسان ينطوي على نفسه إذا شعر بالخوف، فتتقارب أعضاؤه كأنه يريد تحجيم مساحته عندما يشعر بالتهديد. تتقلص

المساحات التي يحتاجها جسده كأنه يريد أن يذوب خوفا مما يهدده، أما إذا كان في لحظة قوة فيتمدد جسمه، ويرتفع رأسه كأن المساحة التي يحتل جسده لا تكفيه.

الصوت الوحيد الذي تسمعه صوت قلبها الذي يدق قفصَ صدرها كأنه سجين قرر الهربَ فوراً، أو الانتحار حالا.

مر وقت طويل والأصوات هادئة داخل المنزل الواسع، ولا أحد مستيقظ سواها، فجأة، سمعتْ قرع نعاله ماشيا في الدهليز الواسع.

يكاد وقعُ كل خطوة من خطواته يقرع طبلة أذنها قبل ملامسة رجله للممر المبلّطِ بالرخام والمؤدي إلى حجرتها، رفعت رأسها فرأت ظله تحت ضوء القمر ممتدا على البلاط مما يلي الباب، دخل الحجرةَ بهدوء؛ فأحكمتْ شد يديْها على ركبتها فيما أصبحت عجيزتها الجزء الوحيد الملامس للأرض من جسمها المخروط.

دخل الرجل، ورائحة العطر تفوح من أردانه ثم قال بصوت خافت، مليء بالغضب المكبوت:

- أين أنتِ؟ لم لا توقدين مصباحا؟

لم تزد الفتاة على أن قالت بصوت نحيل مرتعش:

- أنا هنا يا سيدي... أنا..

ثم سكتت. حتى كأن الحبل الواصل بين لسانها وعقلها قد انقطع هلعا. فهي لا تعرف هل الأفضل أن تُسمِعَه صوتَها فلعله يرق لها، أم الأفضل الصمت حتى لا يكون صوتها باعثا لغضبه وسببا لتذكر ما اقترفته.

تحرك الرجلُ صوب الصوت متلمساً الجدارَ بطرف يده اليمنى التي يلمع في وسطها خاتم، حتى وصل إلى حافة السرير الذي تجلس عليه.

جلس على طرف السرير وقال بصوت خافت لم تتوقعه:

- لا تخافي.

خيل إليها أنها سمعت: «لا تخافي» ثم شكت في ذلك.

فخيالها الذي يسبح في عوالم واحتمالات لا تحصى كذّب أذنيْها، فرفعتْ رأسها من بين ركبتيها وقالت بصوت أكثر ارتعاشا من ذي قبل، وهي تجد طعم دموعها بين شفتيها:

- ماذا؟ هل... ماذا يا سيدي؟

كانت لا تعرف ماذا أُعد لها، فلحظات انتظار العقاب عادة ما تكون أفظع وأنكى من العقاب ذاته، ظلت تفكر منذ ساعات في كل الاحتمالات، فهي تتذكر جيدا قصة صديقتها غَنَج، وما جرى لها مع سيدها قبل أشهر حين أقسم أن يجلدها بالسيور وهي عارية حتى يتقشر جلدها.

تتذكر المنظر الذي ما زال يسكن خيالها.

كانت صديقتها غنج قد عصت سيدها في أمر تافه، فأقسم أن يعاقبها، جاء بالجارية وصلبها على عمود قرب سلم المنزل، ثم جردها من ثيابها ليجلدها، فلما جردها من ملابسها إذا بجسمها غض طري مكتنز شديد النعومة، فتحركت شهوته. فأمرها أن تلبس ملابسها وتتجمل.

ثم عاد بعد قضاء وطره ونصبها على السلم، وجلدها بالسيور حتى تقشر ذلك الجسم الغض الذي نزا عليه قبل ساعات!

كانت تفكر في كل ما رأته وسمعته من عقوبات للجواري والخدم داخل بيوتات بغداد. فكيف بمن اقترفت داهية بحجم الداهية التي اقترفتها هي؟

طافت هذه القصص بخيالها في ثوان قلائل، وهي ترفع حاجبيها منتظرة جواب الرجل الذي كان يداري من أمواج الغضب مقدار ما يجتاحها من حمم الخوف، لكنه ضغط على طرف شفته في الظلام الدامس وقال بهدوء مُتَصنّعٍ:

- قلتُ لا تخافي! فلن يمسك سوء!

وقعت كلمته على قلبها وقع المطر على البلد المَحْل.

تحول ظلام الغرفة الدامس إلى ضياءٍ عَمَرَ جوانحَ مزقتْها زعازعُ الخوف، واجتاحتها براكين الجزع أياما طوالا.

شعرت بحاجة ملحة إلى الصراخ فرحا هذه المرة. لكن هل تصرخ؟ لا، فلعل في الأمر مستورا لم يتبين بعدُ. وما أدراها؟ فقد يغير سيدها رأيه في لمحة عين؟

حاولت رفع حاجبيها من فوق ركبتيها قليلا لترَى تعابير وجهه في الظلام، ثم خطر لها ألا تفعل فلعله يغير رأيه إذا رأى عينيها ولو من وراء حجب الظلام الكثيف، فالعين رسول نافذ إلى القلب، ولا نافذة في جسد الإنسان تفضحه وتكشف بواطنه للناس مثل العين، ولعلها إن رفعت عينيها -حتى من وراء الظلام- يثور ثورة ويعود في كلامه.

ظل سيدها جالسا بقربها في هدوء دون رفع بصره في الحجرة المظلمة، ثم حمحم قليلا، وقال بصوت خافت:

- ستُباعين في السوق بأي ثمن، ولا أريد منك إلا ثلاثة أشياء: لا تذكري لأحد أبدا أنك كنت جاريتي، ولا تعودي للعراق أبدا مهما طوَّحتْ بك الأيامُ. وسمي نفسك باسم جديد لا يعرفه أحد.

ثم وقف وخرج من الحجرة المظلمة مسرعا، مُخلفا وراءه رَيّا عطرٍ ذكي.

شعرتْ بخفة لم تذقها منذ أيام، وانتابها أمنٌ ممزوج بخوف، فقد أزيح عن كاهلها شبح انتظار عقابٍ ما كانت تدري طبيعته، فسيدُها كان يمكن أن يعاقبها على جرمها بأي عقاب شاء، ولا يستطيع أحد منعه من ذلك.

قامت من مكانها وخطت خطوات جهة النافذة، أزاحت الستار، فتراءت لها بغداد وادعة هادئة.

ضج خيالُها بأسئلة متشابكة: هل ستودع هذه المدينة التي لم تعرف غيرها منذ عقلت؟ هذه المدينة التي أتقنت فيها كل ما تحسنه الآن؟ كل ما تعرفه الآن مما هو سبب سعادتها وشقائها.

إن علاقتها ببغداد علاقة ملتبسة، فهي تكرهها وتحبها، فتعلقها بها يشبه تعلق الجارية المغتصبة بوالد أطفالها، فهي تكرهه لأنه اغتصبها، ومع ذلك تحبه لأنه الراعي الوحيد لأطفالها، تكرهه لأنه متسلط ومعتد على جسدها، وتميل إليه لأن فلذات كبدها يحبونه. يسعدها لأنه يسعد عيون أطفالها البريئة، ويشقيها لأنها كلما رأته تذكرت الإكراه والعسف.

تلك هي بغداد بالنسبة لها، هنا فتحت عينيها على الدنيا، وهنا تعلمت ما تعلمت.

كانت تمسك بيمناها طرف الستارة بينما تركت طرفها الآخر يرفرف ليلامس جبينها وهي ترسل إلى بغداد نظرة وداع.

هبتْ ريح شمالية حاملةً رائحة الريحان العبقة، أرجعت الستارة إلى مكانها وهي تستغرب كيف اتسعتْ حواسها للتمتع بالريح العطرة رغم ضيق اللحظة وحرجها.

بدأت الليلة القمراء تنحسر عن المدينة الكبيرة المليئة بتنهدات الألم واللذة، المترعةِ بدموع الأفراح والأتراح، المأهولة بآلاف الأسياد والعبيد، والأمراء والسجناء، والتجار والمتسولين، والنُّسّاك والفُتّاك.

أفاقت الجارية من تذكر تلك الليلة البغدادية، والسفينة تصطدم بحافة شاطئ البصرة الصاخب بالصيادين والتجار والأطفال والبغال والحمير، والسفن المحملة بالفواكه القادمة من مناطق مختلفة.

كانت تشعر بكل سهام الدنيا تتكسر داخل سويداء قلبٍ ما كانت تحسَبُ الأيامَ أبقت فيه مكانا للجروح أو مساحة للآلام، كانت كلما تكشفت لها تفاصيل الحياة على الشاطئ ازداد شعورها بعبثية الحياة كأنها في حلم لا يستحق أي اهتمام، نعم، ما الذي يضيرها أن تباع أو تشترى أو تسعد أو تفرح أو تَعشق أو تُعشق؟ ما دام كل هذا حلم نائم وخيال وَسْنان؟

لو كانت الحياة حقيقيةً لاستحق الأمر الجزع أو القلق، أو استحق الفرح والسعادة، لكن كل هذا حلم من الأحلام! فأين الساعات العذبة والضحكات المجلجلة ومسح دموع السعادة من المآقي في الأماسي

البيض؟ وأين الألم واللذة والكره والبغض؟ وأين الأوجه التي ضاق الإنسان طويلا بقربها منه ثم تبخرت حتى أصبحت كأنها حلم؟!

كان الإرهاق النفسي قد وصل بالفتاة لتلك المرحلة التي تجعل الذهن يتأرجح بين عالمين: عالمٍ واقعي يتعامل معه على حقيقته، وعالم خيالي منفصل عن الواقع، كانت حائرة بين وجودها بين ذينك العالمين، كانت تفكر في الصراخ والضحك بصوت عال لتحتفل مع ركاب السفينة بأنها في حلم، ولا داعي للتهمم والتجهم، لكنها ما تلبث أن تراجع ذاتَها لتقول إن ما هي فيه واقع، فتهم بالبكاء والصراخ حزنا على ما فات وخوفا مما قد يأتي... لكنها ما تلبث أيضا أن تعود للمرحلة البرزخية فتنكمش شفتاها بعد أن استوفزتا للصراخ أو الضحك.

استرق إليها سيدُها نظرة مُفعمة بالمشاعر المتناقضة. فكلَّما صعّد عينيْه الحمراويْن الدامعتيْن دائما مع خريطة جسدها تتراءى له مدنٌ من الذهب وقوافل من الجواري والغلمان، ثم تغوص تلك المدن في آلاف الأخيلة فيرى فيها نفسه أباً لأطفال قد انعتقوا من دمامته ودمامة آبائه إلى أبد الآبدين.

بين تلك الخواطر، كان يتخيل عشرات التجار البصريين يتنافسون لشراء فتاته، فما زالت كلمات النخاس الذي باعه إياها ترنّ في أذنه كأنها هاتف سماوي يعد بالثراء الأبدي:

«لقد طوفتُ الدنيا، ومخرتُ البحار والأنهار، وسلكت فِجاج الأنجاد والوهاد، وعاشرتُ التجار والزهاد والنساك والفتاك، وحلبتُ أشطر الدهر، وربحتُ وخسرتُ، وسُررت وحزنت، لكني لم أشتر ولم أبعْ أجمل من هذه الفتاة، قاتلها الله! لكأنّها مصنوعة صناعةً، أو لكأن

الخالقَ استشار عشاقَها قبل خلقها».

كان النخاس اليهودي ينظر إلى جاريته، التي بدت له في هذه اللحظة أبعد ما تكون عن الجمال، فقد جرّدها التقلب الطويل بين ظهور الجمال ومتون الخيل وبطون السفن من كثير من أسلحة الغواية التي كانت سبب شقائها.

وكثيرا ما يصبح سلاح المرء سلاحا بيد عدوه، وكثيرا ما يضحى الجمال نقمة على حامله.

بدت عيناها الخضراوان الواسعتان بلا بريق، أما شعرها الذهبي فتحول إلى كومة من القش المهمل، أو كومة من الأثواب البالية الداكنة، أما حركاتها الخفيفة الموقعة التي كانت تلوي رؤوسَ عشاقها فغابت، واسترخت أعضاؤها استرخاء المتعب المستسلم المقهور.

كان جمالُها في هذه اللحظة جمالا منكسرا مرحوماً، يثير الشفقة لا الإعجاب.

قطعت أفكارَ النخاس صيحاتُ الناس على مرفأ البصرة لوهلة، ذهل اليهوديُّ عن بضاعته، فهذه أول مرة يرى فيها مدينة البصرة، كان الوقت بُعيد العصر بقليل، والمرفأ يضج بالحركة والنشاط.

تقافز المسافرون الذين أضناهم الجلوس في السفينة، بينما ظل النخاس جاثما في مكانه متشبثا بيد فتاته في انتظار سكون الزحام.

بدأ النخاس يقطع طريقه وسط زحام الناس، سحنات شتى وأوجه مختلفة التراكيب من هنود وصقالبة وزنج وعرب وروم. يصيحون على بضائعهم المختلفة.

كانت رائحة البهارات والعطور والسمك الطازج وروث الخيول والحمير والإبل تختلط برائحة الغبار والفاكهة لتشكل رائحة كثيفة غريبة، عبر التاجر من أمام بقال جالس أمام دكانه فصاح به:

- أين الخان؟

- واصلْ السير على هذا الطريق الواسع إلى أن تخرج من سوق العطارين، ثم سترى الخانَ على يسارك.

كان الخان واسع الفناء تتوسط مدخله نخلاتٌ يربط المسافرون مطاياهم في جذوعها. دخل التاجر فبادر قيِّمُ الخان بتحيته والترحاب به.

- ننوي المقام عندكم أياما ثلاثة.

- نزلتم أهلا وحللتم سهلا، خذ الأمتعة وأدخلها يا غلام.

قفز غلام روميٌّ يرتدي قميصا أحمر، معتجرا عمامة بيضاء. أخذ الصندوقين الخشبيين فوضع أحدهما على رأسه وأمسك الآخر بيده. ثم وقف كأنه جذع شجرة خلف التاجر.

فجأة، وقف رجلان على باب الخان وصاح أحدهما قائلا: «لقد قطع خناقٌ لسانَ هذا المسكين فأعينوه بما تيسر. فوالله إنه لشيخٌ زمِنٌ لا لسان له منذ ثلاثة أشهر».

التفتت الفتاة ناحية الصوت ففتح السائل فمَه واسعا كأنه يتثاءب، فإذا هو بدون لسان.

رمى قيّمُ الخان المفتاح الصدئ الذي كان بيده، وخطا خطوتين تجاه السائليْن صائحا:

- والله إن لسانك للسانُ ثور. خدعتني من قبل فانخدعت لك، وإن لم تخرج لأوجعنك ضربا... يابن الفاعلة!

توارى السائلان سريعا، وقفز قيمُ الخان وهو يغني وتبعه التاجر وفتاته صاعدين درج الخان، ثم تحرك الغلام الرومي بخطواته الوئيدة متمايلا بالصندوقين الخشبيين ليلحق بهم.

***

كان قيّم الخان مُنحنيا على دفتر ضخم بين يديه يكتب فيه ويمحو، سمع وقع أقدامٍ فحانتْ منه التفاتة صوب السلالم فرأى فتاةً أذهلتْه. كانت كلما نزلتْ درجةً من درجات السلم ازدادت جمالا.

فكل درجة تفضح حركة من حركات أنوثتها الفيّاضة، كانت يداها ترفعان طرف ثوبها الأحمر مما يلي ركبتيها حتى لا تعثر، وكان شعرها الذهبي يقفز فوق كتفيها كلما نزلت درجة، وكان قرطان ذهبيان يتشبثان بطرفيْ أذنيها متراقصيْن يخفقان كأنهما قلب عاشق.

استغرب قيم الخان كيف دخلت هذه دون أن يراها ومن أذن لها بالدخول، غير أن النخاس اليهودي الذي ظهر متدحرجا من ورائها ويدُه اليسرى على صلعته قال له:

- صفْ لي أين سوق النخاسين.

نحّى قيم الخان دفتره الضخم إلى اليمين ووقف قائلا:

- تخرج من الباب ثم تمشي يمينا، وتسأل عن سوق الرآسين. وبعد عبورك سوق الرآسين تسأل عن سوق النخاسين.

أمسك النخاس اليهودي بيد جاريته وخرجا من الباب، أما قيّمُ

الخان فكان يفكر كيف لم ينتبه لجمال الجارية عندما وقفت أمامه قبل يومين. ثم ابتسم وهو يفتح دفتره الضخم قائلا لنفسه: من أراد أن يرى امرأة ليتزوجها فليشترط رؤيتها وقتَ قدومها من سفر، والله إن جمال النساء لخدعة! فما هو إلا ثياب وعطور.

دلف النخاس من الباب الشرقي لسوق النخاسين ومشى بخطوات قلقة ونظرات زائغة. كان يقبض بيمينه على معصم جاريته الأيسر، فيما يرسل يسراه بين الفينة والأخرى لتعديل القلنسوة السوداء التائهة على رأسه الأملس، مشى وسط زحام السوق، أخلاط من غلمان الأحباش والصقالبة يُنادى عليهم.

كانت الجارية تمشي خافضةً رأسها، مُكبة على وجهها لا ترفع بصرها عن الأرض، والنخاس يمشي مسرعا ممسكا بيدها حتى غدت كأنها تقفز قفزا أو تتدحرج وراءه، كانت تتشبث بخمارها لتغطي جانبا من وجهها كأنها لا تريد أحدا أن يراها؛ بخلاف نخاسها الذي يتمنى لو رأتها الدنيا كلها، تجاوز مكان عرض الغلمان قاصدا مكان عرض الجواري، ما إن وصل إليه حتى نهر جاريته طالبا منها إزاحة خمارها الذي تدلى على وجهها فتركته منسدلا، حتى إن طرفه لا يتميز بشيء عن شعرها المنسدل، فجأة ظهر رجل عاجي الوجه قصير القامة عريض المنكبين قائلا:

- يا أهلا وسهلا... ما اسم الجارية؟

- اسمها علية

دار النخاس بالجارية واضعاً كفه اليسرى تحت ذقنه، مداعبا طرف لحيته بسبابته موجها حديثه للفتاة:

- أتحسنين الغناء يا علية؟

غمغمت الجارية بجمل غير مفهومة رافعة حاجبيها مشيحةً بوجهها إلى الأرض.

- لا.. لا. إنها من جَلْب جديد من الأندلس، وعهدها بهذه الديار قريب، لكنها عاقلة وقابلة للتعليم، وهي على ما ترى حسنا وبهاء.

- عجيب! عندما وقعت عيني عليها لم أشك في أنها ممن يحسن الغناء والضرب بالعود. بكم تبيعها؟

كان النخاسان يتفاوضان، وكانت الجارية ترسل بصرها في أطراف السوق كأنها تبحث عن شيء، لكنها تنظر نظر المنكسر المسترق الخائف، إذ لا تريد في ذات الوقت لفت أي انتباه، كانت تنظر، ثم تتحاشى نظرات الناس، وكان النخاسون يطوفون حولها ناظرين إليها لكنهم أبعد ما يكونون اطلاعا على ما يدور داخل رأسها من أفكار، آه! كيف يمكن التحلل من هذا الذي يعدونه جمالا؟ فما هو بجمال! إذ لو كان جمالا لما جرعني الصاب والعلقم ولا كنت حيث الآن، في سوق غريبة بمدينة غريبة. ما هذا الجمال الملعون الذي لا يفارقها لحظة من العمر، ليت الجمال تاجا يضعه المرء على رأسه وقت ما شاء ليتزين به لحبيبه، ثم ينزعه عن رأسه ويرميه متى طاردته العيون الجائعة والذئاب المتطفلة.

ذهب خيالها بعيدا ضاجا بصور متفاوتة الوضوح، كانت ترى نفسها وسط جمع من صويحباتها، دخل فارس مقنع بالحديد وتأمل جميعهن ثم عمد إليها وأمسك بيمينها وجذبها ووضعها على فرسه وسط صرخاتها وصرخات صديقاتها. لماذا لم يأخذ إحدى صديقاتها؟

كان وجه أنطوينت الأحمر وعيناها الضيقتان ودمامتها البادية طريقها إلى السعادة الأبدية! ليتني أشترى تلك الدمامة الحلوة التي تصد الناس بهذا الشعر المنسدل والجسم البض الجاذب لمآسي الحياة.

انتبه نخاس آخر كان منهمكا في الحديث مع مولاها فأقبل عليها سائلا:

- ما لك يا بنية؟

- غمغت الفتاة ولم تجب ببنت شفة.

اندفع النخاس مخاطبا سيدها، بعد أن بصق عن يمينه:

- أنا لا أنكر جمالها لكنها شاردة الطرف كسيفة المنظر، ولا شيء أدعى للهم من الجارية الحزينة. فبعها لي بمئاتي دينار.

- قلت لك لن أبيعها بأقل من ألف.

كانت الجارية حائرة الطرف تنظر على استيحاء في جنبات السوق، تمسح دمعة بين الفينة والأخرى من فوق خدها المتورد، كانت تنظر، ثم تتلفّفُ في ملابسها أحيانا كأنها تتستر عن أحد المارة، ثم تبدو سارحة أحيانا وبيدها عود تنكت به في الأرض، فجأة، وقعت رميةٌ إلى جانبها فالتفتت، فرأت جارية غير بعيد منها تريد أن تكلمها، أشارت لها، فاندفعت تتحدث إليها كأنها تسألها عن أمر، غير أن سيد الجارية نهرها وسحبها فتوارت وسط الزحام.

كان السوق ضاجا بالحركة، فصفقات البيع والشراء لا تتوقف، وأحاديث الجواري والغلمان وبكاؤهم وضحكاتهم تملأ الآذان، ربما كانت علية هي الصامتة الوحيدة.

انفرج جانب السوق الشمالي فدخل رجل طويل نحيف الأطراف ممتلئ الوسط راكبا على برذون وبين يديه غلمان يفسحون له الطريق، وقف عدد من النخاسين ينادون: أهلا بعبود! تفضل.

نزل من فوق برذونه وبدأ يتمشى في الجانب المخصص للجواري، كان كلما اقترب هو وغلمانه من علية، تحرزت وانكمشت داخل ملابسها كي لا يراها، كانت تحكم قبضة يديها وتمسك أنفاسها محاولة التضاؤل داخل ملابسها، متخيلة أن ذلك قد يعصم عين الناظر إليها من الافتتان بمنظرها الذي يبهج كل الناس إلا هي.

نظرت إليه متسائلة هل يا ترى سأخرج بعد هنيهات مع هذا الرجل لا أدري إلى أين؟ وما العيب في ذلك، ما قيمة أن أظل مع هذا النخاس الجشع ذي الفم الأبخر؟

عدلت جلستها بينما كان عبود يقترب من سيدها.

- السلام عليكم.

وقف النخاس الجشع حتى كاد يعثر وهو يمسح فمه بظهر يده قائلا بصوت متأرجح بين الترحيب والطمع:

- وعليكم السلام ورحمة الله.

- هل تحسن هذه الغناء والضرب على العود؟

- لا.. لكنها... لا، غير أنها حلوة ثَقِفَةٌ تتقن كل ما علمتْ.

- وما ثمنها؟

- ألف وخمسمائة دينار.

- هذا الثمن لا أعطيه في جارية تخرجتْ على يد إسحاق الموصلي.

- إنها حسنة بهية الطلعة حلوة الحديث و..

فقاطعه عبود:

- ولكن..

- ولكن ماذا؟ هي لا تعزف ولا تحفظ الشعر... كأني سأنشئها نشأة كاملة.

- هل تبيعها بألف دينار؟

طال الأخذ والرد، ثم قال اليهودي بتلكؤ:

- نعم. خذها.

في لمحة برق، مال أحد الغلمان على النخاس وناوله صرة الدنانير.

كانت الجارية ما زالت جالسة، وكأن الحديث الدائر لا يعنيها. التفت إليها سيدها الجديد وقال:

- مالك؟ قفي وتعاليْ.

نظرت في عينيْ سيدها الجديد.

لحظة واحدة تفصل بين عالمين لا تملك في أي منهما شيئا.

كانت قبل هنيهة مملوكة لذلك التاجر اليهودي الجشع ذي الفم الأبخر، يتصرف فيها كيفما يشاء، لا يُسأل إن ضربها أو اغتصبها أو باعها أو أهانها أو شتمها، لكنها على الأقل قد عرفتْه، كانت تعرف نقاط قوته وضعفه، وذاك يمنحها هامش تصرف داخل دائرة سيطرته المغلقة.

أما صاحب هاتين العينين العسليتين فما زال لغزا لا تعرف عنه شيئا. لا تعرف من أي النوافذ تتسلل إلى عالمه، ومن أي الزوايا يمكن اللعب بحدود دائرة سيطرته.

نظرت إليه مرة أخرى، فرأت عينيه العسليتين وشعره الذهبي المكتنز وبشرته الصافية.

- قومي، وأبشري فعبود يشهد له من في هذه العَرَصات بحسن المِلْكة!

تقدم إليها غلام رومي وأركبها على ظهر برذون واندفع يهملج بها وسط زحام الرائحين بعد يوم طويل من أيام سوق النخاسين، التفتت الجارية وهي تخرج من الباب الشمالي على ظهر البرذون فرأت طرف الشمس قد غرب، بينما طرفها الآخر بازغ ممتقع اللون تلفه الحمرة القانية.

التفتت يمينا فرأت مجموعة من الجواري عائدات مع نخاسهن بعد يوم كامل قضينه يُعرضن على كل قادم دون فائدة. ردت بصرها الحسيرَ ناظرةً أمامها فرأت شعرَ سيدها الذهبي المكتنز وأطرافه النحيلة وبشرته الصافية، وغلاما معتجرا عمامة، وبرذونا مُرهقا يمضغ لجامه من الجوع.

لم يكن هناك فرق بينها وبين البرذون، فكلاهما يركض لا يدري إلى أين؟ بل لعل حاله أحسن من حالها، فقد مر قبلُ من هذه الناحية، ويعرف الطريق الذي يركض فيه.

* * *

وقف المكاري صائحا على الباب:

- يا هذا، اخرج وادفع دانقينْ عن صاحبك!

خرج النظام راكضا، مرتدياً جبة داكنة، حاسرَ الرأس، ماشياً

كأنه يتدحرج، إذ كان يجري منحنيا قليلا إلى الأمام، بدا مقطب الجبين مغضبا، رفع رأسه فرأى المكاريَّ ذا الثوب الأصفر ممسكا بتلابيب الجاحظ بيده اليمنى وأذن حماره بيده اليسرى.

ابتسم إبراهيم النظام وهو يرى الجاحظ يخرج دانقيْن من جيبه ويدسهما في يد المكاري وهو منحنٍ ضحكاً.

ولّى المكاري وهو يُصفّر بشدقيه، فبادر النظام قائلا:

- ما الخطب؟

- حاولتُ التحريش به، فقلت له إني لا أملك دانقا وإنك صديق بخيل، ثم طلبت منه أن يترك الكراء لوجه الله تعالى، وذكرت له أحاديث ترغّب في الأجر على طريقة القُصاص لأعرف ما عنده، فكان منه ما ترى!

ضحك النظام وهو يفتح باب داره قائلا:

- لقد أزعجني نداؤه لأني كنت قد بركتُ مَبركاً طيبا مقابل صومعة الحَمام بحيث لا يراني، وكنت أرقب بعض عاداته ومذاهبه وأدوّنها، حتيجاء الغلام وأخبرني بنداء المكاري.

- قاتله الله! ما أشد نكارة صوته وأقل عقله، لذلك كثيرا ما أقول لك إني ما رأيت مكاريا عاقلا قط، ولا رأيت مكاريا في قرية إلا شبيها بكل مكار آخر في أي بلد كان، فالباعة والحمالة والعجائز والحجامون والحاكة والنساء كأنما وُلدوا في عام واحد، وكأن عقولهم قُدرت بمقدار واحد وصُبّت في قالب واحد.

كانا يتحادثان وقد تجاوزا فناء الدار، ثم بلغا البيت المتواري خلفها،

كان مويس بن عمران وبعض تجار المعتزلة قد اكتروا هذا البيت ليضعوا فيه ما شاءوا من الحيوانات ويراقبوها ويتأملوها عن قرب بإشراف النظام، كان فناء واسعا مليئا بالحيوانات المختلفة.

تقدم النظام وفتح الباب بهدوء محاولا أن لا يزعج الحَمام، رفع الجاحظ إزاره وهو يتجاوز العتبة، فوضع النظام سبابته طالبا منه الصمت.

صعدا سلما طينيا بهدوء، حتى كأنهما لا يكادان يطآنه، ثم قادهما السلم إلى غرفة دائرية صغيرة على ظهر الدار فيها نافذة مطلة على باحة البيت الواسعة المليئة بأصناف مختلفة من الحيوانات، كانت داخل البيت كراريس ودواة وأقلام من القصب وكرسي وحصير.

خلع الجاحظ طيلسانه ورماه على الحصير، ثم جلس، تقدم إبراهيم جهة النافذة وهو يقول بصوت منخفض:

- ما رأيت أغزل من الحمام!

لم يزد الجاحظ على أن حرك رأسه، وهو يتأمل القراطيس المصفوفة على الحصير، تناول قرطاسا فوجد فيه رسوما لهيكل الفيل وتسمية لكل عظم من عظامه مكتوبة مقابل العظم المرسوم، ثم تناول ورقة أخرى فوجد فيها كلاما يصف طبيعة الحمام ومحاسنه ومساوئه، والفرق بين الحمام المعد للزجل وغيره، وضع الجاحظ الورقة ورفع رأسه مخاطبا النظام بهمس:

- لو رآك أحد العامة لقال إنك تنوي التزوج بحمامة.

- قاتلك الله! لماذا؟

- لو اطلع عاميٌّ على هذه الكراريس المملوءة حديثا عن محاسن الحمام وكيف أنه أغزل الحيوانات، سيقول: ما الذي يدفع رجلا من أهل الكلام والصناعة مثلك لمثل هذا إلا إذا كان استخار ربه وأجمع على أن يُعرس بحمامة أو بومة أو قطاة.

- إذا كان ذاك منطقهم، فسيتهمونك بنية الزواج من إحدى بنات وِرْدانَ[1] الساكناتِ الكُنفَ أبدا!

ضحك الجاحظ، فلكزه النظام ليخفض صوته، فرفع فيه عينيه قائلا:

- وما الذي دعاك إلى القول إن الحمام أغزل ما رأيت؟

- لقد رأيت الحمام إذا أراد قَمْطَ أنثاه نفش ريشه وحسّن مشيته، وتفنن في لفت نظرها إليه بأحابيل من الحسن عجيبة، وتلاوين من الحيل غريبة.

- ثم له ميزة أخرى، ألا ترى أنه يتزوج ويكون وفيا لزوجه عكس الدجاج، فالحمام قد يعيش عمره مع حمامة واحدة لا يريد غيرها ولا تريد غيره، أما الدجاجة فترحب بكل ديك، والديك يقع على كل دجاجة، بل من بلادة الديك أنه يقع على الديكة ولا يعرفها.

- نعم، لقد كنت أنا وجماعة من المتعلمين هنا نرقب ذلك، فلاحظناه. غير أننا لاحظنا مرة أنه قد يقع من الحمام أن يَقْمِط غير زوجه.

- نعم نعم، لا أنكر هذا. لكن ما استقر عندي بعد طول مراقبة

(1) بنات وردان: الصراصير

أن الحمام ذا الصوت الجميل كالنوائح والمغنيات مما يجري على رجلين أعف من غيرها، ومع ذلك قد يفسق الحمام إذا احتاج إلى غير حمامته، لذلك رأيته أشبه بالإنسان في هذا، ففي الناس العفيف والعفيفة وفيهم غير ذلك.

التفت إليه النظام بسرعة وهو يقول بصوت متعجب خافت، وقد بدت قطيرات عرق على جبينه:

- شيء عجيب! ما دامت النوائح والمغنيات من الحمام أعفّ من غيرهن فلم أصبحت النوائح والمغنيات من الإنس أقل عفة من غيرهن؟

ما كاد النظام ينهي سؤاله حتى طار الحمام من الحائط.

فمد الجاحظ رجليه وأسند ظهره إلى الجدار، أما النظام فجلس على قدميه مادا يديه أمامه.

تململ الجاحظ وقال:

- مشكلة القَيْنَة أنها تنشأ بين العود والطنبور، وبين المُجّان والفساق، فعيشها مربوط بالتهتك ولا تستقيم صناعتها ومهنتها دونه، فهي والعفة لا يأخذان طريقا.

- شيء عجيييب.

- لذلك لعل من الآفات التي قد تصيب الرجل الكريم أن يعشق قينة، فالقينة تجمع من الملذات ما لا يجمعه غيرها على وجه الأرض.

اعتدل النظام في جلسته وهمس:

- كيف ذاك يا أبا عثمان؟

- إن المطعوم والمشروب مثلا لا يوصل إلى لذته إلا بحاسة واحدة، ولو خبرته بحاسة غيرها لعافتْه. فلو ذقتَ المسك بلسانك لعفتَه، لأنه من حظ حاسة الشم، ولو وضَعت كل لذيذ على أذنك لما وجدت له طعما.

- وما وجه جمع القينة لكل ملاذّ الدنيا؟

- لأن متعة القينة تدخل إليك عن طريق حواس أربع؛ فهي تمتع أذنك بالصوت المزلزل، وعينك بالدل الذي يحل عقدة العزم، وملمسَك باللمس الذي يقود إلى الحنين للباه، وشمك بالريح الطيبة، ثم يعضد القلب ذلك بالتخيل فتمتعك من أربع حواس.

- شيء عجيييب!

مع أن الجاحظ هو الذي ما زال يتحدث، إلا أنه خيل إليه أنه سمع دقا خفيفا على طرف الباب، فبادر قائلا:

- كأن الباب طرق طرقة خفيفة.

فانتبه النظام من شروده ومد جسمه جهة الباب وقال:

- من؟

فجاء صوت الخادم حادا متذبذبا كالعادة بين صوت المرأة والرجل:

- سيدي، هناك جماعة من الأصحاب يستأذنون.

- أدخلهم في المجلس وقل لهم إني قادم.

وقف النظام بقامته الفارعة، منحنيا لسقف الغرفة الواطئ حتى

أخرج رأسه من الباب وهو لا يزال منحنيا، ثم تبعه الجاحظ.

نزلا من الدرج بهدوء، وهما يرقبان عن يسارهما تلاوين الحيوانات المستأنسة التي تروح وتغدو داخل الحديقة المصطنعة التي بناها النظام وأصحابه قبل سنوات بتبرعات مويس بن عمران وبعض أصحابه من تجار المعتزلة، يوجد مجلس واسع في طرف الحديقة يجتمع فيه عشاق الحيوانات للحديث عنها، وعن نتائج مراقبتها بين الفينة والأخرى.

تقدم الخادم وفتح الباب المؤدي إلى الردهة الداخلية للمنزل، وهو يقول:

- لقد أعددت المجلس، والرجال فيه يا سيدي.

دخل النظام والجاحظ إلى المجلس الواسع، فتقافز الرجال للسلام عليهما، لكنه بادرهم قائلا:

- أماكنكم، أما سمعتم الأثر: من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار؟

ضحك شاب أشقرُ أعورُ العين وهو يعود لمكان جلوسه قائلا:

- ومتى كان المعتزلة يستشهدون بأحاديث أبي يوسف ومالك بن أنس؟

زمّ الجاحظ شفتيْه متضايقا وهو يفكر في أن الرجل يستكمل حوارا ساخنا دار بينهما أمس بالمسجد الجامع فقال:

- أهل العدل والتوحيد يأخذون بالحديث، لكنه أخذ صاحب العقل، لا أخذ رأس النعجة وأضرابه من موسوسي الحشوية مثل ابن المديني.

تلامح رجل جالس في الركن مع آخر عندما ذكر الجاحظ ابن المديني، لكن الجاحظ لم يلاحظ إشارتيهما، دخل غلام إلى المجلس المربع ذي الفرش المتواضعة، ووضع جاما مملوءا بعصير الليمون المحلى بالسكر أمام كل واحد منهم، ثم توجه إلى النافذتين المشرعتين لإحكام إغلاقهما اتقاء للغبار المتسلل للغرفة، والمشبع برائحة رطوبة نهر دجلة.

عدل النظام جلسته -وهو يتوسط المجلس- وقال:

- والله لو علم إمام حيّنا باجتماعكم عندي لطال تعجبه. فقد استوقفني أمس وأنا خارج من المسجد ليسألني عن سبب اهتمامي بعادات الحيوانات، ولمَ أصرف وقتا في فهمها وفهم تصرفاتها؟

وقبل أن يكمل النظام كلامه قاطعه عبود من طرف المجلس وهو يقول دون رفع بصره:

- عليك سؤاله لم سمى الله تعالى سورة باسم البقرة، وأخرى باسم النملة، وثالثة باسم الفيل، ورابعة باسم النحل، وخامسة باسم العنكبوت؟

نطق عبود كلمة «العنكبوتْ» وكأنه يرفع صوته بمدة الباء أكثر مما ينبغي، أو كأنه يحاول جعل صوته أغلظ من حقيقته. فأجابه الجاحظ -ماسحا حبيبات حصى ظلت عالقة بأنفه منذ آخر صلاة- قائلا دون أن يلتفت إليه:

- لا لا، إن محاججة هؤلاء في مثل هذا تدخل في باب محاججة صبي الكُتاب بقيمة التعلم.

ثم مدّ الجاحظ ذراعه النحيل في الهواء وهو ينظر إليها، وقال:

- لما كان صاحبكم هذا صغيرا، كان يمد يده هكذا ويسأل معلمه: لم إذا فكرت أن أمد يدي مددتُها؟ لم تطاوعني؟ ولم إذا حاول مفلوجٌ مدّها لم تطاوعه؟ وأنا لا أشك في أن الخاطر الذي يأمر يدي أن تمتد فتمتد هو نفس الخاطر الذي يعتري المفلوج، فلمَ تستجيب يد السليم ولا تستجيب يد المفلوج؟

فكان معلم الصبيان يقول لي: قاتلك الله من صبي سؤول! والله لن تلفح أبدا، لمَ تسأل عما لا يُسأل عنه ولمَ تستغرب ما لا يُستغرب؟!

ضحك القوم وتحرك كل واحد منهم في مكان جلوسه، فمنهم من تحامل أكثر على إحدى الوسائد مُغيرا جلسته، ومنهم من مد عنقَه مبدياً الاهتمام، إلا أن النظام ظل ساكنا، إذ كانت عيناه ذواتاالأهداب الخفيفة ترمقان الجاحظ وكأنهما قد سكنتا، وبدت عيناه الكبيرتان فوق أنفه الأفطس وجبهته الواسعة وكأن الحياة قد فارقتهما لثباتهما وشرود ذهنه، فلما ظلّل الصمت المجلس انتبه، وأزال يده من تحت ذقنه فيما انشغلت يمناه باللعب بالجام الذي بين يديه.

فاستأنف الجاحظ حديثه بعد أن رد يده اليمنى لينزع قلنسوته البيضاء من فوق رأسه الصغير، وهو يُميل رأسه حتى بدت عنقه الدقيقة كأنها منكسرة، وهو يقول:

- إن العوام وأشباه العوام لا يندهشون إلا من الحديث الغريب، كالمشي فوق الماء وأكل النار، أو أحاديث من ذلك الجنس، أما إذا توقف المتأمل سائلا عن سر غروب الشمس المحترقة، وانبلاج الفجر الوضاح، وتعاقب الليل والنهار، فيتهمونه بالاندهاش مما لا يدعو للاندهاش.

قاطع عبود الجاحظ، وهو يمرر يده اليسرى على ذقنه المصقول كأنه مرآة مجلوّة، وأسنانه الصُّفْر القوية تقرقع لوزة بقي منها قليل، وقال:

- كنت كلما سألت أعرابيا عن شيء من أسرار الحيوان أظهر التعجب من انشغالي بمثل هذه الأمور، واستغرب كيف لرجل مثلي....

ثم ارتبك عبود قليلا، واحمرت وجنتاه، ثم استرق التفاتة فرأى حاجبيْ الرجل الجالس عن يمينه يلعبان، وشفتي الجالس أمامه تتأرجحان قليلا...

فابتلع الحرج وعاد لحديثه:

- كيف لمثلي من طلاب علم الكلام أن ينشغل بمثل هذه الأمور.

تدخل النظام، وهو ينظر في عينيْ عبود ليشعره بأنه لم ينتبه لما وقع، ولم يلحظ الحرج الذي بدا عليه، وقال:

- أما أنا فلا تقع عيني على شيء إلا كان أدعى للعجب من سالفه، والله إني لأحار من ضحكات الحسناوات، وتلفتات الفتاة الحسنةِ الدل والغنج، وأتعجب لمَ ينخلع القلب إذا رأى الوجه الصبوح، ولمَ ينبهر إذا رأى البدر الوضاح. ولمَ يظل الرجل الزميت الركينُ ذو العمامة المكورة، والرداء المُحشّى، والصولة العاتية ماشيا في طريق، فتظهر فتاة حسناء متلففةً في ملابسها فتنحلّ تلك العقدة، وينفتح ذلك الحاجب المقطَّب، وتبتلّ تلك العين الجامدة، وتتراقص تلك الأهداب المتصلبة وينعقد ذلك اللسان الجوّال؟ والله إني لحائر! ويكون ذلك الرجل لمكانته تخافه الوحش، وتتحاشاه المارة، ويتقيه أشداء الرجال.

ثم مال النظام إلى الوراء متنهدا خاتما حديثه بعبارته الأثيرة، يمدها مدا طويلا:

- شيء عجيب!

كان الجاحظ يستمع إليه وقد أمال رأسه إلى الوراء، ورفع رجله اليسرى بتشبيك راحتيْه على ركبته ورفعها قليلا، وهو يقول:

- لكنك لو سألت أحد هؤلاء الحشوة من قادة الرعاع وهو في مسجده وبين طلابه لما زادك على أن يقول: ذاك تقدير الله. ثم يلتفت وكأنه قد أجال الفكرَ واستخرج الغامضَ وعثر على المستور! لكني لم أعد أتعجب من الحشوة والنابتة.

بادره عبود قائلا:

ولم لا تتعجب منهم يا أبا عثمان؟

- أنا «أعجبُ من أن العجبَ قد ذهب... وكيف التعجب والأمور كلها أصبحت عجبا؟ كنت أتعجب من كل فعل خارج عن العقل أو العادة، فلما خرجت الأفعال بأسرها من العقل والعادة صارت بأسرها عجبا، فبدخولها كلها في باب العجب خرجتْ بأجمعها من باب العجب» عندي.

تنحنح النظام، ثم قال موجها كلامه لعبود، مستحضرا الحرج الأخير، محاولا إشعاره بأنه لم يلاحظ شيئا:

- هات يا عبود، ماذا عملت بعدنا؟ وماذا فُتح عليك من أبواب العلم؟

اعتدل عبود في جلسته وهو يضم عليه أطراف جبته النظيفة، وقال:

- لقد أرسلت أحد خدامي إلى بعض الوراقين من أصحابنا فوجد عشرة كتب من كتب الأوائل، اثنان منها عن الفيل.

أنزل الجاحظ رجله اليسرى واعتدل وهو يمد يده جهة النظام قائلا:

- أبو إسحاق هذا صاحب الفيل، فهو لا يعجب من حيوان عجبه منه، ولقد رأيته يوما وهو يجري وراءه في الغياض شارد الذهن حتى لكأنه عاشق ولهان.

توقف الجاحظ عن الحديث قليلا ويده اليمنى تدور في كمه باحثا عن ورقة، ثم استخرجها قائلا:

- ما دام حديثكم عن الفيل، فدعوني أحدثكم عن الجرذ للمناسبة بينهما.

انفجر الجمع ضاحكين، فواصل الجاحظ قائلا:

- نعم! فلا تناسب أقوى من التنافر، فأنت إذا ذكرت العظيم ذكرت الصغير للتباعد بينهما، ومن هذا الباب يصبح الكبير يشير للصغير، والجميل للقبيح، والدنيا إلى الآخرة، فما عجائب الفيل-كما تعلمون- بأغزر من عجائب الجرذ.

ثم قرب الجاحظ الورقة ونظر إليها ثم ردها إلى جيبه وقال:

- لقد رأيت عجبا، رأيت أن كل حيوان إذا خُصِي ضعُف ونزلت درجته عن طبقته من الذكران إلا الجرذ، فإنه إذا خصي استأسد وخافه كل فحل من الجرذان... ثم إني....

انتبه الجاحظ إلى أن عينيْ النظام تدوران بسرعة، وجبينه يتقطب،

وعينه اليسرى تزورّ جانبا..

ثم خيّم صمت مطبق.

فالتفت الجاحظ فرأى حواجب تتقافز، وضحكات تنحبس، وشفاها تتصنع الوقار وأطرافها ترتعد من أسفل.

أما عبود فازدادت حمرة وجهه الصقيل، وتجمعت حبيبات عرق على أرنبة أنفه الأقنى، بينما انشغلت أصابعه باللعب بطرف عمامته.

اندفع الجاحظ وجبينه يتفصد عرقا، بعد أن أحس بالحرج قائلا:

- وقبل حديثي عن الجرذ وما اطلعت عليه من عجائب خلق الله فيه، سأحدثكم بما شهدته من أمر الذباب مع القاضي ابن سوار.

ضحك النظام، محاولا إعادة الحديث إلى وتيرته قائلا:

- ولن تعدم حجة لتقول إن الصلة بين الفيل والذباب أوثق، والحديث عنه بعده أنسب، كيف ولكل منها خرطوم...

ضحك عبود بصوت عال، محاولا إيهام جلسائه أنه لم ينتبه، وأن نفسه قد صفت من أي حرج. فالتفت إليه الجاحظ مبتسما وعيناه تلمعان وتكاد قهقهة تندّ من صدره، وقال:

- هل حدثتكم بما شهدت من قاضينا عبد الله بن سوار والذبابة؟

انحنى عبود إلى الأمام وقد برقت عيناه الناعستان بتصنع، وقال:

- إيهِ يا أبا عثمان!

تزحزح الجاحظ في مكان جلوسه وعاد إلى اعتدال جلسته، وقال:

- تعلمون أن أهل البصرة لم يروا حاكما قطّ ولا زمّيتا ولا ركينا ولا وقورا، ضبطَ من نفسه وملك من حركته مثل الذي ضبط القاضي

عبد الله بن سوار، إذ كان يصلّي الغداة في منزله، وهو قريب الدّار من مسجده، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتّكئ، فلا يزال منتصبا ولا يتحرّك له عضو، ولا يلتفت، ولا يحلّ حبوته ولا يحوّل رجلا عن رجل، ولا يعتمد على أحد شقّيه، حتّى كأنّه بناء مبنيّ، أو صخرة منصوبة، أو وتد مغروس، ثم يظل على حاله ذلك لا يقوم إلا إلى صلاة حتى ينادى لصلاة المغرب.

أثناء حديث الجاحظ دخل خادم ووضع خوانا مملوءا فواكه، ثم جعل يناول كل واحد من الجلوس تفاحا أو عنبا. ثم أمسك سفرجلة ومدها للجاحظ، أخذها الجاحظ بيسراه دون النظر إلى الخادم وواصل:

- وكنا نتعجب منه، فلم نره قطّقام مع طول تلك المدّة والولاية مرّة واحدة إلى الوضوء، ولا احتاج إليه، ولا شرب ماء ولا غيره من الشّراب، كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها، وفي صيفها وفي شتائها، وكان مع ذلك لا يحرّك يده، ولا يشير برأسه، ولا يتكلم إلا موجزا، فيبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة.

ضحك النظام ومد يده جهة الجاحظ وهو يتكلم ويكاد الريق يخرج من فهمه لمغالبته الضحك قائلا:

- ليته وهب لإمام حيّنا من إيجازه، ومنحناه من حركاته ولعبه على أعواد المنبر!

ابتسم الجاحظ ويده اليسرى تلعب بالسفرجلة، وعيناه تلمعان كعادته إذا حدث بحديث يطربه:

- فبينا هو على حاله ذات يوم -وقد دخلت أنا وسهل بن هارون إلى مجلسه ضمن العامة لنرقب حاله تلك- وهو جالس للقضاء

إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث، فجعلتُ أغمز لسهل تلهفاً لما قد يقع إذا أطال الذباب المكث على أرنبة أنفه. وبعد مكث الذبابة دهرا على أنفه لم يتحرك، فتحوّلت إلى مؤق عينه، فرام الصّبر في سقوطها على مؤق عينيه، وعلى عضّها ونفاذ خرطومها كما صبر على سقوطها على أنفه من غير أن يحرّك أرنبته، أو يغضّن وجهه، أو يذبّ بإصبعه. فلمّا طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه، وقصد إلى مكان لا يحتمل التّغافل، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح، فتنحّى الذباب ريثما سكن جفنه.

دوت ضحكة الجميع، وجاء صوت عبود نحيلا قائلا:

- مسكينٌ أنت يا ابن سوار! وقعت بين ذبابة متسلطة وعينيْ أبي عثمان، ثم ماذا؟

- ثمّ عاد إلى مؤقه بأشدّ من مرّته الأولى فغمس خرطومَه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك، فكان احتماله له أضعف، وعجزه عن الصّبر في الثانية أقوى، فحرّك أجفانه وزاد في شدّة الحركة وفي فتح العين، وفي تتابع الفتح والإطباق، فتنحّى عنه بقدر ما سكنت حركته ثمّ عاد إلى موضعه، فما زال يلحّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده. فلم يجد بدّا من أن يذبّ عن عينيه بيده، ففعل.

فلما حرك يده ذابا عن عينيه كدنا نخرج من جلودنا فرحا!

وكانت عيون القوم ترمقه، وأفواههم مفتوحة وعمائمهم مائلة من هول الحادثة.

التفت الجاحظ فرأى النظام يضع يده على بطنه من شدة الضحك،

وبقية القوم ما بين مبتسم وضاحك، وراكل برجله، فواصل حديثه مائلا برأسه باسما وهو يقول:

- فلما فعل ذلك تنحّى عنه الذباب بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته، ثمّ عاد إلى موضعه، ثمّ ألجأه إلى أن ذبّ عن وجهه بطرف كمه، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك.

فلما رأيته يتابع الذب بكمه كدت أزغرد زغردة نساء الخناقين، وأهتف كما يهتف الرعاع عند مناطحة الكباش ومهارشة الديكة قرب المسجد الجامع!

قاطع عبود الجاحظ قائلا:

- والله إنك وسهل بن هارون لشر جليسين!

واصل الجاحظ حديثه ويده اليسرى تلعب بالسفرجلة، ويده اليمنى تذهب وتأتي بين ركبته اليمنى وقلنسوته وهو يقول:

- فلما علم القاضي أنّ فعله كلّه مراقب ممن حضره من أمنائه وجلسائه قال: أشهد أنّ الذّباب ألحّ من الخنفساء، وأزهى من الغراب! وأستغفر الله! فما أكثر من أعجبتْه نفسُه فأراد الله عزّ وجلّ أن يعرّفه من ضعفه ما كان عنه مستورا! وقد علمت أني عند الناس من أزمت الناس، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه! ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

أنهى الجاحظ القصة ثم أسند ظهره إلى الجدار دون أن يضحك، لكن وجهه الخالي من أي ابتسامة في مثل هذا الظرف يستحث العارفين به على الضحك أكثر.

أسند رأسه إلى الحائط وراءه، أما أصحابه فكانوا قد استنفدوا قواهم ضحكا، فما بقي إلا مسح الخدود عن الدموع وعبارات التعجب والاستزادة. ثم جاء صوت النظام:

شيء عجيب!

* * *

الدوحة، 1439هـ

جلس القروي ثلاثة أيام كالمجنون يحاول الاتصال بحصة دون نتيجة.

فهاتفها الوحيد مغلق، ولا تملك أي تطبيق للمراسلة (مثل الواتسابْ أو التليغرامْ) يمكن التواصل معها عبره، لتحرزها الشديد ووسواسها الإلكتروني الدائم من انتهاك خصوصيتها.

يتقلب في جنبات غرفة الأخبار كأنها خاوية رغم ضجيجها الذي لا ينقطع، حتى زميله في قسم التدقيق اللغوي لاحظ تغير سلوكه فسأله:

- ما قصتك؟ تبدو مهموما!

- أبدا، سهرتُ فقط.

لكن أي متأمل يعلم أن سلوكه تغير، حتى المظهر الأنيق الذي يحرص عليه عادة قد غاب. يقف عادة أمام المرآة ليوازن ما بين الألوان التي سيرتدي، ويبالغ في اختيار عطره، غاب كل ذلك.

عاد للمرة الثالثة إلى القسم التقني، ووقف عند مكتب صديقة حصة البدينة سائلا عنها، فلم تزد على أن حدجته بنظرة تشفٍّ قائلة:

- ما أدري! اتصلت على المدير وطلبت إجازة أسبوع.

انزعج من نطقها المفخم لـ «ما» وتركها وراء ظهره متأكدا أنها تستطيع مساعدته لو شاءت، لكن الحزن الطافح من قلبه حال دون شعوره بالغضب، فالقلب يضيق أحيانا عن امتزاج المشاعر داخله.

عاد إلى مكتبه في ركن غرفة الأخبار وذهنه مزدحم بالأسئلة، ما قصة هذه الفتاة؟

لماذا ظهرت حتى إذا أنشبت أظافرها في سويداء القلب اختفت كأنها حلم.

إن المرأة ظاهرة متحولة.

لذلك تصبح المفاجأة أقوى أسلحتها دائما، وهذا سرّ فتنتها، فأوقات التحول أجمل أوقات اليوم، فلا شيء أجمل من توزّع الظلال وقت الغروب ووقت الشروق. ولا لحظة أبهج للعيون والنفوس من سويعات السحر وأنسام الغسق، ولا يأسر الإنسان شيء كاللحظات التي تأتي قبيل المطر وبعده.

فعدم اليقين وغياب الرتابة هو طابع تلك اللحظات المتحولة كلها، والمرأة كذلك مخلوق لا يمكن التنبؤ بتصرفاته. وأي مرصد في الدنيا يستطيع التنبؤ بتقلبات مزاج امرأة؟

المرأة كائن متقلب بالفطرة، لكن ذلك التقلب هو سر قوته وضعفه، وجماله وتعاسته.

ثم تذكر القروي معنى آخر، وهو أن المتنبي كان يرى رأيه هذا، وإلا لماذا مدح لحظات التأرجح والتحول.

شعر بخفة وحاجة إلى الإنشاد بصوت مسموع على طريقة

الشناقطة في باديتهم، فوقف عن كرسيه ووضع يديه على مكتبه، وبدأ ينشد على طريقة البدو:

وبين الرضا والسُّخطِ والقربِ والنوى
مـجـالٌ لـدمـع الـمـقـلـةِ المُتَرَقْـرِقِ!
وأحـلى الهوى ما شـكَّ في الوصل ربُّه
وفي الهجـر، فهو الدهـرَ يرجو ويتقيّ!

سكنتْ أيدي كل من في غرفة الأخبار على حواسيبهم، والتفتوا جهة الصوت.

بدا القروي كائنا عجيبا، ذا قرنين هبط الأرضَ بغتةً على ظهر مذنّبٍ شارد.

وجاء صوت صحفي من قسم الرياضة:

- إيه ده! عاوزين هدوء عشان نشتغل يا ناس!

وسُمِعَ بعده صوتُ سيدة كأنها تصرخ:

- نحن وَينْ؟!

ثم وقف صحفي سوداني طويل القامة من قسم المقابلات وقال:

- والله بالغتَ لكن... نحن ما افْخلوة يا أخينا!

وانطلقت تمتماتٌ وهمساتٌ، وعباراتُ انزعاجٍ واحتجاج.... وضحكات، قطعها رئيس التحرير خارجا من مكتبه كأنه يتدحرج، ثم صفق بيديه.

عاد الهدوء، فإذا الصوت الوحيد المسموع في غرفة الأخبار صوت الشاشات المثبتة في أطراف الغرفة الزرقاء المدورة.

في هذه اللحظة، انتبه القروي لوجود الفتاة البدينة صاحبة حصة واقفةً في طرف غرفة الأخبار تلفَحُه بنظراتِها. خُيل إليه أنها تتشفى فيه، وهو يتحول إلى كائن غريب ومصدرٍ للإزعاج والتسلية!

رجع إلى نفسه خجِلا، وارتمى على كرسيه وهو يشعر بأن جسمه قد تحول إلى كتلة من العرق. فتح ملف وورد، وجاهد نفسه لنسيان الحرج الذي وقع فيه... ولنسيان خيال مطوعة بريدة، وكتب:

***

كانت الشمس تسرع إلى المغيب كأنها حسناء تفرُّ من ملاحقة الأعين المتطلعة. غاب حاجبُها عن هذه المدينة التي تتخللها الأنهار، تخليلَ الحسناء شعرَها بأناملها الرخصة. انعكست حمرة المغيب في الأنهر المحيطة، فأضفتْ لونا ذهبيا على جَنَبات سوق الوراقين في طرف سوق البصرة الكبير.

بدأ الناس في طي أمتعتهم ولفّ خيمهم وإغلاق حوانيتهم.

يتدافع المارة والغلمان والدواب والمتسولون عند باب السوق ما بين متجه إلى المسجد لصلاة المغرب، ومتعجلٍ متجهٍ جهة ساحة الحمام، تاركا السوق مسرعا إلى أهله قبل حلول الظلام.

تختلط أصوات المكارين الباحثين عمّن يحملون، بأصوات الأذان، وجلبة أطفال الكُتاب، ونهيق الحمير، ووقع حوافر المطايا.

لكن الجاحظ ما يزال جالسا في زاوية دكان مويس بن عمران رغم الظلام الذي بدأ يحول بينه وبين الكتاب الذي بين يديه. فقد بدأ الظلام يتكاثف خاصة داخل السوق.

نفض مويس جراباً كان معلقا في وسط الدكان ووضع فيه أرغفة وبقولا، ثم قال للجاحظ وهو يناول جرابَه للغلام الواقف إلى جنبه:

- لا تنس أن الخناقين كثروا في البصرة منذ غُدر بالوالي العادل فاحذر.

لم ينتبه في حديث مويس إلا لتتابع حرف الراء الذي يلثغه مويس غيناً، مما حوّل الجملة في سمعه إلى غمغمات. رفع نظره عن الكتاب، فاقترب منه مويس، ونعلُه السندي يقرع بلاط الدكان:

- يا أبا عثمان، لقد خرج الغلمان، وأنا خارج، فلا تنس التحفظ، واحذر الخناقين إذا خرجت لقضاء حاجة.

أبعد الجاحظ الكتاب عن وجهه، رافعا حاجبيه الأغمّين اللذين لا يكادان يظهران في الظلام المتكاثف:

- الخناقون يهجمون لسلب الذهب والفضة يا مويس، وما أظنهم يهجمون لسلب أشعار العرب وعلوم الأوائل، وترجمات السريان المستغلقة.

- أخشى أن يظنوك مُوسرا من مياسير أهل البصرة أقعد به عدُّ الدراهم والدنانير عن ترك السوق ليلا، فيقتحموا عليك الدكان.

سكت مويس قليلا، ثم قال كأنه تذكر شيئا نسيه:

- وما يدريك أنهم علموا بجائزة الدنانير الألف التي بعث بها إليك الأمير بعد قراءته رسالتك الأخيرة؟

- لا لا، وهل تظن خناقي البصرة وفتاكها لا يعرفون أن هذا دكان وراق؟ يعرفون أنهم لو هجموا علينا لعادوا بأرسطو وأبي عبيدة مكبّلَيْن، لا بالصفراء والحمراء.

قالها الجاحظ وهو يتذكر بغبطة كيف كان يدفع الدوانق للوراقين ليتركوه يبيت في دكاكينهم للمطالعة.

نظر مويس إلى الممر الضيق أمام دكانه، وقال بصوت فيه خوف:

- حسبك! إن البلاء موكّل بالمنطق. لقد بدأت الدروب تُظلم.

مشى مويس جهة الباب وحذاؤه السندي يقرقع، بينما كان غلمانه ينتظرون في نهاية الممر مما يلي الساحة المؤدية إلى المسجد.

وضع الجاحظ الكتاب جانبا، ووقف ليحكم إغلاق الباب. ثم مد يسراه وخلع عمامته وجبته وبقي في إزار أسود، بدا في إزاره الأسود أنحف جسما من ذي قبل، إذ برز جسمه النحيل وصدره المحفور وعنقه الدقيقة ورأسه الصغير في هذه اللحظة كأنها أصغر وأقصر من ذي قبل. عاد إلى زاويته وأبعد بعض الكتب عن أطراف الحصير وصلى صلاة المغرب، ثم قام عن الحصير، وأوقد قنديلا، كان الدكان واسع الجوانب، وفيه دهليز يقود إلى حجرة النساخ.

عاد للجلوس في ركنه المفضل على حصير ووسادة جلدية محشوة بالليف بين أطمار الكتب.

جلس ساعات يقرأ في كتاب «الحيوان» لأرسطو ويدوّن ما يراها أخطاء وقع فيها المؤلف.

مرت ساعات، وفي غمرة انشغاله بالكتابة انطفأ القنديل. أصبح الظلام مطبقا. انزعج، إذ كيف أخذته المطالعة لدرجة عدم ملاحظته اقتراب انطفاء الفتيلة، وكيف سيوقد قنديلا آخر، بدأ يتحرك داخل الدكان باحثا عن جبته وعمامته.

وقف وبدأ يتحرك ببطء باحثا بيديه في الظلام المتراكم عن جبته وعمامته فوقعت يده عليهما، لبسهما، ثم لف الكراريس التي كان يكتب فيها، واندفع خارجا من السوق.

تمشى في أزقة السوق الحالكة الخالية من أي صوت، وبدأ ذهنه يقارن بين حركة السوق وضوضائه في النهار، ومواته المخيف بالليل. حتى ليخيل للواحد أنه لن يُنشر مرة أخرى، فها هو يمر من أمام دكان حميد القصاب، فلا يرى التزاحم والتصارخ والخيول والبغال والحمير وتسابَّ العامة! لا يسمع إلا نفسه تلهث وقدميه تقرعان أرضية السوق المبلّطة. سمع جلبة، فقفّ شعره! هل انكشفت حجب الغيب لمويس وسيهاجمني خناقون الآن؟

التفت فاختفى الصوت نهائيا!

وسمع ضحكات أطفال، كانوا يعبرون السوق متسابقين فعاد إليه قلبه.

وجد نفسه خارج السوق، مفكرا في ما عليه فعله. فلا يوجد مكار يحمله إلى بيته، ولا يستطيع المشي طويلا خوفا من الخناقين. كان يفكر في أصدقائه الذي يسكنون غير بعيد من سوق البصرة، وتذكر أن النظام يبيت مع أمه بمنزلها القريب. دق الباب، فخرج له النظام متزرا بإزار ملون وهو يقول:

- أبا عثمان؟ ماذا أتى بك في هذه الساعة؟

- كنت سأبيت في دكان مويس لإكمال بعض القراءات، ثم بدا لي أن أخرج بعد انطفاء القنديل.

- يا مرحبا وأهلا.

دخلا إلى الردهة الواسعة بين غرف المنزل، وتقدم النظام إلى غرفة على الجانب الأيمن مناديا الجاحظ أن يتبعه.

دخل النظام أولا، فيما تسمر الجاحظ عند الباب.

أوقد النظام فتيلة، ثم نادى الجاحظ فدخل وجلس على طرف الحصير.

خرج النظام ثم عاد بعد قليل حاملا لحافا ناعما ووسادتيْن وفراشا داكن اللون مهدّب الأطراف. قال النظام وهو يرتب الفراش:

- أليس من العجب أنك كنت سهران على كتاب «الحيوان» لأرسطو وأني كنت سهران أنقد كتابه الآخر في المنطق؟

- عجيب!

- لكني عانيت من الترجمة التي عندي. حتى كأن أرسطو -كما كان يقول شيخنا الخليل- يريد ما لا يقول، أو يقول ما لا يريد.

- الناسخون الماسخون والتراجمة الجاهلون داء دوي!

- إي وربي!

انتهى النظام من ترتيب فراش الجاحظ فأشار إليه أن يجلس، بينما عاد هو وجلس على طرف فراشه المملوء بالكتب والكراريس المتناثرة. ثم سأل:

- لقد ذهبت اليوم واشتريت غلاما سنديا بسبعة دنانير.

- كيف؟ سبعة فقط؟

- نعم، أما علمت أن أهل البصرة لا يشترون رقيق السند هذه الأيام؟

- كيف؟

- أما علمت بقصة المهلبي مع غلامه السندي وامرأته؟

- لا...لا. لقد انشغلت الأسبوع الماضي بتدبير بعض الأمور وذهبت للبادية.

كان النظام يتحدث والقنديل بينه وبين الجاحظ، مرددا النظر في ظل الجاحظ المنعكس على الجدار، مغالبا الضحك لبشاعة المنظر.

فقد بدت جبهة الجاحظ الناتئة ورأسه الصغير وعنقه الدقيق بشكل مضحك، إذ انسلت الرقبة وطالت مع دقتها فيما ازدادت جمجمته صغرا وأنفه تضاؤلا، وجبهته نتوءا. قال النظام:

- تعرف أن الوالي على إيالة السند من آل المهلب بن أبي صفرة.

- نعم.

- ورد البريد بخبر مستطير وقع له مع غلامه السندي. إذ دخل يوما -وهو من هو شرفا- فوجد غلامه وامرأته في لحاف واحد، وكان قد شاع بين الناس أن امرأته علقت بغلامه لكنه لم يسمع بالخبر، فلما رأى زوجته في أحضان العبد، كاد عقله يذهب. فقفز على الغلام ونادى بحديدة فخصاه بها.

- ثم ماذا؟

واصل النظام حديثه وهو يصلح طرف فتيلة المصباح قائلا:

- فعاش معه الغلام زمنا حتى نسي المهلبي الأمر، وكان للمهلبي ولدان من أحسن ما يكون الولد، فدخل يوما فوجد الغلام قد أوثقهما على حافة سقف البيت وجلس دونهما، فلما رآه الرجل

توسل إليه أن يرسل الغلامين فما زاده على أن قال له: إنه لن يرسلهما إلا إذا جلس وخصا نفسه أمامه حالا، أو قطع عضوه منه قصاصا.

ثم طال الحديث بينهما، فلما علم المهلبي أن الغلام عازم على قتل فلذتيْ كبده جلس وقطع ذلك العضو منه بيده والغلام ينظر. فلما فعل ذلك قال له غلامه: أما ما فعلتَ بنفسك فذاك قصاص، وأما أنا فسأدفُّ الغلامين زيادة عقوبة من عندي، ودفع الطفلين من الشاهق فماتا حالا.

- وما ذا بعد؟

ثم أُخِذ الغلامُ وعُذب وقُتل. ولهذا بدأ الناس يزهدون في غلمان السند حتى سمعت أنهم بيعوا بخمسة دنانير.

- ثم يلومونني أني لا أنوي التزوج من الحرائر؟

ابتسم النظام، متنفسا الصعداء قائلا، وما زال في نبرته نفَس حزين من القصة التي كان يرويها:

- أوه! لكن هذا أمر لا يقاس عليه، فهي قصة واحدة في ركن قصي من أركان الدنيا.

- لا، لا! أتثق بصلابة امرأة في وجه الإغراء بالحب؟

-- أعلم أنهن ضعيفات إذا سمعت آذانهن الحب وكلام العشاق.

ابتسم الجاحظ وهو يميل بمرفقه على وسادته:

- اسمع مني. لا توجد امرأة مهما بلغت من الجاه والتحصّن والتصوّن والعلو والجمال، ثم تكون من رجل -مهما بلغ ضَعَةً وحقارةً- بحيث يتحدث لها عن كلفه بها وحبه لها، وكيف أنها

أجمل نساء الدنيا ثم داوم على ذلك إلا أجابته طال الزمن أم قصر.

ظل النظام يستمع واضعا كفه اليسرى تحت خده الأيمن. فواصل الجاحظ قائلا:

- إن للكلمة على قلب المرأة سلطانا لا يوصف، فلو انفرد خادم بامرأة الملك وحدثها عن جمالها الخلاب والتفاتتها السخية، وعن تنهده وسهره واحتراقه في حبها ثم بكى لأجابته طائعة.

كان ذهن النظام يسافر في أثناء حديث صديقه مستعرضا صورا لا تنتهي مما سمعه وشاهده، ومما افترضه وخشيه، فظللت سحابة غم وجهه الأسمر الذي بدا تحت ضوء المصباح أكثر سمرة من ذي قبل، فبادر سائلا:

- ما العمل إذن؟ وطبيعة الدنيا لا تصح إلا بالاتصال بين الرجال والنساء؟

- العمل؟ العمل ألا نتزوج! فقد أكرمنا الله بهذه الأسواق التي تُجلب إليها حسان الروم والسند والهند والحبشة والفرنجة لنختار منها ما نشاء.

- لكن الغيرة على الحرة كالغيرة على الجارية سواء بسواء.

اعتدل الجاحظ في جلسته وقال:

- نعم هو ذاك، لكنْ هنا أمر آخر، فالجارية المملوكة إذا علمت باهتمام سيدها بها بقيت له عادة، ولا تطمح عينها لغيره لعلو منزلته على منزلتها وحقارتها عند نفسها، أما الحرة فعينٌ طامحة، وقلبٌ خفاقٌ، وشهوة مشبوبة. فهي مُنَشّأة على المنع من الخلوة

بالرجال فلذا يشتد ولعها بهم وشوقها إليهم، فهي في هذا الباب أكثر عرضة للفتنة من الجارية، ثم إن الجارية ملك يمينك، إن لاحظت عليها ما لا تحب بعتَها ونسيتَها، أما الحرة فلها أهلٌ وقبيل، وإرعادٌ وإبراق، فهي غُلٌّ مقيِّد، ودَين ثقيل.

خرج النظام من باب الغرفة ودخل بيت الخدم وصب ماء من قارورة فخار، ثم عاد حاملا كوزا مملوءا بالماء مده للجاحظ قائلا:

- إنك لعليم بمكنوناتهن!

- لقد عرفتُ ذلك من وزْني لتصرفاتهن وأخلاقهن، ألا ترى أن الحرة المتعففة منهن تشبه الأمير المخلوع من عرشه إذا زال جمالُها؟ فكلاهما مجرد من أملاكه التي كان بها يصول، لذلك لا يكره المخلوع رؤية أحد كرهَه رؤية من كان يعرفه وهو وراء الحجاب والحراس وواقفا بين السماطيْن. والحرة تضيق بنظر الفتيان إذا نقص جمالُها، لأنها فقدت مخالبها التي كانت بها تصول، ونابَها التي كانت بها تعض. فإذا تدلى بطنها الأهيف، أو انطفأت عيناها النجلاوان، أو جفّ ماء الحياة في خديها الأسيلين، كرهت أن يراها من كان يعرفها قبل ذلك. فإذا كانت لا تريد الجمال إلا لزوجها فلم تهتمّ بنظر الفتيان إليها على أي حال؟

- شيء عجيب! لكنَّ أحدَنا يودّ أن يكون حسن الهيئة، نظيف الملبس، جميلَ الطلعة، وحتى أنت يا أبا عثمان تحب ذلك، وليس للأمر صلة بفسق أو فجور فيك!

رفع الجاحظ حاجبيه وكأن ملاحظة النظام فاجأته فقال:

- إن الشعور سابق على العقل با أبا إسحاق. وشعوري أنهن لا

يفعلن ذلك إلا لتعلقهن بالفتيان. ولذا قلت لك مرارا إن العاقل لا يحتفل بالزواج ولا يهش للعرس.

- لماذا يا أبا عثمان؟

- هل يسعد الأسير بوضع القيود في يديه، وينظر إليهما كأنهما معصمان ذهبيان؟ إن الطلاق وحده -أبا إسحاق!- هو الجدير بالتخليد والحفاوة.

مد النظام يده إلى فتيلة المصباح التي بدأ زيتها ينحسر، وهو يشعر بشيء من الشفقة على صديقه، فقد تذكر تماضر وحبه لها، وكيف انتهت تلك الفتاة في أحضان علي بن المديني. صب زيتا من جام صغير مدوّر، وهو يقول مبتسما ابتسامة واضحة تحت ضوء المصباح:

- أما أنا يا أبا عثمان، فلا أنظر إلى امرأة حرة مستورة جميلة إلا خفق قلبي، ولن أترك الزواج من إحداهن لجواريك وغيرتك.

- أنا لا أنكر تحرك النفس لهن والتعلق بهن، قاتلهن الله! فالله تعالى خلق المرأة لإسعاد الدنيا وإقلاقها، فالمرأة الجميلة إذا لمحتها فجأة داخلة إلى دكان، أو رمقتَ خمارها ساقطا وهي تمشي الهوينا أبهجتك، وفرقتْ همَّك وجمعتْه، فهي تنفث البِشر والجمال أنى حلت، كأنها عطرٌ فواحٌ، أو خبرٌ سارّ، أو تحفةُ قادم، أو شفاءُ مريض، لكنها كذلك غُلٌّ لمن اقتربْ، وبهجة لمن ابتعد.

انحنى النظام جهة المصباح وهو يقول بصوت متعبٍ:

- أما أنا فأسأل الله أن ييسر لي حرة متعففة كريمة، وأسأله أن ييسر لك من حسناوات الروم والفرنجة والسند والهند ما شئت من جوار، لقد ابهارّ الليل -أبا عثمان- فدعنا نأخذ غفوة قبل الصبح.

انحنى الجاحظ على جنبه الأيمن، واستلقى النظام على فراشه غير بعيد. وبدأ الاثنان يسمعان بوضوح أصوات نباح كلاب متقطع من بعيد، ونهيق حمير بين الوهلة والأخرى.

جعل الجاحظ يتقلب في فراشه مفكرا في لؤم الحرائر وطباعهن، فلم يملك إلا أن تراءت له صورة تماضر.

تقلب في فراشه، منزعجا بعد أن أحس بخفقة في قلبه خالَها ذوتْ منذ حقبة. تململ في فراشه بعض الوقت وهو يجهد لطرد خيالها من ذهنه.

***

وقف النظام بقامته الفارعة وبين يديه إناء كبير مملوء خمرا، وقد كلف بعض صغار الطلاب بسقْيِ مجموعة من الحيوانات زقاقا من الخمر ليراقب سلوكها، كان يمشي بين الحيوانات، فاقترب منه طالب وقال:

- كيف نسقي العقرب؟

فقال دون أن يلتفت إليه:

- لقد صنع شيخنا العلاف مِحْقَنة كمحاقن المارستان خاصة بالعقارب.

وفي طرف الحائط الواسع، كان الجاحظ جالسا تحت ظل يتحدث عن آخر ما توصل إليه من نتائج، وحوله فتيان يعتجرون عمائم وبأيديهم أوراق:

- إن للكلب حسا دقيقا بالأوقات، فقد لاحظت أنه يُميز يوم

الجمعة عن غيره. ففي يوم الجمعة وحده يرمي القصابون ما فضل عنهم، وفي هذا اليوم وحده يخرج إلى ذلك المكان وينتظر لحظة إلقاء اللحم ليأكله.

كان الطلاب يستمعون إليه ويكتبون، ثم واصل:

- وقد راقبتُه أربعة أسابيع، ولم يشتبه عليه يوم الجمعة مع أي يوم آخر قط، مع أني أغلقت عليه وحبسته لأحجب عنه تعاقب الليل والنهار، فلم يخطئ مرة واحدة.

فجأة، جاء الخادم يركض:

- هناك جندي على الباب.

خرج النظام بسرعة، فبادره الجندي:

- أنا أسأل عن الجاحظ... يريده الأمير.

خشعت الأصوات في جنبات المنزل المخصص لمراقبة الحيوانات، فيما وقف الجاحظ... وركبتاه لا تكادان تحملانه.

ركب خلف الجندي على فرسه، وسارا في الطريق المغبرّ متجهين جهة دار أمير البصرة. أجهد نفسَه في تفسير سلوك الجندي ومحاولة فهم جهة الجند التي ينتمي إليها من ملابسه وطريقته في الحديث، كان يخشى أن يكون من جنود السجن، ثم خطر له أنه لم يرتكب ما يساق به إلى السجن، والجندي مهذب ومتأنق، فلعله ممن يرسلهم الأمير لإحضار من يكرمه.

كان الفرس الجامح يركض في الشوارع الضيقة المزدحمة، والجاحظ مشغول بمراجعة مسيرته لإيجاد سبب لاستدعاء الأمير له.

وجد نفسه، يدخل ردهة واسعة، ثم يتلقاه غلام يقوده إلى مجلس عامر، ما إن وقف حتى وقف الأمير من مكانه:

- أهلا وسهلا بأبي عثمان!

كانت تلك العبارة كافية لحل كل عقد الخوف التي تكاثفت على قلبه خلال الساعة الماضية، يجلس نحو خمسة رجال بعمائمهم الطويلة يتوسطهم أمير البصرة، فظهر الجاحظ بينهم كأنه متسول. فملابسه قذرة، وغير متسقة، ويظهر على أطراف ثوبه غبارٌ يشي بأنه جلس طويلا على أرض مغبرة.

تحرك الأمير في مجلسه وقال:

- لقد أسعدنا حضورك يا أبا عثمان، ولقد تمنينا رؤيتك بمجلسنا منذ زمن. قرأت كتابك عن الكتب، ووالله إنه لرائق.

أغْضى الجاحظُ حياءً، لكن الأمير صفق بيديه، فجاء غلام يركض.

- إليَّ بكتاب الجاحظ عن الكتب.

ثم التفت إلى الرجل الجالس عن يمينه وقال:

- هل قرأته؟

كان الرجل الجالس عن يمينِ الجاحظ شاعرا، يرى أن أيَّ مدح للنثر انتقاص من الشعر. فقال كاذبا:

- لا، ما سمعت به.

لمحه الجاحظ بحنق، ثم جاء صوت الأمير وهو يقلب كتاب الجاحظ:

- ما كتبت الإنس ولا الجن كتابا عن الكتب أفضل من هذا.

قال الجاحظ بزهو:

- عقلاء الخليقة لا يحصون، لكني كما قال الأمير لم أطلع على كتاب في بابه.

بدأ الأمير يتحدث عن بعض الفقرات التي تعجبه في الكتاب فقرأ بصوت مسموع:

- «الكتاب وعاءٌ ملئ علماً وظَرفٌ حُشيَ ظرفاً، إن شئتَ كان أعيا من باقل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل، وإن شئت ضحكتَ من نوادره وإن شئت بكيتَ من مواعظه، ومن لك بواعظٍ مُلْهٍ وبناسك فاتك وناطق أخرس... وما رأيت بستاناً يحمل في ردنٍ، وروضةً تُنقل في حِجر ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء غيره، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من في الأرض وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة!».

وضع الأمير الكتاب عن يمينه، فيما كان أحد الغلمان يضع حساء ورغيفا ساخنا أمام كل واحد من الجالسين، بدأ الجاحظ يغالب ريقه حتى لا يسيل، لكنه لم يستطع. رفع كمه وتظاهر بحك أنفه حتى أفرغ ريقه في كمه، فهو لم يأكل طعاما مطبوخا منذ أسبوع.

قال الأمير وهو يقلب الكتاب:

- سمعت كثيرا عن حبك للكتب..

- أصلح الله الأمير، كل ما سمعتموه صحيح. فأنا «لا أعلم جاراً أبرَّ ولا خليطاً أنصفَ، ولا رفيقاً أطوعَ ولا معلما أخضعَ، ولا

صاحبا أظهر كفاية ولا عناية، ولا أقل إملالاً وإبراماً، ولا أبعد عن مراء ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال؛ من كتاب. ولا أعم بياناً ولا أحسن مؤاتاة ولا أعجل مكافأة، ولا شجرة أطول عمراً ولا أطيب ثمراً، ولا أقرب مجتنىً ولا أسرع إدراكاً ولا أوجد في كل إبان، من كتاب».

كان خمستهم ينظرون إليه، متعجبين من ألفاظه الضخمة وذهنه الحاضر، لكنه كان يغالب ريقه حتى لا يسيل، فرائحة الحساء المملوء بالبهارات تداهم أنفه، وهو يغالب نفسه حياء. فلا يعرف هل عليه أن يأكل والأمير ما زال مقبلا عليه، أم يمكنه أخذ ما يمنع به سيلان ريقه، فهذه أول مرة يدخل فيها على أمير. وقد سمع كثيرا عن طرق المحادثة والمؤاكلة مع الأمراء.

ابتلع ريقه بمضض، ملتفتا إلى الشاعر الجالس عن يمين الأمير، فلاحظ أنه لم يلمس الرغيف ولا الحساء.

مدّ يده إلى الخبز المدهون بالزيت وأمسك طرف الرغيف. ثم تركه.

انتبه الأمير إلى ارتباكه، كما لاحظ حياءه من البدء في الأكل فقال:

- بسم الله!

وبدأ الأمير برشف الحساء الساخن.

أمسك الجاحظ الإناء ورشف بصوت مسموع، لمح في وجه الشاعر انزعاجا منه.

التفت الأمير إليه قائلا:

- سمعت أنك بعت المنزل الوحيد الذي ورثته من الوالدة لتشتري

به كتبا؟

- هو كذلك. لكن شيخنا النظام باع كل ما يملكه يوما -وما هو بكثير- لشراء أصباغ لرسم صورة الأرض على صخرة.

- سمعت أنه من عقلاء الخليقة.

- هو كذلك.

- إيه يا أبا عثمان!

- إن الكتب -أيها الأمير- هي آثار العقول الصحيحة وثمرة الأذهان اللطيفة، ولولا الكتب لغلب «سلطانُ النسيان سلطانَ الذكر، ولما كان للناس مفزعٌ إلى موضع استذكار، ولو لم يتم ذلك لحُرمنا أكثر النفع».

تحرك الشاعر في مكانه لاعبا بطرف عمامته وقال:

- لكن العرب لم تخلد أيامها وأمجادها إلا في القصيد، أما النثر فتكلفٌ أعجمي ألجأت إليه العجمة.

قال الجاحظ مفكرا في أن الشاعر يسعى لانتقاصه أمام الأمير:

- صدقت في أن العرب لم تخلد أيامها إلا في الشعر، ولا أحد ينقص من قيمة الشعر، لكن الاعتراف بفضيلة الشعر لا يستلزم الانتقاص من فضيلة النثر. أما سبب صدود العرب عن النثر فلأنهم كانوا أمة أمية، لا تقرأ ولا تكتب. فلما جاء الإسلام بالدين تعلموا فكتبوا، وانتهت إليهم محاسن الأمم وتجمعت فيهم، ومن تلك المحاسن النثر، ثم ألا ترى أن القرآن ليس بشعر!

واصل الجاحظ حديثه، ناسيا الحساءَ الساخن الذي بين يديه، حمي

الدم في عروقه وهو ينظر بغيظ إلى نظرات الشاعر وصلفه وتكبره، فواصل قائلا:

- وإذا كان المرء يطرب للبيت والبيتين فإن الكتاب صديق خفيف «لا يبتدئك في حال شغلك ولا في أوقات عدم نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل والتذمم، ومن لك بزائر إن شئت جعلت زيارته غِبّاً ووِرده خِمساً وإن شئت لزمك لزوم ظلك، ثم إن الكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يَقليك، والرفيق الذي لا يملك، والمستميح الذي لا يؤذيك، والجار الذي لا يستبطئك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق».

ابتسم الأمير مفكرا في أن الجاحظ يتهم شاعره بالنفاق، منبهرا من حلاوة حديثه وفصاحة مخارجه، مع دمامته التي تزداد اتضاحا كلما امتد المجلس. ثم قال:

- لكن الشعر يرفع صاحبه لمنادمة الأمراء والخلفاء، وفيه الحكم والمواعظ، وبه يسترضى المحبوب.

- هو كذلك أيها الأمير. «والكتاب هو الذي إن نظرتَ فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّد بيانك، وفخّم ألفاظك، وعمّر صدرك، وحباك تعظيم الأقوام، ومنحك صداقة الملوك، يطيعك في الليل طاعته بالنهار، وفي السفر طاعته في الحضر، وهو المعلم الذي إن افتقرتَ إليه لم يحقّرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة وإن عُزلتَ لم يدعْ طاعتك، وإن هبت عليك ريح أعدائك لم ينقلب عليك!».

تقافزتْ حواجب الرجلين اللذين كانا جالسين في طرف المجلس، وظللتْ سحابةُ خجل وجه الشاعر، وتشاغل الأمير بغمس قطعة خبز في الحساء الذي بين يديه. فقد كان الشاعر صديقا لأمير البصرة السابق، فلما عُزل تنكر له والتحق بباب الأمير الجديد.

قال الأمير ملتفتا إلى الرجل البدين الجالس في طرف المجلس، محاولا تغيير الموضوع:

- ما أخبار الناس يا بهلول!

تحرك الرجل المعروف بقدرته على سرد القصص وتتبع تفاصيل القصور في بغداد قائلا:

- لا حديث الآن في بغداد إلا عن الحشوة وأصحاب الحديث وكثرة أتباعهم.

قال الجاحظ متهللا:

- ألستَ بهلول بن قيس؟

فقال الرجل، بهدوء:

- بلى!

- لقد كنت أبحث عنك منذ زمن، فأنا كما تعلم رجل من أهل صناعة الكلام، مولع بتوثيق الأقاصيص، ولقد سمعت أنك كنت حاضرا عندما قضى هارون الرشيد على البرامكة.

ضحك الأمير بصوت عال وقال:

- لا يا أبا عثمان، لابد أن يدفع لك مالا! فهو لا يمل من سرد تلك القصة!

ضحك بهلول ضحكة بدون صوت، بل ظهرت على اهتزاز بطنه الضخم.

فقال الجاحظ:

- إنْ أذِنَ الأمير سمعناها، فلا بد لي من توثيق الأمر.

أشار الأمير بيده لبهلول، فاعتدل في جلسته وبدأ يقص. وكان إذا تحدث عن نكبة البرامكة يعيشها بأحاسيسه، وكأنها تتكشف أمامه للمرة الأولى.

- لقد حدثني بالقصة مسرور خادم أمير المؤمنين الرشيد وسيّافه، أياما بعد وقوعها سنة سبع وثمانين ومائة، ومسرور هو الذي قام بقطع رأس جعفر البرمكي.

مال الجاحظ بصدره إلى الأمام واضعا يده تحت ذقنه منصتا بتطلع شديد لسماع التفاصيل.

- كان جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي رضيع الرشيد؛ إذ ولدا في يوم واحد وفي بيت واحد، وكان آل برمك من صنائع الخلافة ومن أعمدتها، ومنذ تولى الرشيد الخلافة أصبحوا يديرون شؤون الدولة لا يغيب عنهم منها شيء.

فقاطعه الأمير قائلا:

- لقد سمعتُ أن الرشيد كان يطلب بعض المال فلا يجده إلا عن طريق البرامكة.

واصل بهلول سرد تفاصيل القصة التي ظلت حديث الناس أعواما، وكان إذا حدث بها تخيل المشهد كما هو ليلة الواقعة.

كان آل برمك في قصورهم ببغداد، يعيّنون حكام الولايات ويديرون شؤون البلاد مدلين بعلاقتهم بالرشيد.

وكان الرشيد جالسا وسط قصره ببغداد ينكت بقضيب في الأرض، لا يزيد على أن يردد:

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا
وما عُلّم الإنسانُ إلا ليعلما!

ثم وقف من مكانه ونادى غلامه مسرورا، فلباه راكضا.

- اذهب إلى قصر جعفر وائتني برأسه!

جزم مسرور بأنه لم يفهم ما قال الرشيد. فقال بتلعثم:

- ماذا يا أمير المؤمنين؟!

- قلت: ائتني حالا برأس جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك!

ورمى العصا التي كانت بيده على الأرض.

تجمد الجندي في مكانه، وعجز عن تخيل نفسه وهو يضرب رأس جعفر بن يحيى.

لم يتحرك.

دار الرشيد بهدوء ورفع بصره في وجه مسرور قائلا:

- إن لم تأتني به ناديتُ من يقطع رأسك أولا، ورأسه ثانيا.

استدار الجندي، كالمخمور ومشى فتردد صدى وقع حذاءيه العسكريين في الردهة الواسعة التي تتسلل إليها رياح باردة آتية من جهة دجلة.

كان جعفر بن يحيى جالسا في قصره وبين يديه مبخرةٌ وعن يساره

جارية تغني:

فـلا تبعُـدْ فـكلُّ فتـىً سـيأتي

علـيـه الموت يطـرق أو يغادي!

وقف الجندي مُمْتقعَ اللون ولم يتكلم.

رفع جعفر وجهه إليه، وقد خطر بباله أن أمرا خطيرا حدث في الخلافة:

- ما ذا عندك يا مسرور؟

- يا أبا الفضل!.... لقد....

كان جعفر مستلقيا على وسادة ضخمة، فوقف وتقدم قائلا:

- ما الأمر؟

- لقد أمرني أمير المؤمنين أن آتيه برأسك!

تكلف جعفر ضحكة وقال:

- لعله يمازحك يا مسرور! عدْ إليه وقل له إنك فعلتها..

- إنه لا يمزح يا أبا الفضل، فاكتب وصيتك إن كانت لك وصية.

وقف جعفر مصدوما مشدوها معلقا بين حياة رغدة ملذوذة فكهة، وموت كالح فاغرٍ فاه سيفترسه، ردد بصره في القصر المنيف، والجواري الحسان، ثم ترامى إلى سمعه صراخ لعب أطفاله من وراء الستائر في إحدى الغرف.

تذكر تغير سلوك الرشيد معه خلال الأيام الماضية، وكيف قرّعه إذ دخل عليه فجأة دون استئذان كعادته:

- أيَدخلُ علينا في بيوتنا دون استئذان؟

وكيف اعتذر له مذكرا إياه بأنه هو الذي أذن له في ذلك.

رفع بصره إلى مسرور متذكرا ساعات الأنس والصفاء مع الرشيد على شواطئ دجلة، وكيف كان مسرور خادما طيعا له.

أعاد النظر، فرأى دموع مسرور تتحدر، فقال له بصوت مُتهدِّج:

- لعل أمير المؤمنين يمازحنا ....

- لقد كان مغضبا وهددني بالقتل إن لم آت... ب..

قفز جعفر، وقبل رجلَ مسرور متوسلا:

- أتوسل إليك أن ترجع إليه، فلعله يمزح...

انتزع الخادم قدمه من يدي الوزير، وألقى نظرة على الجارية التي كانت تغني، فرآها تركض خائفة لتختفي في إحدى الغرف المجاورة.

مشى وسط ردهة واسعة بين جدران مزينة بالستائر المزركشة، وأرضية مفروشة بالسجاد الأحمر، فيما كانت رائحة البخور والعطور والخوف تملأ المكان.

كان الرشيد واقفا حيث هو، والقضيب لا يفارق يده.

سمع وقع أقدام مسرور قادما.... ثم رآه. مشى من مكانه قائلا بهدوء:

- أين رأسه؟

- لقد طلب....

ثم وقع القضيب على رأس مسرور، وتردد صدى صوت الرشيد:

- أقسم بقرابتي من المهدي، إن لم تأت به لأقطعن رأسك بيدي!

كان جعفر ساجدا يصلي، عندما عاد مسرور.

سلم من صلاته، وقال بصوت قادم من عالم الأموات:

- ما ذا قال؟

- هو الموت يا أبا الفضل.

قام من فوق مصلاه ومشى خطوات، وقال بصوت هادئ:

- لقد أوصيت يا مسرور، وهذا رأسي...

أخرج جعفر منديلا وشده على عينيه ومدّ رقبته، كان ذهنه ضاجا بآلاف الصور والأخيلة والأسئلة والأماني والمخاوف.

ثم سمع صوت السيف يخرج من غمده... وتردد صوت وقعه في المكان.

وسمع الرشيد وقع أقدام مسرور قادما، ثم لمح رأس صديقه ورضيعه جعفر، عض على شفتيه محاولا كبح دموع تتدافع للنزول، ثم خطر له أن الخادم مسرور قد ينقل ذلك للناس. فعض على شفتيه وقال:

- صدق الأعرابي:

ونبكي حين نقتُلكمْ عليكمْ
ونقتلكمْ، كأنا لا نبالي!

رفع وجهه في مسرور الذي كان يبكي بكاء مرا:

- إن الملك عقيم لا رحم له يا مسرور! خذ ذلك الكتاب، ووجه إلى الأمصار بمصادرة واستصفاء أموال كل آل برمك. لقد أرسلت من قبض على يحيى وخالد ابنيْ برمك.

أنهى بهلول حديثه كعادته وهو ينظر إلى أمير البصرة قائلا:

- ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فقال الجاحظ، وذهنه مسكون بآلاف الأسئلة:

- هذا هو ما تقتضيه تجارب الأمم، فالملك شجرةٌ لا تنبت إلا بالدم.

بعد وقت، أشار الأمير لجلسائه بالانصراف، وللجاحظ بالبقاء.

ثم جاء غلام يحمل صرة مملوءة دنانير ووضعها بين يدي الجاحظ. وجاء صوت الأمير:

- هذه صلتنا لك، خمسة آلاف دينار ومعها غلام يخدمك.

لم يكد الجاحظ يصدق ما يسمع، غير أن الحَذَر الذي تركته قصة البرامكة في ركبتيه وقف حاجزا دون سروره بالمبلغ، فذهنه مملوء بصورة المال والسلطان الذي كان يسبح فيه البرامكة، ثم تراءت له صورة بشار بن برد تحت وقع السياط.

تزاحمت في ذهنه تلك الأفكار وهو يرى نفسه جالسا في بيت أمير البصرة.

وقف من مكانه، وقلبه موزع بين سرور طاغٍ بهذا المال الوفير الذي ما كان يحلم به، وتلك الصور والأخيلة التي تطارده خوفا من الاقتراب من السلطان حتى لا ينقلب عليه يوما.

بعد ساعة، كان الجندي يوصل الجاحظ وخادمه إلى منزله بحي العلافين قرب حمير وبغال حميد. لكن صرة الدنانير التي ينوء بها جيبه تشي بأنه لم يعد ينتمي لهذا الحي البائس.

* * *

كان درب الوراقين بسوق البصرة غاصا كالعادة في مثل هذه الساعة من كل جمعة، إذ يُخصص تجار الكتب والأوراق والجلود القادمون من المدن الأخرى عصر الجمعة لعرض بضائعهم الجديدة، دخل الجاحظ من جهة ساحة الحمام، فأحس باختلاط روائح متنافرة في الدرب الضيق. فرائحة الجلود المصبوغة، والكاغد السمرقندي، وعرق الأجساد المختلط بالعطور والأصباغ، شكلت مزيجا غريبا في أنفه رغم إلفه الطويل للمكان. ومع نكارة مزيج الروائح في أنفه، فقد شعر براحة غامرة وهو يرى أضاميم الكتب، وعمائمَ الوراقين الغادين الرئحين.

فلا يوجد مكان يسحره سحرَ هذه الدكاكين الغاصة بالناس، وتلك الكتب المتناثرة، وهذا الجو المكتوم قليلا بروائح الجلد والحبر والكاغد.

فكر في أن هذه أول مرة يدخل فيها السوق وجيبه مملوءٌ دنانير، ثم تذكر أن هذه الجبة الزرقاء والطيلسان والقميص الفاخر، لم تُر عليه قبل اليوم في درب الوراقين.

لاحظ الانبساط والنشاط الذي خلفته هذه الفكرة في رأسه، وهو ينزوي في زاوية ليفسح الطريق لرجل مُحدَودَب الظهر، أنّبته نفسه كيف يسعد كل هذه السعادة وتزداد ثقته بنفسه بسبب قبضة من الدنانير، وخِرقٍ من القماش. فإذا كانت قبضة الدنانير تعمل كل هذا العمل فلمَ لمْ ينشغل بجمع المال ويترك كتبه من أول يوم؟

ظل يسير وسط زحام الناس، وتترامى إلى سمعه المرهف عبارات من الفارسية والسريانية وكلام النبط.

ما إن اقترب من دكان سهل بن هارون حتى تراءى له كتبيٌ من سمرقند وبين يديه حاوية كتب كبيرة. كان التاجر واقفا في طرف الدرب مما يلي باب دكان سهل، ويتجمع عليه عشرات من النظارة يفتشون بضاعته.

وكان سهل واقفا على باب دكانه منزعجا. فقد سبق أن حذر التاجر من فتح حاويته أمام دكانه لأن ذلك يحجب مدخل دكانه عن المشترين. غير أن التاجر ذهب إلى أهل الحسبة المسؤولين عن تنظيم السوق فأذِنوا له.

ظل سهل يتردد أمام دكانه ذهابا وإيابا لا يكاد يستقر من شدة الغضب.

اندس الجاحظ وسط المتجمعين على التاجر السمرقندي لتصفح الكتب، ناظرا بطرف خفي إلى سهل الذي لم يلاحظ وجوده، ثم مشى تاركا حاوية التاجر، وذهب إلى جهة الدرب الأخرى ثم جاء إلى دكان سهل متظاهرا بأنه قدم حالا.

دخل الدكانَ والتفت إلى سهل قائلا:

- ما بال هذا التاجر يضيق عليك رزقك؟

فتقدم إليه سهل ووجهه يكاد ينفطر غضبا:

- والله ما أدري! لم يدخل علي مشترٍ طيلة هذا اليوم المنحوس.

- ياله من سمرقندي هلع! لكأن القائل عناه حين قال:

كأن بلاد الله وهي فسيحةٌ

على التاجر الهِلَّوْعِ كِفةُ حابلِ!

هل تآكلتْ أطراف الأرض وانحسرت البسيطة تحت قدميه حتى لم يبق منها إلا عتبة دكانك؟

رمى الجاحظ العبارة، ثم استنفر كل طاقاته تلهفا لما قد يأتي به سهل. وكان سهل يعلم أن الجاحظ يسخر منه، لكنه كان منزعجا مغضبا لدرجة أنه لم يضحك من تحريف الجاحظ لبيت الشعر. فأخرج رأسه من باب دكانه والتفت إلى التاجر وقال بصوت منكر:

- والله، والله!

مطّ كلمة «واللـــــهِ» مطاً شديدا، واضعا سبابته على أرنبة أنفه، ثم سكت قليلا، وخرج فجأة من باب الدكان وصاح:

- والله! والله! لئن لم تترك عتبة دكاني لأضربنك ضربَ غرائبِ الإبل، أوْ ضرب هبيرة لجاريتها في سوق البصرة، أو ضرب المعلم البليدِ لتلميذه الأبله، أو ضرب الحجاج لأهل العراق!

ارتبك التاجر، وانحنى على بضاعته يجمعها وهو يقول بنبرة مشحونة خوفا واستسلاما:

- خيرا يا أخي. سأنصرف.

انهمك التاجر في لف أطراف حاويته، فيما كان الجاحظ يضع طرف طيلسانه الأنيق على فيه مخفيا ضحكه.

عاد سهل إلى دكانه، فتلقاه الجاحظ قائلا:

- قاتل الله أهل سمرقند إنهم قوم سوء!

جلسا على حصير أنيق مصنوع من جريد النخل، على أطرافه طنافس أنيقة، فيما كانت أطمار الكتب المرتبة بإتقان تحيط بهما.

كان سهل لا يزال مغضبا فلم يُجارِ الجاحظَ في حديثه، بل جلس إلى جانبه، فارتختْ عمامتُه المهترئة، فبدا شعر رأسه ملبدا متسخا كأنه لم يغسل منذ شهر.

التفت سهل إلى صديقه وعيناه العميقتان تدوران متأملتين ملابسه الفاخرة دون أن يتكلم.

لاحظ الجاحظ انشغال عينيْ سهل بالنظر إلى ملابسه الفاخرة، كانتا تدوران بسرعة وهما نصف دامعتين ونصف محمرّتين، نظر الجاحظ إليه، فلما التقت عيونهما أغضى سهل متشاغلا بمناداة أحد عماله، كان الجاحظ يعرف المشاعر المختلطة في نفس صديقه.

فهو نصف سعيد بما سمع قبل أيام من منح أمير البصرة مالا وافرا له، لكنه في ذات الوقت مستشيط الفؤاد حنقا لأن الوالي كان ينبغي أن يعطيه هو أيضا.

فما يجتاحه ليس حسدا صرفا، وليس غبطة أيضا. فهي مشاعر مختلطة فيها من الغبطة ومن الحسد ومن الغيرة، ومن الرضا ومن الغضب ومن اليأس.

جاء أحد الغلمان بحساء ساخن وتمر وزبيب، ثم بدآ في الحديث عن الكتب، غير أن كلا منهما كان يعلم أن ما يتحدثان فيه ما هو إلا مقدمات لما يريدان الحديث عنه، لذلك كان كل منهما يرمي الكلام على عواهنه دون اكتراث، فلا يلاحظ جليسه، ولو لاحظ لما اهتم لأن النفوس مشغولة بالتفكير في حديث آخر يودّ كل منهما أن يبدأه صديقه قبله.

جعل الجاحظ يرمي في فيه تمرة، ثم يُتبعها بجرعة حساء وهو يتحدث بهدوء. فجأة، دخل عبود إلى الدكان. كان عبود يلبس جبة

حريرية ملونة ويمشي وراءه غلام، التفت عبود إلى الجاحظ قائلا بصوت ساخر:

- تبغْددْتَ يا أبا عثمان؟!

رمى سهل كتابا كان بيده ملتفتا بكل حواسه:

- ألا ترى ملابسه التي يتيه فيها كأنه طاووس من طواويس خراسان؟

انفرجت أسارير الجاحظ ملاحظاً أن وجود عبود جعل حديثه مع صديقه أسهل، مع أن العلاقة بينه وبين سهل أمتن من علاقته بعبود، لكن الأنفس مهما تقاربت تظل بها مساحات شائكة لا يدخلها الصديق دون استئذان أو وسيط.

ابتسم الجاحظ وهو يقول:

- لم أتبغددْ، بل ما زلتُ في البصرة، وإن تركتُ حي العلاّفين، وما زلت أعرف مكان حُميد المكاري.

أزاح عبود عمامته وهو يهم بالجلوس إلى جانب الجاحظ:

- دعك من هذا يا أبا عثمان، لكن قل لي كم كانت الجائزة. فقد سمعت أنها عشرة آلاف دينار، وسمعت ثلاثة آلاف.

- المُقلّل أصدق يا عبود.

وقف سهل وتناول كتابا من فوق الرف وصكه بيده لينفض عنه الغبار وقال:

- جزى الله عنك هذا الكتاب خيرا يا أبا عثمان! ثلاثة آلاف لكتابتك هذه الرسالة التي أستطيع كتابتها بين الظهر والعصر؟

ضرب عبود فخذ الجاحظ، وهو يقول:

- حدثنا عن قصة مجالستك للأمير عندما دعاك؟

قبل أن يجيب الجاحظ، التفت خلسة لتأمل وجه صديقه سهل، فرآه مُستَنفَراً لسماع الخبر يكاد يخرج من جلده، وأهداب عينيه الكثيفة تتراقص، فأراد أن يعبث به قليلا فقال:

- كيف أصف للدهماء مجالسة الأمراء؟

لكن سهلا كان يعرف صديقه، فقال له بنصف ابتسامة:

- ألم تقل إنك لم تتبغدد؟

- نعم يا ابنَ هارون. لكن كيف يمكن وصف الخمر للناسك، ولذةِ النصر للجبان القاعد؟ وكيف يمكنني وصف لذة المضاجعة للحصور؟!

ثم ابتلع الجاحظ لسانه خجلا، فقد نسي أنه يتحدث إلى عبود، لاحظ سهل ذلك فقطع الحديث قائلا:

- لا تطل الدَّلال وهاتِ المقالَ، يا أبا عثمان!

أحس عبود بطعنة في قلبه تعوّد على تحمل مثيلاتها منذ مراهقته، فاعتدل في جلسته ومال على الجاحظ قائلا بهمس، وصوت أسنانه -وهو يقضم تمرة- يخفي بعض ما يقوله:

- لقد وجدتُ لك الجارية التي تنسيك أيام الحرمان بين حي العلافين ودرب الطويل.

شم الجاحظ رائحة خمر قوية من أنفاس صديقه. فأجابه مشيحا عنه بوجهه، متظاهرا بأخذ تمرة من الصحن:

- هذا أمر طيب.

لكن عبودا اقترب منه أكثر، فازدادت حدة رائحة الصهباء وهو يهمس:

- لكنك إذا كنت تريدها ستعطيني كل ما أعطاك أمير البصرة.

كان سهل ينشغل ما بين الفينة وأختها بالنقاش مع أحد عماله. فالتفت إليهما وقال:

- فيمَ تتهامسان؟

- عرضت على أبي عثمان شراء جارية لي كالقمر.

اعتدل سهل في جلسته -وهو يطوي طرف الحصير ليزيل حجارة صغيرة تجمعت تحته- وقال:

- أبو عثمان لن يشتري جارية، بل سينتقي من بيوتات البصرة من تحلو له.

فقال أبو عثمان بسرعة بنبرة غاضبة:

- لا والله. أنا لن أتزوج حرّة.

- ولمَ؟

- أنا رجل أعيش كما تعلمون على صناعة الكلام، فإذا تزوجت حرةً قيدتني بأخوالها وأعمامها، ونكدت خاطري بالذهاب إلى الأعراس والولائم، أما الجارية فخادمتك متى أردت خادمة، ومتعتك متى أردت متعة. وإذا نكدت عليك عيشك رميتها بين يدي أول نخاس يهودي تراه في طريقك.

ضحك سهل فاهتز جسمه النحيل كاملا، وهو يشد عليه طرف

جبته المتسخة وقال:

- والحرة تطلب من المال بحجم ما تزعم أنها تكنّ من الحب. والمال -كما تعلمون- معدودٌ حاضر، والحب دَينٌ ونسيئة.

التفت عبود باحثا بعينيه الناعستين عن غلامه فرآه أمام الباب واقفا يتحدث مع أحد الغلمان، ثم لمح الشمس تدنو للغروب، وحركة الناس تتكاثف في الدرب خارجين من السوق.

التفت إلى الجاحظ وقال بهمس:

- ما رأيك أن تأتي معي لترى الجارية، وتسمع وتطرب.

بعد قليل، كان الرجلان يشقان الدرب الضيق وسط أمواج الناس المسرعين العائدين إلى بيوتهم، بدأ الظلام يغزو جنبات السوق، وهبت رياح شمالية باردة، ظهرت حدتها في تلفف بعض الراجلين في ملابسهم وتقنع بعضهم بعمائمهم. وسط الرائحين، كانت عمامة الجاحظ تعلو وتهبط وهو راكب على بغلٍ أشهب، فيما يمسك غلام عبود بزمام فرس سيده ماشيا وسط الضوضاء وتصاعدِ الغبار، ونهيق الحمير ورغاء الشاء.

* * *

الدوحة، 1439 هـ

كان القروي جالسا يكتب في طرف غرفة الأخبار. رنّ هاتفه، فرأى شاشته تقول: «مطوعة بريدة تتصل».

قفز ممسكا الهاتف:

- علوو

- تعرف كوستا الكورنيش؟

- طبعا.

- نلتقي هناك بعد ربع ساعة!

طار من مكانه، ولم يكتمل ربع الساعة حتى كان هناك. بدت حصة شاحبةً ومنهكة. كانت ترتدي عباءة تحتها قميص زهري اللون، فيما كانت عباءتها تنحسر بين الفينة والأخرى عن بنطال جينز أزرق.

- خيرا؟ تبدين مرهقة؟ ما الأمر؟ ما الذي؟

جمعتْ أطرافَ أصابعها وأشارت بها قائلة:

- حبة حبة!

جلسا في ركن المقهى، رمتْ نظرة على مياه الخليج الهادئة، ثم انشغلت بالنظر إلى عدة رجال يركضون ووراءهم أطفال على دراجاتهم الهوائية.

بدت هادئة البال بعيدة من التوتر، مع أنها المرة الأولى التي يجلسان فيها معا في مكان عام.

كان القروي يحاول إلجام فمه عن السؤال، فذهنه مترعٌ بالأسئلة الحائرة، ثم إن هدوءها استفزه أيضا.

هل هو هدوء اليأس أم هدوء الظفر؟ هل هو هدوء من شعر بالراحة لانقطاع الأمل، أم هدوء الظفر ونيل المبتغى؟

لم يستطع الصبر، ولا انتظار حديثها فقال:

- ما الخبر؟ أين كنت؟ إن شاء الله صحتك طيبة!

أدخلت يدها في حقيبتها الصغيرة، وأخرجت هاتف آيفون جديدا ثم ضبطته على نمط الطيران، ووضعته تحت فخذها. خطر له أن يمازحها قائلا:

- الله أكبر! امتلكتِ آي فون؟ هل قررت أخيرا العبور إلى عالم الحضارة!

لكن اللحظة كانت كثيفة عن ذلك المزاح، فابتلع كلماته، وسمعها تقول:

- القصة طويلة.

- أيوه.

- المهم، من الآخر.

- أيوه.

- كلمت أمي وكلمتْ والدي فغضب. كان نصف غضبه عائدا إلى أننا تعارفنا دون أن يعلم، والنصف الآخر لأنه لا يريدني أن

أتزوج إلا من الناس الذين يعرفهم.

- طيب

- المهم أني تعبت كثيرا، ودخلت المستشفى، قلت لهم إني لن أتزوج إلا من أرضاه، أو لن أتزوج. كانت قصة طويلة عريضة، ثم جلستُ في المستشفى ثلاثة أيام.

شعر القروي بنياط قلبه تتقطع، رحمها وهي تتحدث، نظر إلى وجهها الطفولي وعينيها الذاويتين العميقتين وتخيلها طريحة في المستشفى والممرضات من حولها.... كل هذا بسببه هو. شعر بألم مشوب بصبابة حلوة، آلمه أن تكون عانتْ بسببه، لكنه طرب لفكرة دخول فتاة المستشفى بسبب الميل إليه. ثم خطر له كم هو حقير أن يجتمع ذانك الشعوران في قلبه، كيف يزهو بجراح الآخرين، وكيف يطرب لشقاء محبوبته.

كانت قد توقفت عن الكلام منذ ثوان لكنه لم ينتبه، فقد غرق في أفكاره المتناقضة، رمى نظرة على مياه الخليج الهادئة وعلى فندق الشيراتون، ثم قال بتلعثم:

- وكيف انتهت القصة؟

لم تجبه. فقد شعرت أنه متطلع للنتائج أكثر من تطلعه للوقوف على معاناتها خلال الأيام الماضية، التفت إلى الطاولة التي بجانبها فرأى سيدة ضخمة الجثة جالسة مع رجل يكاد الهزال يفنيه، وكانت المرأة الضخمة لا تكف عن الحديث والضحك بصوت عال، أما الرجل فلا يرفع بصره عن هاتفه. أشاحت بوجهها وهي تتساءل هل ستصبح يوما من الأيام في هذه الحالة، وقالت:

- المهم، أني صممت على رأيي. وطلبَ والدي مهلةً للتفكير واستشارة أخي الكبير، الموجود ببريطانيا الآن.

- خيرا إن شاء الله.

ردد بصره في أطراف المقهى بعد إفاقته من الصدمة قائلا:

- أوَ متأكدةٌ أنتِ أن المكان هنا مناسب؟

تحركت في كرسيها وقالت بتنهد:

- ما يهمني شيء. حاولتُ مداراتهم والسيرَ على طريقتهم ومع ذلك لم يقدروا ذلك. الآن لا أبالي.

ثم خطر له السؤال: ماذا لو دخل أبوها أو أخوها ووجداه معها؟ كيف سيتصرفان؟ ثم تخيل المقاعد تتطاير في المقهى والصراخ يرتفع، والمعركة حامية بينه وبين والدها أو أخيها.

حاول تخفيف جو الحزن والتوتر المخيم:

- مبروك الهاتف الذكي، أخيرا عرفتِ أن مخابرات العالم لا تطاردك!

- لا لا، لم أضع عليه أي تطبيق من هذه التطبيقات.

- اشتريته للتبرك مثلا؟

- لا، هناك برامج آمنة من الـ «open source» سأنزلها. هي برامج مثل البرامج التي عندكم لكنها ليست تابعة للشركات الكبرى أو الحكومات، فهي تطبيقات يصممها الناشطون المؤمنون بالحرية والخصوصية الفردية.

كان يستمع إليها مفكرا في خوفها المَرَضي من التجسس والمراقبة:

- والله إنك قِيقَةٌ خطيرة!

- ماذا تقصد؟
- قيقة من «geeks»، وهم عبّاد التكنولوجيا ونوارِدُها!
- وأيش النواردْ؟
- النوارد جمع نِرْدٍ «Nurd» وهو الغارق في بحور الكومبيوتر، أو الكتب. هؤلاء الشبان والفتيات الجالسون في زوايا العالم بنظاراتهم وبحوثهم في التقنية، وقد ولوا ظهورهم لمباهج الدنيا.

ضحكت رافعة الآي فون قائلة:

- أنا مطوعة بريدة وقيقة أيضا؟

أزهر قلبه عندما رآها تضحك بعد أسبوع من الحزن والتوتر وانتظار المجهول. وكانت ضحكتها تثير في نفسه العميقة شجونا وعوالم لا ضفاف لها. فعندما تضحك يستدير الهلالُ بدرا، وترجع الطيور المهاجرة إلى أوطانها، وتُشرق الشمس على القطبيْن بعد شتاءات من لفح الزمهرير.. وتتفتق ورود، ويتضوّع الكونُ عطرا فوّاحا.

مالت على الطاولة ورشفت حَسْوَةً من قهوتها وقالت:

- أنت تُعرِّب كل شيء.... نوارد!
- إن الأشياء تزداد حلاوة إذا عُربت. أليست كلمة «نوارد» أحلى من «نيردس» الإنكليزية؟
- لكنك تُدخل اللغة في كل شيء بمبالغة أحيانا.

وقبل أن يجيبها خطر له خاطر لكنه لم يستطع التصريح لها به، وهو أنه أيضا لا يتذوق جمال المرأة إلا بحاسة اللغة، يذكر جيدا أيام مراهقته أنه كان إذا رأى فتاة جميلة لا يعرف كيف يحكم على جمالها إلا إذا تخيلها

لغويا، ثم يحاكمها إلى مخزونه اللغوي للجمال، ثم يستطيع بعد ذلك الحكم.

وكم كان أصحابه يضحكون عندما يقول لهم واصفا فتاة: جبالٌ ووهاد... مُنحياتٌ ومنعرجات... وسيول ووديان... عنبر وعود، أماس وردية ندية، وصقيع دافئ.

طرد خواطره وقال لها:

- قلت لك إن أهلي وافقوا..

أخرجت جهاز حاسوب من حقيبتها وفتحته، ثم قالت بسخرية:

- أهلك وافقوا؟

- نعم!

- ما شاء الله.

- ما ذا تقصدين؟

- هل سمعت قصة زواج السائل من بنت الملك؟

- ما هي؟

- كان ابن أحد السائلين يقول لأصدقائه إنه سيتزوج بنت الملك، فسألوه كيف. فقال إن خمسين بالمائة من الأمر تم. فوالدي وأمي وافقا وأنا موافق، ولم يبق إلا أن توافق بنت الملك وأبوها وأمها.

ثم ضحكت... لكن القروي لم يضحك.

شعر بانزعاج، فانقطعت ضحكتها وهي تلاحظ أن المزحة قد تكون أكبر مما ينبغي، نظرت إليه فإذا وجهه محمرّ، وإذا جبهته الغماء تزداد ضيقا، وأرنبة أنفه تكتنز احمرارا.

نظرت إليه، فتحول في عينها إلى أعرابي يطلب ثأرا قديما، فانتابتها موجة ندم على المزاح الثقيل قائلة:

- والله ما قصدي....

- يعني أنا الشحات ابن الشحات؟

- لا لا، مو قصدي. حاشاكم، بس قصدي أن العُقد والتخلف في مجتمعنا أكثر. فأنتم أكثر علما وانفتاحا من مجتمعنا.

وساد صمت، وكان يعلم أنها لم تكن تعي ما قالته، كما كانت تعرف أنه لن يصدق ذلك الاستدراك البارد، أرادت تلطيف الجو، فرمقتْ السيدة الضخمة لتتأكد من أنها ما زالت تتحدث بصوت مرتفع حتى لا تسمع كلامها، ثم قالت وهي تشير لحاسوبها:

- هل لاحظت شيئا في جهازي هذا؟

وفهم هو أنها تهدف لتغيير موضوع الحديث لاستعادة الدفء. نظر إلى الجهاز فلاحظ وجود لاصق مثبت على مكان الكاميرا في الجهاز.

- نعم، ما هذا اللاصق؟

- هذا لتغطية العدسة حتى يمنع الجهاز من التصوير. إن الأجهزة كلها مزودة بعدسات، وكل شركة تستطيع تصويرك حتى ولو كان الجهاز مطفأ. لذا، أنا أضع اللاصق على مكان الكاميرا. ستقول إني مجنونة بالخوف من الأجهزة؟ وأن بي وسواساً إلكترونيا؟

- أنتِ ضحية تخصصك. إن التخصص دائما يطارد صاحبه.

- وأنت ما شاء الله، لست ضحية تخصصك!

ابتسم، ونظر جهة المياه الزرقاء الهادئة، فتراءى له المتحف الإسلامي

من بعيد سابحا على صفحة الخليج، ذكرى من زمن انقضى. فقال متصنعا الحكمة:

- كلنا ضحية للتخصص وللماضي... ولأشياء كثيرة.

ولم تجب، بل تشاغلت بتنظيف حافة حاسوبها. تذكر كيف يستدعي اهتمامها فقال:

- لقد رأيت أمس بمكتبة جرير كتابا بعنوان «الحرب الإلكترونية».

- بجد، ذاك كتاب ممتاز، مؤلفه جامي بارتلتْ. هل قرأته؟

- تصفحته على عجل، لكني لست مقتنعا بالمبالغة في الخوف من الإنترنت والاختراق الإلكتروني.

رفعت بصرها عن حاسوبها، وقالت بجدية:

- شوف، إن الإنترنت يظهر الجانب الأسود من البشر، انظر مثلا إلى التعليقات بالأسماء المستعارة في يوتيوب، وستلحظ بُعدَ أصحابها من اللباقة، واستعدادَهم الكامل للقذف والسب وكل الموبقات، لأن النت يحررنا من الأقنعة الاجتماعية المزيفة التي نرتدي.

- طيب.

- ولذا، فإن المخترقين الذين يتسللون إلى الأجهزة آمنون من الملاحقة، ويمكنهم أن يقوموا بأي شيء.

خطر له أنه إذا واصل الحديث معها فسيتحول الموضوع إلى نقاش فلسفي، لعلها لا تفهمه أو لا تستسيغه. فسكت قليلا، ثم غلبته شهوة التفلسف:

- أختلف مع هذه النظرة التي عندك، مع أنها نظرية للمتنبي وهو

شاعر أحبه. فالمتنبي يقول:

والظلمُ من شيم النفوس فإن تجدْ

ذا عـفـةٍ فـلـعـلـةٍ لا يظلِـمُ!

رفعت وجهها فيه لتريه الاهتمام، فواصل:

- الفكرة التي عندك مبنية على سوء الظن بالبشر. أما أنا فمؤمن بأن الأصل في البشر هو الخيرية. وإلا لماذا يقوم أشياخك -سنودن وأسانج- بما يقومون به من دفاع عن خصوصيات الناس وتضحية في سبيلها؟

رفع بصره فجأة جهة الباب، فرأى رجلا خمسينيا داخلا من باب المقهى يحدجه بنظرات بدويةٍ حادة. فمد يده هامسا:

- هل هذا أبوك؟

***

بغداد، 198هـ

كان الشاب النحيف الوسيم يسير في الظلام، فتتعثر قدمه بجثة أحيانا، وتصطدم أحايين أخرى بفاكهة متعفنة أو بجسد متسول يغط في نوم عميق، أما أذناه فتتداخل فيهما أصوات ضحكات اللصوص السكارى، ونهيق الحمير ونباح الكلاب ومواء القطط، بصراخ استغاثة بين الفينة والأخرى كلما هجم لص على أحد المارة.

ومع ذلك ظل يسير....

فالشارع الكبير المؤدي إلى الجسر المارّ فوق نهر دجلة، والرابطِ بين شرق بغداد وغربها، مليء بأخلاط الناس وأمشاجهم. فالشارع -رغم اعتكار الليل- مليء باللصوص والباعة والمومسات والعساكر، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

فمنذ اشتداد الحرب بين الأمين وأخيه المأمون -بسبب خلع الأمين للمأمون من ولاية العهد ليصرفها إلى ابنه الصغير- دخلت بغداد في فوضى عاتية، ففقدت محاسنها من هدوء وأمن ورواج في الأسواق وحركة في التجارة، حتى ليخيل للمار بها ممن لا يعرفها أنها مارستان كبير، يطوف فيه المجانين مطلقين دون رادع.

عبر الشاب الجسرَ من جانبه الشرقي إلى الغربي، ليدخل حي

الكرخ. فالتهمه زقاق ضيق قاده إلى دار قصيرة تنغرز في الأرض انغرازا يشي بأن ما بني منها في الأرض أكثر مما شيّد فوقها، وقف أمام الباب، ثم دفعه فإذا هو محكم الإغلاق.

دق الباب دقا خفيفا وهو يقرّب أذنه منه، فخُيل إليه أنه سمع رنة عود. بعد لحظات انتظار، فُتح الباب فظهر غلام سِنديٌّ وسأل بإدلال:

- أقولُ لهْ منْ؟

- قل له: محمد بن عبد الملك الزيات.

صك الغلام الباب.

التفت الشاب إلى الزقاق الضيق الخالي، فرأى قناديل تتراءى من نوافذ البيوت المطلة على الشارع الساكن، بينما ما زالت أصداء صخب الشارع تتردد في جوانحه، تحسس سيفه المتواري في غمده تحت دراعته الواسعة، فسمع صوت فرهود يرحب من وراء الباب.

فتح فرهود الباب، فتراءى وجهه المدفون في شعر لحيته الكثيف مع رأسه الأصلع وهو يقول:

- يا مرحبا يا مرحبا!

تقدم فرهود وقاد ابنَ الزيات إلى درج أنزلهما إلى حجرة واسعة مضاءة إضاءة كبيرة. كانت الحجرة واسعة ومليئة بالشموع المعلقة على أركانها الأربعة، ويتوسطها قنديل كبير.

أشار فرهود لابن الزيات بتبوؤ مقعده حيث تعوّد الجلوس، هناك في الركن الأيمن على سجادة حمراء تتناثر عليها نمارق.

تجلس ثلاث قينات في الجانب الآخر من الحجرة وبأيديهن أعواد.

انحنى ابن الزيات مائلا بمرفقه على الوسادة وهو لا يرفع عينه عن الجارية الجالسة في الوسط.

وقف فرهود في الوسط ما بين ابن الزيات والجواري. ثم مال برأسه ورفع كفه اليمنى ووضعها في كفه اليسرى، وقال موجها حديثه للوسطى من الجواري:

- ظلوم، أُقسِم عليك -أنت وصاحبتيكِ- ألا تدخرن صوتا من الأصوات المطربة والألحان المونقة عن ابن الزيات.

ثم انحنى برأسه أكثر ملتفتا عن يمينه، وقال بابتسامة مترعةٍ طمعاً:

- وأنا موقنٌ أن سيدنا لا يدخر عنكن شيئا..

تمحمح معتذرا بانشغاله ببعض الأمور وأدبر يتسلق الدرج، مُحدِثاً قرقعةً بحذائه على السلم، وذيل إزاره ينجر وراءه.

كانت الفتاة المتوسطة ترتدي قميصا ضيقا أحمر مزكشا، وتلفّ ملاءة على الجزء الأسفل من جسمها، لكن الملاءة لا تغطي إلا ركبتيها ومكان جلستها. أما ما فوق ذلك فيكاد يشف من تحت القميص الأحمر الضيق، أما ذوائبها الذهبية فمزينة بخيوط معقودة بين كل ضفيرة وأختها، تنعكس معاقدها تحت ضوء الشموع المدلاّة في أطراف الحجرة.

رفعت القينةُ بصرها إلى ابن الزيات فألفت وجهه كما عهدته خلال الأشهر الماضية. عينان سوداوان واسعتان مترعتان ببريق قوي يكاد يخترق الجليس، فوقهما حاجبان قويان مقوسان، وجبهة واسعة وشعر أسبط فاحم. أما الفم، فذو شفتين رقيقتين تخفيان أسنانا صغيرة، ينتصب فوق ذلك أنف دقيق قصير.

أما عمامته السوداء ودراعته الداكنة الواسعة، وسيفه الذي لا يفارقه في حمائله، فتخلع عليه مهابة تنسي الناظر إليه أنه لمّا يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر.

نظرتْ إليه قائلة بغنج متصنّع بحذق:

- أفديك بروحي! كيف أنت وكيف الناس؟ فأنا لم أخرج من هذا الباب الموارب منذ التقينا.

- أفديك بروحي... أنا بخير ما رأيتك.

- والله إنكَ لظالم! كيف تتغيّب جمعتيْن كاملتيْن لا تتكحل فيهما عيناي بمرآك؟

- الظلوم من كان ذلك اسمه! لقد تنبأ لك من سماك به، فقد فطرت كبدي وأحرقت قلبي، ولقد جئت مرتين فلم أجدك.

ضحكت ظلوم ضحكة فاجرة حين علمت أنه جاء ولم يجدها مع زعمها أنها لم تبرح البيت، فرفعت يدها اليمنى جهته وكأنها تُكذب ما يقول، ثم تحركت في مكانها كأنها تريد إشغال عاشقها باهتزاز جسمها عن التفكير في كذبها عليه:

- ليت قدمي قُطعت حين خرجت قبل قدومك!

قالتها وهي تغمز بعينها اليمنى، وتعضّ شفتها السفلى، ثم قالت بتثاقل مُغْرٍ:

- ماذا تحب أن تسمع اليوم، فديتُك!

- كل ما تنطقين به فهو تحفة قادم وشفاء مريض وفكاك سجين، وإن صوتك وأنت تتحدثين ليدخل جسمي فلا يصل إلى عرق

إلا نبض به، ولا يتغلغل إلى عصب إلا هشّ له وبشّ. فغني ما شئت...

كان الشاب يتحدث بحرقة، وكانت ظلوم التي تكبره بعام تجاريه.

سمع قرع نعال على الدرج، فالتفت الكل، وإذا الغلام الزنجي قادم وبيده جام مترع نبيذا.

فالتفتت الجارية الجالسة عن يمين ظلوم إلى الأخرى الجالسة عن يسارها وأشارت لها إشارة، فوقفتا وصعدتا الدرج.

نزل الغلام الزنجي وهو يصفّر، ووضع جام النبيذ على سفرة خشبية بين ابن الزيات وظلوم، ثم خرج مسرعا دون أن يتكلم أو يرفع بصره.

كان ابن الزيات متكئا فجلس، وأمسك الوسادة التي كانت تحت مرفقه وزحف جهة القينة حتى صار على بعد ذراع منها واتكأ على وسادته، فصار كمّ دراعته الواسعة المفتوحة من الوسط ملامسا لطرف ملاءتها. أما جام النبيذ فأصبح على بعد تناول اليد منه ومن المغنية.

بدأت ظلوم تلاعب الأوتار بأصابعها الرخصة، وهي تهينم، فمد ابن الزيات يده إلى الجام وعبّ منه.

ثم أغمض عينيه وجعل يحرك قدمه طربا لدى حركة كل وتر من الأوتار التي تئن تحت أصابع ظلوم.

تناوحت ظلوم، وتضاجرتْ فتذكرتْ شجواً قديما لها في أصفهان، حيث تربت وحذِقتْ العودَ، وحيث شجوُها الذي أضناها، وحبها الذي انتزع قلبَها منها، فتسارع لعب أصابعها بالأوتار، وتسارعت

دقات قلبها وهي تتذكر وجه فتاها في مروج أَصفهان حيث كانت تغنيه:

وعُلِّقتُها غَـرَّاءَ ذاتَ ذوائـبٍ
ولم يَبـدُ للأتـراب مـن ثديها حجمُ
صغيرَيْـنِ نرعـى البَهْـمَ ياليت أننا
إلى اليـوم لم نكْـبَرْ، ولم تَكبر البَهـمُ!

ما إن أنهت الشدوَ بالبيتين حتى كاد قلب ابن الزيات ينزو من بين أضلاعه، وكاد قلبها هي يطير شوقا إلى أصفهان.

فقد رددت عبارة «يا ليت أننا..» ترديدا متأنيا مترعا بالأحزان، وأفرغت في تلك العبارة كل ما فاتها من مؤمَّل، وما عجزت عنه من تحرر من أيادي أسيادها، وما ضاع لها من حب.

فهي تضمر فيها تمنيات مثل: يا ليت أنني لم أسرق في طفولتي من أهلي، ولم أتحول إلى جارية! ليت الدنيا أرحم مما هي عليه، وليت المظلوم ينتصف من ظالمه!

وقد تعلمت من صنعتها أنها لا تُطرب جليسها إلا إذا تذكرت شجوها وتمثلته بين يديها كأنها تخاطبه، فعند ذلك تطيب أوتارها، ويسهل حلقُها، وتنفرج مخارج نطقها، ويحلو النغم في فيها.

ما إن أنهت الشدوَ حتى التفتت إلى ابن الزيات وقالت بتنهد:

- فديتك!

ثم نظرتْ إلى عينيه فرأت بريقهما المتوهج قد انطفأ، وهما ممتقعتان دموعا.

مال الفتى أكثر على وسادته مبتعدا قليلا، ثم أخذ طرف عمامته ووضعه على عينيه وهو بين البكاء والضحك، متذكرا قصة حدثه بها صديقه قبل أيام عن هذين البيتين.

فقد كان مؤذن مكة المعروف بابن مليكة يؤذن، فسمع مغنيا يغني من دار العاص بن وائل بهذين البيتين. فطرب لهما طربا شديدا حتى أراد أن يقول «حي على الصلاة» فقال: «حي على البَهم»، وسمعه أهل مكة فغدا يعتذر إليهم في السوق.

فكر في القصة وهو يقول: كيف إذا سمعها المؤذن من هذه الجارية الرومية الحاذقة.

ظل مستلقيا على قفاه، يعب أحيانا من الدنّ، ويعب أحايين أخرى من الاقتراب من الجارية ومطارحتها آيات الغرام.

التفتت إليه مرة بعد صمت وقالت بدلال:

- لم لا تشتريني من سيدي؟

- قاتله الله ما أجشعه. لقد عرضت عليه لكنه يطلب ما لا أملك.

مالت عليه الجارية واضعة يدها على طرف ركبته وقالت:

- كيف لا تملكه وأنت ابن عبد الملك، أشهر تجار الكرخ ببغداد؟

ثم ابتعدت عنه مرسلة إحدى ذوائبها، مداعبة إياها بيدها، وقالت وهي تغمز بطرف عينها التي تزداد جمالا تحت ضوء المصباح:

- أم أنني لا أساوي عندك إلا دريهمات؟

ابتسم ابتسامة مفعمة بالشوق إلى مزيد من القرب وهو يقول بصوت هامس:

- لا تقولي هذا يا ظلوم. فوالله لنعم وسيلة إبليس أنتِ في الأرض!

ضحكت الجارية، وقبل أن تميل عليه لتمسك طرف قميصه، سمعت قرع نعال سيدها على الدرج.

فتظاهرت بالتحرج مبتعدةً من ابن الزيات.

دخل فرهود مبتسما، وقال:

- سامحني يا ابن الزيات إن كنت عجلت عليكما. لكن وقت النوم قد حان، وديكُ الصباحِ يكاد يزْقُو.

تراجعت الفتاة أكثر حتى كاد ظهرها يلامس قاعدة القنديل الكبير المنصوب وسط الحجرة، أما ابن الزيات فجلس بتثاقل وهو يبحث في جيبه عن صرة دنانيره.

وقف وهو يقول:

- لا عليك يا فرهود، فقد انتصف الليل والطريق غير مأمون وبغداد نهبٌ للشطار والعيارين.

ثم مال على السفرة الخشبية وطرح صرة محشوة دنانير وكأنه لا يريد فرهود أن يراه، وهو في ذات الوقت لابد له من أن يراه.

فنظر فرهود إلى الصرة وقال:

- لا تباعد بين الزيارات يا سيدي.

صعد ابن الزيات الدرج ممسكا بطرفيْ دُراعته، وغمدُ سيفه يكاد يلامس طرف السلم. ثم التفت إلى ظَلُومِ قبل أن يتوارى، فلوحت له بقبلة.

فتح فرهود الباب مودعا ابن الزيات، وقال بصوت فيه خوف:

- احترس يا محمد!

- لا تخف يا فرهود، فسيفي بتار.

بدا الطريق مظلما وخاليا من الناس، فيما ترامت إلى سمع الفتى ضحكات شبان من البيوت المطلة على الزقاق.

قاده الزقاق الضيق إلى الشاع الواسع المؤدي للجسر.

ظلت يمينه على مقبض سيفه حتى وصل إلى مدخل دار أبيه الكبيرة.

عبر الجسر حتى انحدر إلى الجانب الشرقي، وما إن اقترب من المنزل الأحمر -ذي الباب المستطيل الضخم- حتى تلقاه أحد الحراس مهرولا:

- سيدي، لم لم تأمرني لآتي معك، فالطريق غير آمن.

أشار إليه ابن الزيات بيده قائلا:

- لا عليك.

دخل البابَ الواسع الذي أسلمه إلى فناء فسيح مزينٍ بالأشجار على طرفيه، ثم وقف ملتفتا إلى الحارس وقال بصوت هادئ:

- لا تخبر أبي.

لم يزد الحارس على أن انحنى قليلا برأسه متمتما:

- أمرك يا مولاي.

* * *

البصرة، 199هـ

كان منزل عبود ضاجا بالحركة كالعادة في مساءات الجُمَع، ففي الجانب الخلفي للمنزل، ارتفعت ضوضاء جماعة من الغلمان في غرفة مربعة واسعة حاملين زرابيَ فاخرةً وحصرا وطنابير وعيدان موسيقى، رمى غلام رومي زربيةً حمراء عن كاهله وهو يقول لغلام قصير عن يمينه:

- ضع هذه مما يلي الزاوية حيث يجلس مولاك، يا أصلع!

واندفع خادم عجوزٌ يُسرج المصابيح في الزاويا الأربع للغرفة، فيما أمسك آخر بطرف الزربية الفارسية المطرزة ليُحكم بسطها دون انثناء، رُتب المجلس بشكل مربع، ثم وُضع سرير مرتفع في جانبه فوق السجادة الحمراء، وفي المقابل وضعت طنافس خضر مطرزة، وفي الوسط بسطت الحصر المصنوعة من جريد النخل مغطاة بفرش ناعمة.

دخلت جاريتان إلى الغرفة وهما تتضاحكان بغنج. كانتا تلبسان ملابس ذات لون واحد تجمع بين الصفاقة والضيق. فكل منهما تلبس ملاءة خضراء مطرزة الجيب والأطراف، تحتها إتْبٌ يكاد يُرى كاملا من تحت الملاءة.

وتحت ذلك إزار ملفوف مشدود الوسط، سابغٌ إلى الكعب، مع

فتحتين في طرفيه من الركبة حتى الكعبين.

دخلت علية تمشي وراءهما، غير أنها لم تتزين كما تزينتا. إذ كانت متلفعة في قميص أحمر فوقه جبة واسعة، فيما تنسدل ذوائبها الطويلة، التي تكاد تخفي قرطيْها.

جلسن ثلاثتهن، وكانت علية في الطرف الأبعد مما يلي الزاوية، ثم وضعت كبرى الجواري عودها في حجرها واندفعت تعزف، أناملها الغليظة تذهب وتأتي على الأوتار الأربعة للعود متفننة في ضربه وتوقيعه، وكانت كلما أطابت النغم وأحكمت الأوتار هدأت أصوات الغلمان والخدم، بل إن أصوات صبيان الحي اللاعبين في الشارع تبدأ في الانحسار.

بعد هنيهات، قبضت كبرى الجاريتين يدها عن عودها تاركة إياه في حجرها دون تغيير جلستها، ثم أشارت برأسها إلى الجارية الأخرى فانطلق عودها يئن بعزف شجي.

كأن الجارية الأولى كانت تفتح الطريق لهذا اللحن الشجي بالذات.

فاندفعت كبرى الجواري وقد رفعت يسراها عن العود، ووضعت يدها على خدها وأنشدت بصوت مطرب مُشْجٍ:

لـو أن مـا تبتليني الـحادثـات بـه

يُرمـى على المـاء لم يُشرب مـن الكدر!

في هذه اللحظة دخل عبود ماشيا بتؤدة، مرتديا جبةً حريرية واسعة الأكمام تفوح منها رائحة العنبر، ووراءه الجاحظ متعثرا في جبة قشيبة.

خفضت الجارية صوتها انتظارا لجلوس سيدها وضيفه.

جلس عبود على حافة السرير مشيرا للجاحظ بالجلوس قربه على طرفه الثاني، وما إن جلس عبود حتى مال على مرفقه الأيمن ليستلقي نصف استلقاء، فبادر غلام كان يتبعه وأمسك رجله لينزع خفه.

سحب عبود رجله بسرعة من يد الخادم قائلا:

- اخدم أبا عثمان أولا.

ثم تدحرج عبود قليلا ليسند وسادته إلى الجدار، أشار بيده دون أن يتحدث إلى الجاريتين لتستأنفا الغناء.

جلس الجاحظ متربعا مسندا ظهره للجدار، ووضع عمامته عن رأسه فبدا أصغر من ذي قبل.

كان جو الغرفة معتماً قليلا رغم المصابيح الأربعة المنصوبة في أركانها، رفع الجاحظ عينيه ليتأمل الجواري محاولا معرفة تلك الفتاة التي حدثه عنها عبود.

لم تدر عيناه طويلا حتى جزم بأنها تلك الفتاة التي في الزاوية. ذلك الظبي العاطل من كل زينة، لكن زينته تسكنه، ولا يستطيع منها فرارا.

لسعها بعينيه الحادتين، فالتقت عيونهما لأول مرة.

نظرت إليه لكنها لم تبادله النظر بالنظر، فعيناه اللتان تكادان تقعان في حجره، ورأسُه الدقيق وأذناه الصغيرتان وقامته القصيرة جعلته في عينها أشبه بدمية منه بإنسان.

نظرت إلى سيدها ثم أغْضت جفنيها وقد غشيتها موجة طرب وهي تستمع للحن الشجي الذي ينبعث من يد صاحبتها.

مال الجاحظ على عبود، وهمس في أذنه.

اعتدل عبود وأشار إلى علية أن تجلس قرب السرير مما يلي الجاحظ.

قامت ودارت من خلف الجاريتين وجاءت كأنها تتعثر فجلست عن يمينه.

مال عليها:

- ما اسمك؟

- علية

رفع رأسه كأن نارا لسعته.

لقد تذكر رؤيا رآها قبل أيام.

رأى أنه نزل ضيفا على الخليفة في بغداد، وأنه كان يتسلل إلى حرمه ليلا ويبيت مع زوجة للخليفة تدعى عليّة، وأن الخليفة اطلع عليه من نافذة وهو جالس مع علية فهرب. فأرسل الخليفة كل جنود الخلافة يبحثون عنه.

تفاجأت علية بالصدمة التي أصابته، فالتفتت جهة الباب فإذا الخادم الأصلع قادم يحمل سكرجةً فيها لوز، وجاماً مملوءا من عصير البطيخ، وأباريق نبيذ.

وضع الأصلع السكرجة والنبيذ على خوان فوق السرير، فيما كان الجاحظ يستعيد توازنه متذكرا كيف سخر من تلك الرؤيا قائلا لصديقه النظام:

- أنا رجل من أهل الاعتزال، والأحلام والمرائي لا يعبأ بها إلا العوام ومن في حكمهم.

استعاذ من الشيطان الرجيم، ومال على علية قائلا بهمس:

- أي حديقة مباركة أنبتتك؟

تلعثمت ثم قالت:

- أنا من أصفهان.

- تلك مدينة جميلة، لا تنبت إلا الزهر والشعر.

لم تكن تعرف أي شيء عن أصفهان، ولم ترها قط، لكنها شعرت بسعادة حين لاحظت فصاحة الجاحظ واطلاعه، وهي تقارن في ذهنها بينه وبين سيدها.

فغيرت مجرى الحديث حتى لا يسألها سؤالا محددا عن أصفهان قائلة:

- وأنتم يا سيدي؟

- أنا من علقم البصرة!

قالها وقد اختنق قليلا من رائحة البخور المتصاعد بين يديه من المبخرة المنصوبة خلفه.

وجدت نفسها تبتسم من إجابته وطريقته التي نطقها بها، حيث قالها وهو يغمض نصف عينيه متظارفا، ثم اختنق، فتحول في عينها من الدمامة المقيتة، إلى الدمامة المستظرفة.

ثم واصل قائلا:

- هذه المدينة ليست كأصفهان، فهيلا تنبت من الأشجار إلا ما فيه شوك، ولا من النباتات إلا المر، ولا يربى فيها من الكلاب إلا المكلوب. أما نساؤها فيضربن رجالهن.

ابتسمت وهي تنظر إليه وقد مدّ يده لأخذ حلوى من فوق

الخوان، وقالت:

- إنها تنبت الرياحين والنارنج والتفاح...

لا تدري كيف نطقت كلمة «التفاح» فهي أبعد ما تكون عن جو التغزل، أحرى لرجل غريب دميم، لكنه لم يهملها لتغيّر حديثها فقال:

- هذه النباتات وإن نبتت هنا إلا أنها غريبة في هذه التربة، فقد انتُزعت من منبتها ونبتتْ مكرهةً. لذلك ستجدين طعم تفاح أصفهان أذكى وأحلى من تفاح البصرة. فكأنه هناك ينبت راضيا، وهنا كارها، فينعكس ذلك في الطعم.

انتبه إلى أنه تعود الحديث الجاد، المحشو بالمنطق حتى مع الجواري وعلى كؤوس النبيذ، فغير حديثه بسرعة:

- هل تتقنين الغناء؟

- لا...

كانت الجارية الكبرى تواصل الغناء والعود في حجرها، وكانت تنظر بطرف عينيها باستغراب إلى اندماج علية في الحديث مع هذا الرجل الغريب، كانت تنظر إليهما تحت ضوء المصباح المثبت وراءهما، فيما يمر خيط دخان من البخور بينهما كأنه يرسم حدودا بين الجمال والدمامة.

ظلت الجارية تتأمل باستغراب ابتسامات علية لهذا الرجل الدميم الغريب، فمنذ وصولها إلى هذا البيت لم ترها قط بهذا الاندماج والاستئناس في الحديث.

بعد مضي وقت، اعتدل الجاحظ في جلسته مائلا إلى الجدار قليلا، وهو يمضغ حلوى ويعبّ عليها من النبيذ المعتق.

بدأ يحرك قدمه طربا وهو يستمع إلى الجارية تغني صوتا بدويا قديما، لكنها أخطأت في أدائه. اعتدل وقال لها:

- أول من غنى هذ الصوت هو مغني أهل مكة الغَريض، لكنك أخطأت في توقيعه.

ثم جعل يشرح لها ويعيده حتى أتقنته.

بدأ جبينه يتعرق رغم الجو المعتدل في الخارج. وجعل يحرك رأسه طربا. وكانت علية تنظر إليه من طرف خفي بعد سماعها لملاحظاته على المغنية.

أما عبود فكان لا يتحدث في مثل هذه الساعة عادة. بل يترك حلقَه للنبيذ، وأذنَه للغناء، وبطنَه للحلوى. ويظل يحدق في السقف، فعادة ما يبيت في نفس المكان.

انطفأت فتيلة أحد المصابيح، فخفتت الإضاءة في الغرفة.

وضعت كبرى الجواري العود من يدها وهي ترفضُّ عرقا بعد ساعات من الغناء.

أما الجاحظ فمال على عبود متمتماً.

وقف عبود بتثاقل بينما كان الجاحظ يرتب قلنسوته وعمامته، فانعكس ظل رأسه الصغير على الجدار.

مشيا في فناء البيت حتى وصلا إلى باب الدار. مشى عبود بتثاقل فقد أفرغ في بطنه أربعة أرطال من النبيذ المعتّق، وكثيرا من الحلوى.

أما الجاحظ فكان يمشي بخفة، فقد تعود ألا يزيد على رطل واحد من النبيذ.

وصلا عتبة الباب، فالتفت إلى عبود مودعا قائلا:

- أريد الفتاة، لكن أتمنى ألا تُغليَ في سعرها.

- لن يكون إلا ما تريد يا أبا عثمان.

قالها، وصكّ الباب شاعرا كأن خنجرا دُفن في صدره. رمى بجسمه في طرف الغرفة عاجزا ذاهلا. جلس متأملا علية مشدوها بجمالها الأخاذ.. عاجزا. نظر إليها نظر الأدْرَدِ إلى التفاح الجَنيِّ. لسعها بعينين عسليتين هما نافذتاه المشرعتين دائما على الشقاء والعذاب. أرسل بصره مع داره الواسعة، فرأى الخدم يقبلون ويدبرون، والأفرشة المبثوثة والأطعمة المشتهاة، واستعاد رنّاتِ العود التي تعبث بنياط قلبه. ازدادت حسرته. أمرَّ يدَه على خده الصقيل متسائلا: كيف كان طعم الدنيا لو سلِمَ من تلك العاهة؟

تموج ذهنه بآلاف الأسئلة الكثيفة المتزاحمة، والخواطر الجارحة. وتذكر تلك الواقعة التي حددت مسار حياةٍ لا يستطيع منها انفكاكا.

تذكر رجالا يرتدون ملابس داكنة يقودونه إلى بيت واسع... اقترب منه رجل أشقر قصير بيده سكاكين وأدوية. لا يذكر ما حدث بعد ذلك. كل ما يعرفه أن ذلك وقع بأرض الروم... وأنهم خصَوْه وباعوه.

تنفس بعمق، ومسح دمعة شاردة على خده... وعزم عزيمة لا تُنقض. سيخصّص ما بقي من عمره للجهاد مرابطا قرب طرطوس لمجالدة الروم. وقف متثاقلا، متذكرا قول إمام حيه في خطبة الجمعة:

- عجباً للنصارى، يدعون الرحمةَ، وهم من سنَّ سنةَ خصاء بني آدم، وكلُّ مخصي في الدنيا فمن أرضهم جاء!

ترك الجاحظ منزل عبود وراءه بينما كان الظلام يخيم على الأزقة الضيقة الموحشة التي لا يصلها في هذه الساعة إلا نبحة كلب شاردة، أو بكاء رضيع من بعيد، أو مُواء قط.

فكّر في علية مستعيدا صورة جسمها البض وشعرها المنسدل وأنوثتها الفيّاضة، ثم خرجت تلك الصورة من ذهنه متأملا ليل البصرة الأسود سوادَ عيون بدويات سوق المربد. ليل مظلمٌ مليء بتنهدات الألم واللذة، لكنها لذة لا يصل إليها الفقير، ليل مليء بوسْوَسةِ الخلاخل في المخادع العطرة، وتنهدات العبيد الكادحين في الأقبية والسباخ، وأنّات الشكوى في السجون، وصرخات اللذة في المخادع، والضحكات الحزينة للجواري المجلوبات من بلاد بعيدة.. غريبة.

طرد تلك الأفكار عن ذهنه، لكنه لم يستطع طرد صورة ابتسام علية، وتاجَ الجمال الذي يُظلل كل حركة من حركاتها السخية... وذلك الشيء الغامض الفاتن... ما بين فمها وعينيها.

***

يضج دكان سهل بعشاق الكتب في مثل هذه الساعة من النهار، يتربع الجاحظ داخل الدكان على فروٍ جلديٍ بني اللون، وعيناه تبحثان بنهمٍ في عناوين الكتب الكثيرة المصفوفة بأناقة على رفوف الدكان.

وقف أحد المجاذيب بباب الدكان وقال بصوت واعظ:

- متاع الغرور!

ثم تجاوز إلى الدكان الموالي.

رفع الجاحظ وجهه عن الكتب منزعجا وقال لسهل:

- من أين جاء هذا؟

- هذا أحد أصحاب رأس النعجة، من دُوَّيرة الصوفية الواقعة بطرف السوق.

- أنا لا أرى الزهد المنقطع عن الدنيا وملاذِّها إلا ضربا من الجبن عن مقارعة خطوبها، ونوعا من الافتتان بدين البراهمة.

- إذا لم تكن من العباد والزهاد، وكنتَ منهمكا في شراء الجواري واكتراء الدور الواسعة، فاترك الناس لزهدهم وعبادتهم.

خطر للجاحظ أن في تضاعيف حديث صاحبه نوعا من الحسد، فداری مشاعره وقال:

- لا.. لا. ما عنيتُه أن الدين لا يأمر بالزهد كما يفعل هؤلاء، فأنا لا أعلم أحدا من أصحاب النبي بنى خيمة على باب السوق لصد الناس عن أهوائهم وحاجاتهم التي تقوم بها دنياهم، فقد كان أصحاب محمد يتّجرون ويغزون ويعشقون ويتزوجون ويلعبون.

- أعلم ذلك. لكن أصحاب محمد كانوا في زمن فيه أمثال أبي بكر وعمر، وهذا زمانٌ فيه أمثالك أنت.

ابتسم الجاحظ وهو يسحب كتابا أنيقا وقال:

- أما كان لك مُتَّسَعُ مبالغةٍ في مُجّانِ البصرة وفُتَّاكِها دوني؟

- مجان البصرة وفتاكها مُقرون بمجونهم وفتكم، أما أنا وأنت فشيوخُ قومٍ وجلةُ نحلةٍ، كان شيوخها معروفين بالزهادة والعبادة. ففي سلفنا من المعتزلة عمرو بن عبيد الذي لو وُزّعتْ عبادتُه على أهل البصرة لكفتهم. وفي سلفنا بشير الرحال والحسن

البصري، ومع ذلك أراك تنهى عن الزهادة والعبادة.

ثم التفت سهل لأحد غلمانه قائلا:

- هات الماء البارد وكسرة خبز يا غلام.

قلّب الجاحظ الكتاب الأنيق التجليد وقال:

- لا أشك في أن هذا الكتاب من تأليف زنديق!

فرد عليه سهل -وهو يتناول من خادمه طستاً صينيا مُزينَ الحواشي- قائلا:

- وكيف عرفت ذلك؟

- إن عناية الزنادقة بكتبهم لا تضاهيها عناية، فلا تكاد ترى كتابا من كتبهم إلا مجلدا أحسن تجليد، مخطوطا بخط أنيق في ورق ناعم، كأنه عروس تُجلى لعاشق.

- والله إن هذا لشرف لهم، فهو من عنايتهم بالعلم.

- ليت الأمر كما ظننتَ، بل إن إنفاق الزنادقة على كتبهم كإنفاق النصارى على كُنُسهم وصوامعهم، وليس من العناية بالعلم في شيء.فلو كانت كتبهم مثل كتبنا وتبحث فيما ينفع الناس من رياضيات وهندسة، أو علم وآداب، لكان داعي التأنق فيها يدخل في باب حب العلم.

قطع سهلٌ حديث الجاحظ بمناداة أحد عماله ليأتيَ بمسودات الكتب التي نُسخت خلال الأيام الماضية، ثم قال:

- وماذا في كتب الزنادقة إذا كنتَ أخليتَها من الرياضيات والحساب والآداب وما ينفع الناس؟

كان الجاحظ يتحدث وهو يقلب ورق الكتاب العنابيِّ الأنيق، فوضعه جانبا ورفع وجهه إلى صديقه وقال:

- إن كتبهم أدخلُ في باب الديانة، لذلك لا أرى الإنفاق على تزويقها إلا كإنفاق المجوسي على بيت النار، والنصراني على صليب الذهب، أو كإنفاق الهنود على سدنة البِدَدَةِ. فكتبهم دينية لا علاقة لها بالدنيا. فهم يجملونها لتروج، لعلمهم بضعف منطقها، وتهافت حججها، فيحاولون تعويض نقص ما في بنيتها بإكمال جلودها وحروفها وشِياتها.

كان الجاحظ يواصل حديثه وصوته الندي ومخارجه الفخمة تزداد أناقةً كلما تكشفت أمامه حجة أثناء حديثه، وكان سهل ينظر إليه بانتباه، غير أن أحد النساخين وقف في وجهه، وكاهلُه ينوء بعدة مجلدات، ولم يضعها عنه خيفة مقاطعة الجاحظ. توقف الجاحظ عن الحديث فأشار سهل للنَّساخ أن يضع الكتب على الطاولة ذات القوائم الثلاث، المنتصبة بينه وبين الجاحظ. وضع النَّساخ الكتب، غير أن يده الصغيرة اليمنى المتسخة من سواد المحبرة تركت أثرا على طرف أحد الكتب، فرفع فيه سهل وجهه قائلا:

- ألم أحذرك مرارا من هذا؟

ارتبك النساخ فتحولت صفرة وجهه الصافية وعيناه الصغيرتان الغائصتان في وجهه المدور إلى حمرة وهو يقول:

- والله لقد نفد الصابون الذي نُزيل به سواد الحبر البصري كما نفد الأُشنان.

- هذا الحبر تمكن إزالته بالماء ولا يحتاج لصابون، فلا تُكثر المعاذير،

أم أن مياه أنهر البصرة قد نضبتْ؟ أم ابتعلت الأرض ماءها وجفت غدرانها؟

كان الجاحظ واضعا طرف عمامته السوداء على فمه وعيناه تدوران بين صديقه والنساخ، وكانت أذناه الصغيرتان تشرئبان لالتقاط كل حرف من الحوار.

- يا سيدي، لقد نفد الصابون، ونفد كل شيء ولم نأكل طعاما منذ أمس و...

- ها قد أدخلتَ موضوعا في موضوع، وخرجت من الاعتذار إلى الاستجداء، أم ستقول إنك تُنظف يديك من الحبر بالرغيف، وتغسلُ الدواةَ بالكباب والكاسوج؟

- لا... يا سيدي، ما قصدته هو تذكيرك فقط بأننا لم نأكل طعاما منذ يومين.

التفت سهل إلى الجاحظ فرآه متشاغلا بالنظر في أحد الكتب ليوهمه أنه منهمك في تأمل الكتاب، حتى لا يشعر بالحرج أو يغير من نبرة الحوار. (وهي عادة عنده إذا كان شديد الحرص على سماع الحديث الجاري، ويخاف إذا أظهر الانتباه أن يتحرج المتحدث فيقطع الحديث). لكن سهلا كان يعرف صديقه ويعرف حيلته تلك، بل يعرف حرصه على سماع معاذيره دون دراهمه ودنانيره، لكي يقصها عند أول مجلس من مجالس الأصحاب.

كان سهل قد غير جِلستَه فأصبح جالسا على قدميه، ويداه معتمدتان على ركبتيه تدوران وهو يكلم غلامه:

- خذ هذا الدانق والفلس واشتر ثلاثة أرغفة بينك وبين أصحابك،

ولا تدخل أمرا في أمر مرة أخرى. قم فاشتر خبزاً لتغسل به الدواة والحبر عن يديك!

خرج النساخ من باب الدكان متجها صوب الفرّان، بينما التفت سهل فوجد عمامة الجاحظ قد استرخت من الضحك.

- وتضحك أنت!

- أنت رجل غني، فلماذا التشديد على غلمانك في النفقة يا سهل؟

- والله ليس أحد أفقر من غنيٍ أمِنَ الفقر!

فهم الجاحظ أن صديقه لا يريد الاسترسال في الحديث الآن، فما دام قد رمى بتلك الجملة التي يقولها عادة عند نهاية الحديث، فذاك يعني أن نفسه غير منشرحة للأخذ والرد في موضوع النفقة والتدبير، فأغضى ببصره واندفع يقلّب ورق المجلد الضخم الذي بيده، بينما كان سهل يمسك بقلمه مراجِعا كتبه المنسوخة حديثا.

دخل أحد المشترين إلى الدكان، شاب غُرانقٌ، شديدُ الأسر، فخم الصوت، عليه سيما طلبة الحديث. وقف ثم سأل:

- هل عندكم شيء من كتب السنن؟

فالتفت إليه سهل مرحبا وقال:

- نعم، تفضل وماذا تريد منها؟

- هل عندك من كتب إسماعيل بن علية؟

مرر سهل يده تحت ذقنه وقال بصوت هادئ:

- ذاك ليست عندي كتبه.

فولى الشاب خارجا، ثم وقف والتفت وقال:

- فهل عندك كتاب السنن لسعيد بن أبي عروبة؟

- نعم، ذاك عندي.

وقف سهل وأخذ الكتاب وناوله إياه، أمسك الشاب الكتاب مقلبا صفحاته، ثم أخرج دراهم ودسّها في يد سهل وخرج.

وقف الجاحظ وبصق خارج الدكان حتى كادت بصقته تقع على خمار فتاة في الشارع. نظرتْ إليه الفتاة بتأفف وشتمتْه قائلة:

- أي قردٍ في صورة شيطان!

وصل صوت الفتاة إلى سهل وهو منهمك في تصحيح كتاب بين يديه، فقال بلهجة غنائية:

- «وقل ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين»!

عاد الجاحظ خجِلا وجلس وهو يغير الموضوع سائلا بنبرة تطلع:

- هل من أخبار عن أبي نواس؟

رفع سهل رأسه عن المجلد الذي بين يديه، تاركاً طرفيه بين رجليه وقال:

- أخبرني محمود الوراق، أنه قُتل في بغداد بعد خلع الأمين وقتله.

شعر الجاحظ بسخونة تتصاعد مع عروق رأسه وهو يذكر الخبر:

- هل عرفتم كيف قتل؟ ولماذا؟

- أنت تعلم أنه كان ملازما للأمين المخلوع، وأنه كان شاعره، حتى إن أنصار المأمون كانوا يعيرون الأمين بقرب أبي نواس منه، فلما كثرت الفوضى في بغداد وانتشر السلب والنهب اضطر للاختفاء، ثم انقطعت أخباره زمنا.

- لعل الحشوية قتلوه. فقد اشتد بأسهم في بغداد... ولا أشك أن أصحاب ابن المديني هم من قتله.

- هل أقلع عن استهتاره بالخمر قبل موته؟

- يموت المرء على ما عاش عليه.

- كيف؟

- حدثني محمود الوراق، أنهم سمعوا مرة أنه تاب وعزم على دخول دار الصوفية. فخرجوا من المسجد ودخلوا عليه ليهنئوه. فلما علم أنهم قادمون إليه وضع بين يديه باطيةً كبيرة، وجعل لا يدخل عليه أحد يهنئه إلا أمسك الباطية وشرب منها ثم أنشد:

قالوا نزعتُ، ولمّا يعلموا وطري
في كل أغيدَ ساجي الطرفِ ميّاسِ
كيف النزوعُ وقلبي قد تقاسَمهُ
لحظُ العيون، وقرعُ السنِّ بالكاسِ!

فخجل جلة الشيوخ الذين جاءوا لتهنئته وانصرفوا ولم يعودوا لمثلها إلى أن سمعوا بمقتله في الفوضى.

شعر الجاحظ ببخار يصّاعد إلى دماغه مفكرا في أن العلاقة بالسلطان كثيرا ما تأتي بقتل أو سحل في النهاية، والبعد من السلطان يقود إلى العوز والفقر المدقع.

انشغل ذهنه بتذكر مجالسته الأخيرة لأمير البصرة، وذلك المال الذي مكنه من اكتراء بيت جميل واسع، وشراء فتاة حسناء ستزف له هذا المساء، ثم شبك يديه وجعلهما بين ركبتيه، وقال لسهل محاولا طرد تلك الأفكار بصوت كأنه تنهدٌ:

- سمعت أن الأمور بدأت تستقر منذ دخول المأمون، فالحشوة والعامة والمطوّعة بدأ هياجهم يخبو.

- لم ترك المأمون بغداد هذه السنوات الست؟ فالمخلوع قتل عام ثماني وتسعين ومائة، لكن المأمون ظل بخراسان تاركا مدينة أجداده للرعاع!

التفت سهل قائلا بحماس:

- المأمون رجل ملة وأمة وعلم، فهو يفهم أن القوة والمنعة والسياسة في فارس لا في بغداد، حيث يتراءى منزل الخليفة مع منازل الأعراب!

شعر الجاحظ بضيق، فاعتدل قائلا بحدة:

- وهل الأعراب إلا فوارس وصناع دول؟

وضع سهل عمامته فبدا ثائر الشعر، ثم حدج الجاحظَ بعينيه الحادتيْن:

- لابد أن تعرف فرق ما بين ملكة الشجاعة ومَلَكة الحرب، وبين القدرة على الهدم والمقدرة على البناء. فإذا كان العربي فارسا –وهذا ما لا ينفيه أحد لأن معظم قادة الجيوش عرب– فإنه لا يعرف السياسة ولا التدبير، وأهل فارس أصحاب رأي وفكر وسياسة وتدبير، ثم إن أمّ المأمون منهم، فما العيب في جلوس الرجل بين أخواله؟

- لم أقل إن في ذلك عيبا. لكني تعجبت من إهماله لبغداد وهي دار الخلافة.

- عاقبهم لمناصرتهم المخلوع، وتقريبهم له لأن أمه قرشية.

- أنت يا أبا هارون تؤوّل كل أمر تأويلا شعوبيا، وهل بغداد إلا فارس العراق؟ فما فيها من الفرس أكثر مما في فارس!

- وأنت يا أبا عثمان لا تُقرّ بفضائل العجم لتعصبك للعرب، ولا عليك، فالمأمون خليفة من أهل العلم، وهو ممن يحب هذه الجماعة المباركة من المعتزلة. وقد سمعت أنه بدأ يقربهم من مجلسه.

عجّ ذهن الجاحظ بصور مختلطة فيها البيوت الفاخرة، والجواري الحسان، والرجال الأشداء، والسحل والسجن والجلد... مع طيف من صورة الجارية علية. فخفق قلبه وهو يفكر فيها.

لكن ما لم يدُر بخلده أن ذلك العالم كان أقرب إليه مما يظن.

* * *

لم تشعر عليةُ بشعور الأمان الذي يسكنها هذا المساء منذ سنوات. كانت جالسة وسط بهو الدار على سجادة خراسانية فاخرة، والجاحظ مستلقٍ قربها يكتب كتابا، رفعت عينيها الواسعتين فلاحت لها العصافير تزقزق خارج المنزل، والأفق تلبده غيوم تشارف الإمطار.

أعادت عينيها -وهي تشدّ طرفيْ ملاءتها- ناظرةً إلى الجاحظ منهمكا في الكتابة. استغربت أنه لم يمرّ على شرائه لها إلا وقت قصير، لكنها تشعر معه بأمان لم تشعر به منذ زمن طويل.

كانت تتأمله، فشعر بعينيْها تخترقانه، فانتبه، التفت إليها فقرأ في عينيها حنانا وولهاً وحزنا واستعداداً للحديث. أعاد عينيه إلى كتابه سائلاً، وكأنه لا يهتم بالجواب:

- فيم تفكرين يا علية؟

- أفكر فيك!

رمى القلم، وكأن كلماتها لامستْ جوانب من روحه لم تُلمس قط. فقال لها بصوت هادئ:

- وما وجه تفكيرك فيّ؟

- أنا يا أبا عثمان...

ثم انحدر دمعها، فسكتت.

معضلة الرجل مع المرأة أنها تظل ضعيفةً أمامه إلى أن تستدعيَ ذلك الماء السحري من مآقيها، فتسقط جدران وتنهارَ سدودٌ وتمّحي حدود.

فالرجل يعرض أحيانا عن المرأة، وما إن تُسبل الدمعَ حتى تفرض الاهتمام. وأقدر الأقوياء على هزيمة خصمه من تظهر قوتُه في اللحظة التي يظنه فيها الخصمُ ضعيفا. وسلاح المرأة السحري ينبجس في لحظات ضعفها، وهي لحظة يكون فيها الخصم مسترخيا ومستريحا وبلا سلاح.

لذلك لم يُهزم دمعُ امرأة قط منذ فجر التاريخ!

قفز من مكانه وجلس إلى جنبها ممسكا يدها:

- لا تبكي يا علية، لا تبكي يا...

كان مترددا في نطق تلك الكلمة.

فقد سمع كثيرا من أصحابه يتحدثون عن أن آفة الجارية أن تفهم عشق سيدها لها، وهو يعلم أنه عاشق ولهان... لكنه يتجلد.

مضى وقت وهو ممسك بيدها دون أن يتلكما، لكنه فوجئ بشفته

السفلى ترتعد. أرسل يدها بسرعة متظاهرا بأنه سيبصق. مشى إلى باب البيت، فسمعتْ صوته يحاول أن يبصق.

شعر بعرقٍ خفيف يتجمع على ناصيته، وهو يسائل نفسه مندهشا: هل فعلا عشقت هذه الجارية؟

قالها وهو يتذكر آلاف الخواطر التي مرت به، وآلاف المرات التي عزم فيها ألا يتعلق بامرأة قط بعد تماضر. ولا يدري كيف تذكر في هذه اللحظة نقاشه قبل أيام مع أصحاب الحديث عن قدرة الإنسان على خلق أفعاله.

فهو مؤمن بأن الإنسان مخلوق مختار يصنع ما يشاء بإرادته دون تدخل للمشيئة الإلهية. فهو يملك بين جوانحه مساحة حرة يقرر فيها ما يشاء. ثم فكر كيف يمكنه أن يحتج بهذه الحجة بعد الآن إذا كان لا يريد أن يعشق هذه الجارية، لكن قلبه يخفق وجبينه يتفصد... وشفته السفلى ترتعد عندما رآها تبكي.

عاد وقد استجمع قواه، جلس إلى جانبها فالتقت عيونهما، تبارقت العيون الأربع... ولن يستطيع أي منهما إخفاء أن في تلك العيون ولها وحبا وتوترا وأخيلة وأسئلة.

التقت عينان من در وعسجد، وعينان من ثرىً وطين.

دارت عيناه بسرعة، فكثر ماؤهما فجأةً وتسارعت حركات أهدابهما. وتحركت عيناها اللتان جفّتا، وإن كانت وجنتاها النديتان تحبسان دمعا سُفحَ قبل قليل.

تساءل في نفسه هل هي دموع صادقة؟ أم دموع جارية تتقن فن اللعب بالقلوب؟

فدموع البشر لا تختلف عن أحاديثهم في شيء. فمعظمها كذب وتصنع، بعضها مجاملات... ونادرا ما يتدفق الدمع خارجا من معين القلب.

عانقها بحرارة دون أن يتلكم، ثم همّ بالوقوف فجذبت طرف كمه:

- أتمنى أن تبعث نفيسا إلى السوق ليأتي بعود يا أبا عثمان لأسمعك ما لم تسمع قط.

جلس دفعة واحدة محدقا فيها وهو يقول بصوت مترع بالمفاجأة:

- هل تحسنين الغناء؟

فقالت بغنج مشوب بلهجة متوعدة:

- أحسن منه ما لا يحسنه الغريض ولا معبد ولا زرياب.

فقال لها وهو يفكر في دمعها الذي جف فجأة:

- ومن علّمك الغناء؟

أشاحت بنظراتها عنه متصنعة التشاغل بإزالة بقعة عن السجادة:

- تعلمته وأنا صغيرة في أصفهان.

- لكن إتقان الصنعة يحتاج مِراناً ومعلمين حذاقا!

- لا أحد في أصفهان إلا يتقن الغناء. ثم..

وتذكرت عدم معرفتها بأصفهان، فهي لم تزرها قط، فخافته أن يسألها سؤالا محددا، ففاجأته سائلة:

- هل زرت أصفهان؟

- نعم، وجالست شعراءها وكتابها ودخلت بيوت الغناء فيها.

- سآتيك بحساء فاليوم بارد.

كان جالسا وظهره إلى الجدار متأملا شعرها المنسدل وملاءتها الداكنة، متسائلا هل لديها سر تخبئه داخل ذلك الصدر الفتان، وقفت، ومرت من أمامه متعمدة أن يلامس ثوبُها العطرُ أرنبةَ أنفه، وهي تدندن بأبيات أبي قطيفة في شوقه إلى المدينة المنورة:

ألا ليـت شـعري هـل تغـيّر بعدنا
قُبـاءٌ، وهل زال العقيـقُ وحاضرُه
وهـل برِحـتْ بطحـاءَ قـبرِ محمـدٍ
أراهـطُ غـرٌّ مـن قريـش تُباكـرُه

مشت في البهو بتأنٍّ ودخلت المطبخ وهي تغني الأبيات بلحن شجي، فترامى إلى سمعه صوتُها الموّقع بإتقان من بين أصوات قرع الأواني بعضها ببعض.

وقف من مكانه متّجها إلى غرفة كتبه وهو ممزق الوجدان.

فلا يدري هل يطير سعادة بهذا الجمال الآسر والصوت الشجي وإحكام صنعة الغناء؟ أم ينقبض خوفا من أن يكون وراء هذه الجارية شر مستطير لم تفصح عنه؟

جلس على طرف سريره ومد يده بتثاقل وأمسك كتابا ليقرأه. وهبّتْ الرياحُ الباردة القادمة من مدخل الدار مع صوتها الشجي مرة أخرى وهي تدندن:

لهـمْ منتهـى حبـي وصفـوُ مـودتي
ومحضُ الهوى مني، وللناس سائرُه!

* * *

الدوحة، 1439هـ

قفز رئيس التحرير إلى قسم الإنتاج، حيث يجلس المنتجون الذين ينفّذون النشرات على الهواء. جاء يركض لاهثا:

- هل تأكد الخبر؟

- لا، ما زلنا ننتظر.

وقف منتج قصير ضخم البطن ومد يده إلى الأعلى:

- انظر إلى الشاشة، إن البي بي سي بثته، يمكننا أن ننقله عنهم...

حدجه رئيس التحرير بنظرة تأنيب:

- كيف ننقل عن البي بي سي خبرا في العالم العربي... هذا ملعبنا نحن، وما لم نؤكده نحن فلن يتأكد... والخبر الذي لا نبثه نحن لم يقعْ!

وظهر على شاشة البي بي سي بعد قليل تنويه بالاعتذار، عن نشر خبر وفاة زعيم دولة عربية، فصفق منتج النشرة الرئيسي الذي ظل يتقلب على جمر الحيرة بين الخوف من الوقوع في نشر خبر كاذب، أو فوات خبر بهذه الأهمية.

وظهر بالأحمر أسفل الشاشة خبر يقول:

«طبيب الملك الخاص: لا زال الملك يرقد في المستشفى وصحته تتحسن».

أحس الكل بالارتياح، وجاء صوت القروي:

- خطأ!

رجع رئيس التحرير مهرولا، من مكتبه، وامتدت أعناقٌ من مكتب الإنتاج مستفسرة. فقال القروي وهو يدس يده في جيب بنطاله:

- هناك فرق بين «لا زال» و«ما زال»، فالأولى للدعاء في الأغلب. كقول الشاعر:

ألا يا اسْلمي يا دارَ ميٍّ على البِلا
و«لازال» مُنْهَلاً بِجَرْعائِكِ القَطرُ!

فالأمثل أن «لا زال» للدعاء.

دوّتْ غمغمات مفاجئة في أطراف غرفة الأخبار، وعاد الاطمئنان لمنتجي النشرة، وتدخل رئيس التحرير قائلا وشفتاه تنفرجان عن أسنانه الطفولية:

- يا محمد، خوفتنا، وكلامك صح. غيروها إلى «ما زال».

ونظر القروي نظرة استفسار لزميله المدقق الجالس بجانبه، فنزع نظاراته الكثيفة ومال عليه:

- هم كانوا متوتّرين، فظنوا أنك تنبه على صياغة خاطئة في الخبر تعطي معنى مغايرا لما أرادوه.

وتذكر القروي أن لا ناقة له ولا جمل في التدقيق. وبدل أن يجلس ليواصل الكتابة، رن هاتفه وكانت أمه على الطرف الآخر.

- لا أسمعك جيدا.

وصعد السلم إلى الكافتيريا، بحثا عن جو أهدأ. فأصبح الصوت أوضح.

- أبوك اشتد مرضه!

- كيف؟ ما باله؟

- أنت ولده الكبير، وكان يحلم بأن يراك تتزوج من إحدى بنات عمه ممن ترفع الرأس... يكون أهلها خؤولة لأبنائك. لكنك....

وشعر بدوار في رأسه، وتسارع في نبضات قلبه، وتماسك:

- طيب... ماذا أفعل؟

وانقطع الاتصال. وجلس على أحد الكراسي مسرّحا نظرَه مع النافذة المطلة على الشارع. فرأى طوابير السيارات أبديةً لا نهاية لها. ولمح عمّالا آسيويين يتراكضون لإدراك باص يتوقف غير بعيد منهم. ثم لمح طرف القمر يطل من ناحية الكورنيش هزيلا حزينا، ملبدا بغيمة تائهة.

شعر بعبثية كل ما هو فيه، وتحولت المذيعة المطلة من الشاشة المغروزةِ في طرف الكافتيريا إلى طفلة عابثة في عينيه. فما قيمة هذا العالم الكاذب الذي نتراكض فيه كالمجانين؟

لم يعرف هل يكلم والده الآن، أم يكلم أمه لتوصل إليه رسالة، فالعادات تمنعه من فتح قصة الزواج مع أبيه.

ولا يدري كيف خطر له أن يكلم حصة ليخبرها الخبر ويسمع رأيها. وأمسك هاتفه واتصل.

- أيوه.

- كيف الحال؟

- لا تكلمني مرة ثانية!

- إيش؟

- ما تكلمني مرة ثانية لو سمحت.... مفهوم؟

وسمع صوت وقوع هاتفه على الرخام الأبيض بين رجليه.

وتخيل نفسه وقد عاد إلى موريتانيا، جاء ليلا إلى مضارب قبيلته، حيث تكفي إشارة منه لنيل ود أجمل فتاة أنجبتها القبيلة. فهو الفتى المتعلم ابن الحسب والنسب، وليس في قبيلته فتاة متعلمة أو جاهلة إلا وتتمناه.

لكنه عندما تخيل نفسه مع فتاة غيرها، وجد قلبه لا يطاوعه. هي فقط التي يريد، بابتسامتها الحائرة، وجنونها الأبدي، وقصصها وأحابيلها، وهاتفها القديم، ووسواسها الإلكتروني.

لا يتخيل نفسه مع فتاة غيرها. لا يتخيل الحياة مع أي فتاة أخرى إلا حياة مَواتا باهتة لا روح فيها، حياة لا حركية للزمن فيها.

ما الذي أغضبها؟ ماذا فعل حتى يغضبها وتطلب منها قطع حبل الود أبدا؟

مشى خطوات إلى البائعة الفليبينية، وطلب قنينة من الماء وعاد وجلس وسط القاعة.

ما الذي أغضب تلك الحمقاء يا ترى؟

وبدأ محاسبة نفسه: ما الذي دفع بي إلى كل هذا؟

ثم فكر في غباء أحد أصدقائه حين قال له يوما:

- لا سعادة إلا لعاشق.

ثم تذكر غباءه هو، وكيف عمّق له الفكرة بأن العاشق لا تراه إلا ضاحك السن، مشرقَ الوجه كأنما الدنيا بين يديه.

ثم خطر له أن أتعس الناس هم العشاق، وذلك لأنهم يظنون السعادة في قرب المحبوب، ويغفلون عن أن مجرد وجود المحبوب بداية العذاب، لأن مفتاح سعادة الإنسان حينها يصبح بيد شخص آخر، يغلق قلبَك وقت ما شاء ويفتح لك أبواب السرور متى شاء.

ودخل أحد الصحفيين ورمى التحية:

- كيفك يا محمد؟

- بخير.

وعاد إلى الأسئلة الحارقة. كيف رمى فجأة -في غفلة من عقله- بمفاتيح قلبه إلى تلك الفتاة لتعبث به كيف شاءت؟ تفتح له أبواب السعادة، فتنفرج أسارير وجهه وتطيب عشرته للناس. وما إن تقرر إغلاقَ قلبه حتى تتحول الحياة في عينيه موكبا عبثيا لا معنى له... عمالٌ يتراكضون إلى باص، وطابور من السيارات لا ينتهي، وقمر كئيب، وأشباح بشرية تتقافز على شاشة مثبتة في طرف حجرة باردة.

قام من فوق مقعده، فسمع إشعارا برسالة نصية في هاتفه.

لمحها، فوجدها من حصة. لم تزد على سطر:

«كذبت علي، روحْ تزوج زينب بنت الأمين».

وشعر بكيانه يهتز.

كيف عرفت تلك الشيطانة هذا الاسم، ومن أخبرها به؟!

وفي غمرة المفاجأة راح يستعرض احتمالات وصول الاسم لتلك الشيطانة. ثم تذكر.

كيف أمسكت هاتفه للحظة، وتذكر قولها له مرة إنها تستطيع الدخول إلى أي هاتف شاءت.

وتراءت له ضحكتها المستفزة قائلة:

- النفاثات في العقد!

وتخيل روحه عارية أمامها، تقرأ خلجات قلبه كلها، متأملةً كل صوره في الماضي والحاضر، وكل حالاته نائما ومستيقظا.

وتذكر وجه زينب بنت الأمين، وضحكتها الدائمة وبراءتها، وكونها لا تكاد تتهجى الحروف، فكيف بالسطو على أخص الخصوصيات. وانتابه شعور بالعجز. شعور طائرٍ في قفص، أو سجينٍ هارب كُبل فجأةً بأغلاله من جديد، تراخى على كرسيه، وشبك ساعديه ووضعهما على الطاولة ورمى رأسه بينهما. ثم جاءه صوت مازن:

- هلا محمد كيفك؟

ورفع وجهه من بين ذراعيه بتثاقل، محاولا مداراة أكوام الهموم التي يحمل فوق كتفيه:

- بخير.

وغمزه مازن بطرف سيجاره ممازحا:

- مالك يا أخي؟

- أحدثك لاحقا.

ومشى بتثاقل كأنه يقتلع رجليه من الأرض اقتلاعا، ونظراتُ

مازن المتسائلة تُشيعه حتى توارى وراء باب الكافتيريا.

نزل من السلم وهو يطرد من ذهنه عبارةً قرأها قديما لنيتشه، واستيقظتْ من ذاكرته فجأة: «إذا كان قلبُ الرجل مكمنا للقسوة، فقلب المرأة مكمنٌ للشر»!.

البصرة، 200 هـ

مرّ يومان كاملان على الجاحظ لم يترك خلالهما بيته حتى إلى المسجد، سقطت كل هموم الدنيا على هامته، ومما زاد في همه أن علية لم تستطع التخفيف عنه، بل زادت همه هموما.

نزل عن سريره وأخذ كتابا عن الخيل عند العرب، وعاد إلى السرير ليقرأه، استلقى على قفاه واضعا الكتاب الجلدي على صدره، وبدأ يقرأ.

قرأ صفحات ثم لاحظ أنه لم يفهم كلمة. كأن موضوع الكتاب عن السفر إلى بغداد وجاريته علية، وتاريخ الصراع بين المأمون وأخيه الأمين الذي قُتل قبل سنين، وحقيقة ابن الزيات.

وضع الكتابَ منزعجا مفكرا في خداع عقولنا لنا حتى مع الكتب. فهل الكتب لا تعطينا إلا ما في أذهاننا أصلا؟ وإلا كيف قرأ صفحات لا يذكر منها إلا أنه سيدخل بغداد وينادى باسمه عند باب أثرى أثرياء بغداد ابن الزيات، مع أن الصفحات تتحدث عن الخيل!

جلس مُنزِلا رجله من فوق السرير، متسائلا: هل يعني هذا أنني لا أجد في الكتب إلا ما كان مطمورا في ذهني قبل قراءتها؟ فلا أجد فيها إلا ما أريد أن أجده فيها؟ وهل لهذا علاقة بقول حكيم اليونان إن العلم ما هو إلا تذكر، والجهل ليس إلا نسيانا؟ فحتى هذه الكتب التي

أفنيتُ العمر في جمعها ومعاشرتها لا تعطيني ماهيتها، فلا تمنحني إلا ما كان مطمورا في دهاليز نفسي.

قام من فوق سريره ملقياً نظرة على علية التي بدت قمرا وهي ما بين اليقظة والنوم. نظر إليها وهو يفكر هل في العراق جارية أحسن منها، لكن ذهنه ذهب إلى الرسالة التي أتته أمس وغيرت عالمه.

إذ كان جالسا وسط حلقة المسجد يناظر بعض أصحابه في الفلسفة، كان هو يدافع عن الأدلة على وجود الله وإمكان النبوءة، وكان أحد أصدقائه يحشد الأدلة على استحالة النبوءة عقلا، فدخل عليهم فجأة جندي.

وقف الجندي قرب السارية في ملابسه السوداء، وعمامته المُقبّبةِ، وذراعاه المفتولتان تغطيهما جلودٌ واقية.

انحبست الأنفاس انتظارا لما يقوله. قال الجندي الذي يبدو عليه الإرهاق:

- أين أبو عثمان عمرو بنُ بحرِ الجاحظ؟

ما إن أنهى الجندي كلمته حتى التفت الناس بعضهم إلى بعض، خوفا من أن تكون في الأمر وشاية عند سلطان، أعاد الجندي سؤاله بحزم مغيرا صيغته:

- أيكم الجاحظ؟

فالتفت الجالسون هذه المرة إلى الجاحظ دون أن ينبسوا ببنتِ شفة، أما الجاحظ فمرت بذهنه آلاف الاحتمالات في ثوان، فكّر في أن الجندي ربما يدعوه لمنادمة السلطان بعد أن سمع أو قرأ أحد كتبه، أو

لعله جاء بعد أن وشى به أحد طلاب الحديث متهما إياه بالاستخفاف بالحديث والمبالغة في مكانة العقل، وسط تلك الاحتمالات والأخيلة سمع صرخات بشار بن برد: حسّ آه، حسّ آه....

رفع يده قائلا:

- أنا الجاحظ.

ثم تقلصت شفتاه رعبا، فلا يدري هل عرّف بنفسه عن شجاعة أو خوف. فكثيرا ما أُوّلتْ تصرفات نابعة من الشجاعة على أنها جبن، وأخرى نابعة من الخوف على أنها شجاعة.

فعندما يقفز الإنسان من علٍ ليقتل نفسه، ألم يملك قدرا من الشجاعة مكّنه من القيام بتلك الخطوة المهولة؟ ومع ذلك، أليس الجبن عن مواجهة أعباء الحياة الدافع وراء تلك الخطوة الرهيبة؟

ضج خياله بتلك الأسئلة حتى في هذه اللحظة، فذهنه لا يتوقف عن المقارنات. أثناء ذلك، تقدم الجندي وناوله كتابا.

تناول الكتاب محتارا. أيفتحُه هنا بين رفاقه، أم ينتظر حتى يخرج فلعل فيه ما يستحق الكتمان، التفت إلى جلسائه، فرأى الوجوه واجمة، والشفاه قد تقلّصتْ، وبعض العيون تغضي إلى الأرض مخافة الشماتة، وأخرى فيها بريق وتلهفٌ وأسئلة محبوسة تكاد تفر من عقال شفاهها.

أما الجندي، فلم ينتظر، وولىّ ماشيا، خارجا من باب المسجد.

التفت أحد الجلساء إليه قائلا:

- ما دام الرسول قد ولىّ، فالأمر أمر خير.

ابتسم الجاحظ، وهو يرفع يسراه إلى وجهه خلسةً ليمسح حبيبات

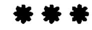
عرق تجمعن على جبهته، متمنيا ألا يكون جلساؤه لاحظوا وجودها. ثم التفت إليهم متصنعا الابتسامة، ملمحا إلى آخر فكرة كان خصمه يدافع عنها فقال:

- وما الفرق عند الحكماء بين رسول البِشر ونذير الأسر؟ فأحوال هذا العالم قائمة على الوهم!

سرت ضحكةٌ متفاوتة مفعمة بالتوتر والانتظار. أمسك الجاحظ الكتاب بيسراه وبدأ يحل الخيط الجلدي الذي يطوقه بيمناه.

لكن اضطراب إبهامه كان كاشفا عمّا انتابه بوضوح.

كانت الرسالة من بغداد تطالبه بالحضور حالا.



بغداد، ما بين 200 و208 هـ

كان خانُ الوردِ في بغداد ضاجاً بحركة الزبائن من مقيمين ومغادرين في ساعات الصباح الأولى، فوقوعه قرب باب الطاق يجعله الخان المفضل للتجار والمتصوفة والمتسولين الذين لا يخلو منهم مدخله.

خرج الجاحظ من غرفته بعد أن اغتسل وتطيب، فسمع تاجرا أجش الصوت يصيح بغلمانه:

- الصباح رباح! أسرعوا.

مر على مشرف الخان ودس دراهم في يديه، ثم خرج إلى الشارع. اخترقت سمعَه أصواتٌ مختلطة؛ حناجر الباعة المنادين على بضائعهم، ومماكسة بين مشترٍ وبائع، وضحكات جوار جالسات قرب عتبة دكان.

تجاوز الجواري مفكرا في غرابة أصوات المدن الكبيرة التي لم يألفها المرء متسائلا: هل كان يسمع نفس الأصوات في البصرة لكن الألفة حالت دون ملاحظتها؟ أم أن المدن التي لا نعرفها تتلقانا بتجهم وتوجس؟

نظر إلى الورقة التي بيده مراجعا عنوان المكان الذي يقصده، أرجع الورقة إلى جيبه وهو يستنشق رائحة قوية يختلط فيها عبير العطور بنكهة البهارات والسمك المجفف.

سمع صوتا آتيا من أعلى يقول:

- هو والله نذيرُ الشؤم!

رفع بصره فرأى سيدة بخمار أسود تتحدث إلى جارتها من شرفة منزلها، وبيدها قطة شائهة الخَلق. شعر بانزعاج وتطيّر وهو يفكر في أن أول كلمة يسمعها في طريقه إلى منزل ابن الزيات هي كلمة «نذير الشؤم». لكنه لم يلبث أن راجع نفسه أن لا ضارّ ولا نافع إلا الله. ثم عاتب نفسه: إذا كان أهل العدل والتوحيد يتطيرون فماذا تركنا للعامة والدهماء؟

طرد التطير من ذهنه متذكرا صورة علية واقفة تودعه... حائرة بين البكاء والوداع.. متأرجحة بين عالمَين.

صورتها -وهي واقفة أمام منزله ملوحة بيدها- تكاد تختنق بعبرتها. غير أن ما جعلها لا تغيب عن ذهنه ليس شوقه إليها فحسب، بل ذلك السر الغامض الذي تخفيه، وذلك الخوف الذي يستبد به كلما فكر في ذلك الأمر الذي تخفيه.

لم تحك له القصة كاملة، فلو حكتها له لاستراح. أعطته أنصاف حقائق وأنصاف جمل، وأنصاف خلاصات.

وأنصاف الحقائق أخطر من غياب الحقائق بالكلية. كما أن الغياب الكامل للحديث أكثر إفهاما وإفصاحا من الحديث المتقطع الملتوي.

فهم منها قبل سفره حزنا وخوفا عليه وعليها. وعندما ألحّ سمع منها كلمات: «بغداد...، كنت جارية...، ولا أستطيع...، وهو الموت...».

تذكر ما قاله لصديقه النظام من أن الأدب وإحكام الصنعة الذي

عندها لا يكون إلا لجارية خليفة أو أخد من حاشية الخليفة.

كانت هذه الأفكار تتقافز في ذهنه وهو يقف أمام الحارس قائلا:

- قل له: عمرو بن بحر بالباب.

بعد قليل عاد الحارس ليقوده إلى غرفة واسعة مؤثثة بفرش الصوف أحسن ما يكون الأثاث. جلس متأملا الغرفة، وهو يقارن بين هذا الأثاث وأثاث بيت أمير البصرة، ملاحظا تواضع مجلس الأمير مقارنة بهذه الغرفة.

رفع نظره متأملا السقف المزين بالفسيفساء الدقيقة التي تميل ألوانها وزركشاتها إلى الأخضر والذهبي. ثم ردده في زواياها فرأى فهودا ذهبية كأن الحياة تدب فيها، وعلى مقربة منها طاولة دائرية قصيرة القوائم عليها كتب وقراطيس وأقلام.

ثم سمع صوتا قادما في الردهة.

دخل ابن الزيات مرتديا ملابسه متشحا سيفه وهو يقول بضحكة واسعة:

- أخيرا رأيناك!

وقف الجاحظ مرتبكا حتى كاد يعثر وهو يقول:

- شرّفكم الله!

تعانقا ثم أشار ابن الزيات إلى ركن الزاوية:

- تفضل، تفضل.

كان قلب الجاحظ ممزقا بين السعادة والخشية، وبين الطمع في السلامة والطمع في المغنم. فكان ينظر إلى الابتسامة الواسعة على محيا

الزيات، فيرجح أنه ما أتى به إلا ليقتبس من علمه وأدبه. لكنه ما يلبث أن يراجع نفسه متذكرا أنصاف الجمل التي قالتها له علية وهي ترتعد.

انتشله ابن الزيات من تلك الأفكار قائلا:

- والله إن كتبك أشهى من الراح بأيدي الملاح يا أبا عثمان.

- شكر الله لكم.

قالها وشعور بالأمان يجتاحه بتدرج، طاردا عنه صورة علية.

دخل غلامان يحملان صينية كبيرة عليها أوان مختلفة مغطاة بقماش من الحرير. وضعاها ثم انصرفا.

دخل غلام آخر وأزاح الغطاء فظهرت مائدة ملونة لا تكاد تخلو من صنف من أصناف الطعام.

بذل الجاحظ جهده حتى لا ينشغل بالنظر إلى خِوان الطعام عن النظر في عينيْ جليسه. بادره ابن الزيات قائلا:

- تفضل يا أبا عثمان، ثم قل لي كيف أنت وكيف حال البصرة؟ وكيف رأيت بغداد؟

اقترب الجاحظ من الخوان وقد اطمأن به المجلس، فابتسم نصف ابتسامة وهو يقول:

- والله يا أبا جعفر، إن البصرة بخير، وإنها لأحسن مدن الدنيا.

- وما الذي يجعلها أحسن مدن الدنيا؟

- إن البصرة عالم صغير ينطوي في تلافيفه العالم الأكبر. ففي أي مدن هذا العالم تجد النسطوري والمانوي والعامي والشيعي والصوفي والأعرابي والخراساني والبنوي والزنجي في صعيد واحد إلا في البصرة؟

- صحيح!

قالها ابن الزيات ولم يزد عليها، وكأنه يحث الجاحظ على مواصلة حديثه.

- فأنت إذا سرت في شارع واحد من شوارع البصرة سترى عابد البِدَدَة الهندي، وماسحَ الصليب النصراني، ومؤذنَ المسلمين، والمجوسي والمانوي. ولا أحسب مدينة من مدن العالم غير البصرة تحوي ذلك كله.

مد ابن الزيات يده لقطعة من البطيخ ثم قطعها بأناقة وناولها للجاحظ وهو يقول:

- لكن بغداد تكاد تساويها في ذلك. ولولا الفتنة التي خربتها خلال الأعوام الماضية لكانت أنافتْ عليها.

- إن للبصرة ما ليس لغيرها من المدن، فالسعر فيها أرخص، فهو على النصف من سعر بلاد الشام وغيرها، فلو أردت مثلا أن تبني دارا في الكوفة أو بغداد أو الشام لكلفك بناؤها مائة ألف درهم.

- سمعت ذلك.

- أما لو ابتنيتها في البصرة فلن تكلفك إلا نصف ذلك.

- وما سبب ذلك؟

- لأن الدار إنما تُبنى بالآجر والطين والجصّ وأجذاع الشجر والحديد والخشب والصناع. وكل هذا بسعر النصف بالبصرة لكثرة سكانها مع وفرة الدرهم والدينار.

- صحيح.

- ثم إن خراج البصرة وحدها يساوي أضعاف خراج مدن العراق مجتمعة. فعدد السفن التي تدخل البصرة ولا تبيت بها في اليوم الواحد ألفا سفينة.
- ومع هذا يفاخركم الكوفيون؟
- ثم إن للبصرة ميزة أخرى يا أبا محمد، وأنت أدرى..
- ما هي؟
- إن خراج البصرة من أكثر الخراج. فخراج العراق كله مائة ألف ألف، واثنا عشر ألف ألف. وخراج البصرة وحدها من ذلك هو ستون ألف ألف!

رفع ابن الزيات رأسه مبتسما وقال وكأنه يتنهد:

- آه! أراك اشتقت إلى البصرة وأنت ما تركتها إلا أمس!

ضحك الجاحظ، ثم عدل جلسته، فبادره ابن الزيات قائلا:

- هل تدري لم دعوتك يا أبا عثمان؟
- دعوتموني لكرمكم وحبكم العلم والأدب.
- لقد قرأتُ كتابك عن حيل اللصوص، وكنت أضحك طول الليل فيظن الجواري والغلمان أن بي مسًّا من جنون، كما قرأت لك نُتَفاً متفرقة أخرى، فرأيت أدبا مشوبا بعقل، وتخيلا ممزوجا بظرافة ما رأيت مثلها عند الكتاب ولا الشعراء.

شعر الجاحظ كأن جبلا أزيح عن كاهله، فمدّ يديه لأخذ سفرجلة من فوق الصينية وقال:

- ما ذاك إلا من أدبكم وطيب منبتكم.

رفع إليه ابن الزيات وجهه، فلاحظ للمرة الأولى درجة دمامته وهو يتأمل رأسه الدقيق ورقبته القصيرة، فبادره قائلا:

- سأشترط عليك يا أبا عثمان.

- اشترط ما بدا لك يا أبا جعفر.

- أشترط أن تحادثني كما تحادث أقرب أصدقائك إليك، وألا تستعمل الكُنى إلا استعمال الصديق لها.

- لك ذلك.

ثم قال ابن الزيات وكأنه تذكر أمرا نسيه:

- دعوتك يا أبا عثمان لأقتبس من علمك وأدبك. فأنا رجل وُلدت في بيت تاجر، إلا أن قلبي قلب شاعر، فتجارة والدي هذه لا يعنيني منها إلا ما أقضي به حاجاتي وأشتري به كتبي.

- متعك الله بمباهج الحياة.

- لقد أمرت الغلمان بتجهيز مسكنك، كما أمرتهم بالسهر على خدمتك. وسيأتيك أحدهم غدا لنلتقي في بيت الحكمة.

مال ابن الزيات جهة الباب وصفق بيديه، فأقبل أربعة غلمان يتسابقون، أشار لأحدهم برفع المائدة وهو يقول:

- لقد بدأ أمير المؤمنين المأمون في إحياء «بيت الحكمة» الذي أسسه آباؤه وقد ملأه بتراجمة لسبع لغات، هي: السريانية والهندية والعبرية واليونانية والقبطية والفارسية والحبشية.

شعر الجاحظ بغيرة دفعته إلى التساؤل، وهو يحكّ رقبته:

- وهل أجرى عليهم أجورا؟

- نعم، خمسمائة دينار في الشهر للمترجم.

ثم استعجل حتى يعرف طبيعة ما يخبئ له الرجل:

- لكنني يا أبا جعفر لا أعرف من اللغات إلا نُتَفاً من الفارسية قليلة، وهي ليست لغة علم ولم يُكتب بها شيء ذو بال.

فهم ابن الزيات استفسار صاحبه، فقال مبتمسا:

- لكني ما أتيت بك للترجمة. بل لأقتبس من علمك وأعينك على التفرغ للتأليف.

ما إن سمع الجاحظ العبارة حتى شعر بسعادة غامرة تجتاحه، شعر برعدة في ركبتيه لا تنتابه إلا عند الخوف الشديد أو السعادة الفائضة. فهل وجد أخيرا ما كان يحلم به طيلة حياته؟ هل وجد رجلا ثريا يتولى عنه شؤون الدنيا ليتفرغ تفرغا تاما للتأليف دون حاجة إلى التفكير في المعاش؟

لكن ابن الزيات لم يمهله؛ فقال وقد تذكر ما حدثه به المأمون البارحة.

- كيف صاحبكم سهل بن هارون؟

وقع السؤال وقعا غير مريح، إذ خطر ببال الجاحظ أن ابن الزيات قد يسأل عنه ليشركه معه في المهمات التي سيكلفه بها؛ فقال:

- هو بخير، وما زال شديد التعصب على العرب، يكاد قلبه يحترق غيظا عليهم وحبا للفرس.

ابتسم ابن الزيات -وهو يريد أن يقف ليأخذ كراسة من فوق الطاولة المستديرة- ثم قال وهو يقلب الكراسة:

- لقد اطلعت على رسالته هذه في ذم العرب، ووالله إنها لظريفة ومحشوة أدبا وظَرْفا.

- لا شك أنه رجل من أهل البلاغة والترسل، لكن ذم العرب وتتبع عوراتهم ليس من شيم الأكارم، وهو مع ذلك صديق ودود، ولقد كنت معه يوم كتب هذه الأوراق التي بيدك.

ثم روى الجاحظ كيف كانوا مع المسجديين وجرت مناظرة حامية بين من يتعصب للعرب ومن يتعصب للفرس، إذ كان سهل بن هارون وأبو نواس يتعصبان للفرس، فيما كان الجاحظ يدافع عن العرب.

ثم ابتسم الجاحظ وقال:

- وبعد انقضاء المناظرة في المسجد عاد سهل إلى بيته وكتب هذه الوريقات في ذم العرب، غير أن الناس لم تلهج في ذلك اليوم إلا بأبيات أبي نواس في ذم الشعراء العرب ووقوفهم على الأطلال.

- ماذا قال؟ قاتله الله ما أظرفه!

تربع الجاحظ وقال بصوت فخم ومخارج واضحة:

عـاجَ الشـقِيّ عـلى ربـع يسـائله
وعُجـتُ أسـألُ عـن خَمّـارَةِ البلـدِ
يبكي عـلى طلل الثاوين من أسـد
لا درّ درّك قـل لي: مـن بنو أسـد؟
ومَـن تميـمٌ ومَـن قيـسٌ ولفهـا؟
ليـس الأعاريب عنـد الله من أحد
لا يُرْقِئ الله عينـيْ من بكى حجَراً
ولا شفَى وَجْدَ من يصْبو إلى وَتَدِ!

دوّت ضحكة الزيات وضرب رجله طربا على الأرض وقال:

- وأبو نواس مع ذلك عربي يماني النسب، ولعل الظَّرْف هو ما حمله على هذا القول فلا تهتم يا أبا عثمان، فالعرب هامةُ الناس، وموضعُ الغرةِ من الفَرس، والقلادة من الحسناء، ومَقبَض السيف. فلا يضرهم شتم ولا يزيدهم ثناء.

ثم وقف الزيات كأنه تذكر أمرا نسيه، فصفق بيديه، فدخل غلام رومي شديد البياض ومال عليه فهمس في أذنه.

خرج الغلام مسرعا، والتفت ابن الزيات إلى الجاحظ وقال:

- أبا عثمان، هنأ الله منزلك فوالله إني بقدومك لسعيد، والحديث ذو شجون، ولعلي أراك الليلة إنشاء الله.

عاد الغلام وبيده صرة، أخذها ابن الزيات ووضعها بين يدي الجاحظ، وقال وقد تجمع الدم في وجهه:

- هذه خمسة آلاف دينار صلة لك يا أبا عثمان، فتقبلها مني، وأتمنى أن تأتي بأهلك إلى بغداد فهم أهلنا.

تزاحم شعور السعادة والخجل والغبطة في نفس الجاحظ، فقال بتلعثم:

- أحسن الله إليك، وجازاك.

وقفا من مكانهما فيما اقترب غلام يقود بغلة ليأخذ الجاحظ إلى مكان إقامته الجديد.

* * *

الدوحة، 1439 هـ

تغير جو غرفة الأخبار، وفقدت التوترَ البهيجَ الذي كان يحس به ساريا في أطرافها. فمنذ هجرتْه حصة أصبحت الممرات الضيقة للقناة موحشة، وتحول الزملاء الذين يتراكضون فيها إلى أشباح بلا وجوه ولا أسماء؛ صاروا كُتَلًا بشرية بلا هويات، وسُحَناً بلا ملامح، ووجوها بلا تقاسيم.

غدا تراكضهم الأبدي لملاحقة الأخبار عبث أطفال، وبات لا يستطيع فهم الطاقة التي تدفع المنتجين لمطاردة الأخبار؛ فهل في الدنيا خبر يستحق كل هذه الجدية وذاك التشمير؟

أصبحت ساعاته موزعةً بين التثاؤب على كرسيه، والانشغال بهوايته في تصحيح أخطاء ترجمة غوغل علَّ ذلك يساعد في تحريك كُتل الزمن الجاثمة على كتفيه. أصبح الزمن باهتا خاليا من الحركة.

تثاءب وهو يردد بيت العربي القديم:

عجبتُ لسعي الدهر بيني وبينها

فلما انقضى ما بيننا: سكنَ الدهرُ!

أهمل الملف الموجود على سطح حاسوبه بعنوان «الجاحظ»، ولم يكتب منه حرفا منذ بدأت مشكلته مع حصة؛ فما قيمة الانشغال بالكتابة عن كاتب بصْريٍ شائه الخِلقة كان يعيش قبل 1200 عام؟

تحاشى الذهاب للكافتيريا رغم تفكيره الدائم فيها، وصار يكلف صديقه مازنا بإعطائه المعلومات كاملة عن جوها. فما إن ينزل مازن حتى يتلقاه عند نهاية السلم الخشبي كأنه طفل كبير:

- هل رأيتَها جالسة هناك؟ مع من تتحدث؟ هل صاحبتها البدينة معها؟ هل سلمتْ عليك؟

ينصت إنصات الرهبان لأجوبة مازن. وينتهز صديقه الفرصةَ لاصطناع بعض القصص المزعجة، ثم ينفجر ضاحكا:

- أمزح معك يا أخي، أنت تصدق كل شيء!

ويرد القروي يدَه إلى جبهته الغماء ليلمسها قائلا بارتباك:

- بدون مزح، الله يخليك!

يرفع مازن عينيه إلى سقف غرفة الأخبار، ثم يعيدهما لوجه صديقه متأملا شفتيه الغليظتين:

- يا أخي عندي فكرة، ما أدراك أنها تتمنى لقياك كما تتمنى لقياها؟ لماذا لا تذهب وتكلمها؟ هي الآن في الكافتيريا.

- أخشى من غوائل العادات الخليجية. فلو كان المجتمع معافىً في وعيه، حسنَ الظنِّ بالناس لفعلت، فالعلاقات بين الجنسين ليست طبيعية هنا، وأخشى أن تنزعج فتشكو مني.

- لا، ما أظن، هي تحبك في النهاية.

تذكر القروي قصة سمعها عن أحد أبناء قريته ممن عمِل في سلك الشرطة بإحدى دول الخليج قبل عشرين سنة. كان يحرس مفوضية للشرطة، وفي الصباح دخل الضابط المسؤول ليجد منشورات معارضة

للسلطة عند مدخل المفوضية، فغضب وطلب إحضار الحرسي المناوب، فجاءه الشاب الموريتاني. فصاح به:

- لقد أصبحت المفوضية غارقة بالمنشورات، هل كنت نائما؟

فرد الشاب بكل برودة:

- لا، كنت مستيقظا ورأيت من يوزعها.

- كيف؟

- لكنها كانت امرأة. وضعتها أمام عيني ولم أحرك ساكنا.

- لم؟

- خفت إن أمسكتها أو تعرضت لها أن تُسفّروني غدا وتضعوا على جوازي ختما يقول: «طرد من البلاد بتهمة المغازلة!».

أفاق من تذكر القصة وهو يقول لمازن:

- أخشى أن تحملها الغيرة على تصرف ما.

فمال عليه مازن قائلا بنبرة غنائية:

- «فالعذارى قلوبهن هواءُ»، كما قال شوقي. هي تحبك في النهاية. اذهب وكلمها، وأستأذن منك فعندي نشرة بعد قليل.

مشى مازن إلى قسم المقابلات، فيما ظل القروي واقفا عند مدخل غرفة الأخبار حائرا، معلقا بين الخوف والرجاء. بين العودة إلى كرسيه، وبين تسلق السلم المؤدي إلى الكافيتريا حيث تجلس معشوقته.

نظر إلى السلم الخشبي المؤدي إلى الكافيتريا كأنه دهليز سحري يقود إلى الفراديس.

ثم فكر في تقلب مزاجها، وصعوبة التنبؤ بتصرفاتها في أوقات

الرخاء والرضا، فكيف بأوقات الغضب، وبين ألسنة لهيب الغيرة، وما إن بدأ يتذكر مزاجها المتقلب حتى ازداد تعلقا بها وشوقا لرؤيتها، كأنه يتذكر المحاسن التي تجذبه إليها.

وأحس باندفاع شديد للحديث معها، وباستهتار بكل الحواجز والعوائد والعواقب، ووجد نفسه يضع رجله على السلم ليسلمه إلى مدخل الكافيتريا. فتراءت له جالسة في طرفها وهاتف نوكيا الأزرق القديم على الطاولة أمامها. كانت وحيدة، ونظرت إليه كأنها كانت على موعد معه دون أن تتكلم.

ودون أن يفكر مشى إليها.

لم ترفع بصرها عن هاتفها.

- كيفك؟

- الحمد لله.

وجلس على الكرسي المقابل، كأنه يمسك بحافة جبل شاهق، متأرجحا بين الهاوية والوصول للقمة، ورفعت بصرها، فقال:

- كل ما أريده منكِ أن تتركيني أشرح لك قصةَ تلك الفتاة... زينت بنت الأمين.

ورفعت إليه بصرها دون أن تنبس، وامتلأ خيالها بصورة تلك الفتاة ذات الابتسامة الآسرة، والملابس الملونة، والحناء القانية.

وقرأ في عينيها ألماً وصبابة، وإذنا بالحديث...

فانطلق يتحدث بكل حواسه كأنه محام بارع يدافع عن أعدل قضية في العالم.

وازدحمت الكافيتريا بالداخلين والخارجين، لكنه كان غائبا عن ذلك الزحام تماما. يتحدث كأنه يخطب في الدنيا، والدنيا كلها منصتة لحديثه، وما الباقي من الدنيا إذا كان الحبيب يستمع إليك بكل حواسه.

واسترخت حصة في مقعدها، وارتخت يدها عن الهاتف، وأصبحت أكثر قدرة على النظر في عينيه. ولم يمر وقت طويل حتى كانا يضحكان ويتحدثان، وخطر له أن لا شيء يشبه معارك الأطفال كمعارك المحبين، تبلغ ذروة البطش والعنف لأتفه الأسباب، وتنحل وتختفي لأتفهها كذلك.

ودخل مازن من باب الكافيتريا، فرأى صاحبه مندمجا في الحديث، وفتاتُه ترقبه بكل حواسها بابتسامة عريضة.

أخذ قهوة وعاد من باب الكافيتريا، وهو يلعب بطرف سيجاره قائلا في نفسه:

- إن أغبى شخص من يهتم بمعارك المتحابين.

***

بغداد، 208 و2018 هـ

كانت شخوص الداخلين والخارجين تنعكس على صفحة البركة المائية المستطيلة وسط «بيت الحكمة»، فالممرات الأربعة المحيطة بالبركة لا تخلو من العلماء والكتاب الغادين والرائحين.

على أطراف البركة، تنتصب شجيرات البرتقال المصفوفة بعناية، مما يجعل رائحته الطرية الممتزجة بالريحان والغبار تتلقى الداخلَ.

في كل زاوية من زوايا البركة، يجلس أربعة رجال بأيدهم كتب وأقلام وقراطيس، كان أحدهم يقرأ نصا بلغة غريبة وبصوت عال، فيما يندفع الآخر في كتابة ذلك النص باللغة العربية، أما الآخران فيراجعان ما يكتبه الثاني.

أثناء ذلك، يتنقل غلام سندي وبيده جام من الفخار يصب منه ماء الورد المثلج لكل حلقة من تلك الحلقات.

كان معظم الداخلين إلى الدار يتجهون إلى ديوان أمين بيت الحكمة الذي عينه المأمون قبل أيام. أمام ديوانه، يقف شيخ أدْرَدُ يُراوح بين الحديث باليونانية والسريانية والعربية بزهو، فيما يتجاوزه الجاحظ مشمرا جبته، مشغولا بترتيب عمامته.

كان الجاحظ عادة لا يتجاوز أول حجرة عن يمين الداخل حيث

تقع مكتبة ضخمة تحتوي آلاف الكتب، فقد ظل طوال الأشهر الستة الماضية يقضي فيها سحابة نهاره، غير أن تعيين المأمون لصديقه سهل بن هارون غيّر برنامج هذا اليوم. فقد عين المأمون سهلاً أمينا لمكتبة أتت من جزيرة قبرص.

دخل الجاحظ فتراءى له سهل جالسا على كرسي في حجرة واسعة تحيط به الكتب من كل جانب، كما يجلس أربعة رجال عن يمينه وأربعة عن يساره منكبين على كتبهم ودفاترهم.

بدا سهلٌ في قلنسوته الحمراء المحددة الرأس، وعمامته الملفوفة فوقها، ودراعته البيضاء شخصا مختلفا في عين الجاحظ.

إذ كانت آخر مرة رآه فيها في دكانه بالبصرة، بين غلمانه وسط ضوضاء سوق الوراقين.

- السلام عليكم ورحمة الله!

وقف سهل من مكانه فاتحا ذراعيه:

- وعليكم السلام، حيا الله أبا عثمان!

تعانقا، غير أن رائحة غبار الكتب حبست أنفاس الجاحظ، فألحت عليه كحة حاول مداراتها قائلا بنفس متقطع:

- بارك الله لك في القرب من أمير المؤمنين.

- يا أهلا وسهلا، وبارك لك في القرب من ابن الزيات.

تساءل في نفسه هل يقصد سهلٌ التعالي عليه بتلك المقارنة أم هي مجرد تهنئة؟ لكن سهلا قطع عليه فكره:

- يا غلام، تعال بماء الورد والفواكه وما تيسر.

نظر الجاحظ بطرف عينه جهة الباب حيث يقف الغلام، ثم قال بسخرية:

- أما الآن فيمكنك أن تضيّف الناس بكرم الأعراب، لأن المال ليس من خزائنك بل من خزائن قوم آخرين.

- لا شيء ألذ من الإنفاق على الناس من جيب غير جيبك، وهذا هو سر كرم الأمراء!

دخل الغلام ووضع صينية مملوءة فواكه، يتوسطها جام مملوء بماء الورد المثلج. مد سهل يده المغبرة إلى كأس من ماء الورد ورشف منه صفيراً، ثم قال:

- كيف مقامك مع ابن الزيات يا أبا عثمان؟

- والله لنعم المقام.

- هل أنساك أيام حي العلافين ومجاورة حميد البغّال، ومُصاقَبَة الدهماء؟

- أعوذ بالله، لا أعادها الله من أيام.

ضحك سهل، لكن الجاحظ لم يمهله وهو يُغضّن خدَّه ويغمز:

- وهل أنستك مجالسةُ أمير المؤمنين دربَ الوراقين، واستلاف الخبز من الفران الذي قرب بيتك؟

- لا والله! فما فيه أنا وأنت الآن ما هو إلا نتيجة لتلك الأيام وذلك الجوع والصبر. فلولا اختفاء الحبة في بطن الأرض ما كان الثمر، ولولا غوص الغواص في لجج البحار ما عاد بالدرر.

لاحظ الجاحظ أن بعض مساعدي سهل توقفوا عن أعمالهم

وانشغلوا بالاستماع لحديثه مع صديقه؛ فقال بنبرة اعتذارية:

- كأني شغلتكم عما كنتم فيه؟

- لا عليك، فهذه الحجرات الثلاث بها مئات الكتب التي جاء بها أمير المؤمنين من قبرص، فقد اشترط على حاكمها ألا يقبل منه صلحا إلا إذا أرسل إليه ما في بلاده من كتب، وهؤلاء الرجال يقومون بتصنيفها وفهرستها.

- لكنها بلغة الروم.

فقال سهل وهو يشير بيده نحو الباب، وجبينُه يتفصد عرقا، فيما تظهر حبيبات غبار على أهداب عينيه:

- بعد انتهاء تصنيفها وفهرستها سنحولها إلى أولئك الحمقى ليترجموها.

- سمعت أنكم تُجرون على المترجم خمسمائة دينار؟

- هذا للمترجم الشادي. أما المترجم المتمكن فقد يصل ألف دينار.

- لقد اطلعت على ترجمة كتاب «المِجِسْطِي» لبطليموس فرأيت عِياً وتهاويم وتخاليط مع صعوبة في العبارات.

- تلك ترجمة الحجاج بن مطر، ومع ذلك ها هو في تلك الحجرة يمشي كأنه طاووس!

ابتسم الجاحظ مُمِراً طرف عمامته لمسح العرق عن وجهه وقال:

- أطلعني ابن الزيات على وريقات من كتاب الصوت، الذي يترجمه له حنين بن إسحاق. ولم تعجبني الترجمة أيضا.

وقف سهل من فوق كرسيه ملتفتا إلى مساعديه وقال:

- واصلوا النسخ والتصنيف، وأنا سأخرج قليلا.

قاما من مكانهما، والتفت الجاحظ فلمح قطعةً جلدية فيها كتابة عربية، عرف من نمط الخط أنها قديمة. مد إليها يده:

- ما هذه يا أبا هارون؟

- ذلك خط عبد المطلب بن هاشم، جد النبي.

رفع الجاحظ الجلد برفق كما يُرفع الطفل الوليد، ثم بدأ يقرأ بصوت هامس: «هذا حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على لبيد الحميري من أهل صنعاء، عليه ألف درهم فضةً كيلاً بالحديدة، ومتى دعاه بها أجابه؛ شهد الله والملكان».

ثم رفع بصره وقال:

- كأنه خط النساء.

كان سهل قد وصل إلى باب الحجرة، فوضع الجاحظ الجلد برفق وتبعه إلى الباب. فقال سهل وهو يعدل وضع عمامته:

- لقد نُهب الكثير من الكتب والخزائن أيام انفراد المخلوع ابن زبيدة بحكم بغداد. لذلك قرر أمير المؤمنين حفظ كل الكتب النادرة في خزانة حتى لا تضيع.

مشيا على حافة البركة المائية، فتراءت لهما على الطرف الآخر جماعة من التراجمة فيهم حنين بن إسحاق والحجاج بن مطر، ووقف سهل في الزاوية وقال لصديقه بصوت هامس:

- لقد سمعت أمير المؤمنين يذكرك، فلقد قرأ بعض رسائلك وأعجبه ما فيها، فلعله يطلبك لتأديب ولده أو لتكون نديمه.

فوجئ بالخبر، لكنه بذل جهده حتى لا يظهر درجة المفاجأة أمام صاحبه، فما دام صاحبه قد نال حظوة عند المأمون فمن الطبيعي أن ينال هو ذات الحظوة، لكن سهلا بادره قبل أن يتكلم:

- قد تصبح يا أبا عثمان من خاصة أمير المؤمنين!

ما إن نطق سهل العبارة، حتى شخصت صور كثيرة متناقضة في ذهن الجاحظ. رأى سياطا حامية تقع على ظهر بشار بن برد، كما رأى رؤوس البرامكة تتطاير بسيف هارون الرشيد.

لاحظ سهل ارتباك صاحبه، فبادره قائلا:

- ما بك يا أبا عثمان؟

رد الجاحظ وهو يشعر برعدة في ركبتيه، لا يدري أهي من سعادة أم من خوف:

- لا شيء، لقد فاجأتني بخبر أمير المؤمنين.

وبعد نطقه لكلمة المفاجأة تنبه لتناقض المشاعر التي أراد الإيحاء بها لصاحبه، فبادره ليصرف ذهنه عن التفكير:

- أنا خادم أمير المؤمنين، وخاتم في يديه. هو يأمر وأنا أطيع.

انتبه سهل إلى ارتباك صديقه، ففكر في أنه ربما خطر له ألا يذهب إلى المأمون إلا عن طريق ولي نعمته ابن الزيات، وإلا فإن ابن الزيات قد يغضب منه، فمع أن ابن الزيات لا يتولى منصبا إلا أن علاقة والده التاجر الثري بالمأمون تسمح له بأن يقترح عليه ما شاء.

فجأة، خيم الصمت، وظلا واقفين هنيهات دون كلام. وانقطع الصمت حين جاء أحد مساعدي سهل يركض على طرف البركة

وهو يقول:

- سيدي، لقد أنهينا القائمة «ألف»، فهل نبدأ في القائمة «باء»؟

أشار سهل بالموافقة دون أن يتحدث.

ثم التفت إلى الجاحظ وقال:

- لعلي أزورك الليلة في بيتك إن شاء الله لنكمل الحديث.

مشى سهل على حافة البركة عائدا إلى ديوانه، وسار الجاحظ في الاتجاه الآخر متجها إلى المكتبة.

* * *

اقترب ثلاثتهم من مدخل بغداد وقت الغروب.

بدت المدينة المدورة في عينيْ علية أشبه بسجن ضخم وهي تدخل من أحد أبوابها الواسعة، يحث نفيس البغلَ الذي تركبه استعجالا لدخول بغداد التي تمثل في ذهنه شيئا أشبه بالسحر. حرك رأسه أفقيا:

- هذي هي بغداد؟

لم تجبه علية، فقد كانت ممزقةَ القلب ملتاعة الفؤاد خوفا، لكن الرجل الآخر -ابن أخت الجاحظ- الذي يقود البغل التفت إليه قائلا:

- نعم، وصلنا وهذه هي بغداد.

ألقت علية نظرة على الحراس الواقفين عند مدخل باب بغداد، فتلقتها رائحة السوق المختلطة، وأصوات الناس خارجين من السوق، وأذان المغرب يتردد في آفاق مدينة عرفتها جيدا، وأنكرتها.

كانت عيناها الواسعتان تتأملان كل زاوية، وقلبها الحيّ يرقص بين أضلاعها كجنين حانت ولادته.

عبرت من فوق الجسر، فتذكرت المواكب التي كانت تسير وراءها إذا ركبت، والحراس الذين كانوا يمشون خلفها مهطعين رؤوسهم.

ثم شخصت صورته في ذهنها، تذكرت آخر مرة دخل عليها في تلك الغرفة فجرا قبل سنوات، وخاتمه الذي يلمع في يده، وكلمته: لا تخافي.

كانت علية جالسة وهي تستعيد في اندهاش لحظة دخولها البارحة بغداد، فيما خرج الجاحظ من غرفة كتبه فلمحها غارقة في أفكارها، ألقى نظرة على الحديقة الخضراء البادية من نافذة منزله، ثم التفت إليها وهو ينشف يديه بمديل:

- كيف وجدتِ بغداد؟ وهل أعجبك المنزل يا علية؟

لم تسمع سؤاله، فما زالت غير مصدقة أن الجرأة واتتها لتدخل بغداد.

- مالك يا علية؟

انتبهت، فانتفضت وقالت:

- لا، لا شيء.

- لا، تبدين مشدوهة كأن بك مسّا من جنون!

- لا ...، أريد...أريد أن أحدثك حديثا مهما.

رمى الجاحظ المنديل مقتربا منها.

وقفت بسرعة، مشيرة إليه أن يتحدثا داخل إحدى الغرف حتى لا يسمعهما الخادم نفيس أو أحد العمال.

مشيا في الردهة الواسعة، وتواريا داخل إحدى الغرف، ثم أحكم

الجاحظ إغلاق الباب وراءهما فتحولا إلى شبحين في ظلام الغرفة.

قالت بنبرة مفعمة بالخوف والارتباك، وهي تجلس على أريكة:

- أريد أن أقص عليك القصة كاملة. أنا كنت جارية لأمير المؤمنين المأمون عندما كان وليا للعهد، تربيت في قصر هارون الرشيد، وكنت من الجواري اللواتي أشرف على تربيتهن وتعليمهن الغناء على أيدي أمهر المغنين.

مع توقع الجاحظ لأمر شبيه بهذا، إلا أن أنفاسه توقفت فجأة، ثم قال بصوت فيه من الضعف ما فيه من الاستطلاع:

- ثم ماذا؟

- والدي ملك إفرنجي اسمه غُودْ فْري، في بلاد بعيدة شمال الأندلس، تربيت مع المأمون والأمين ومع زبيدة وهارون، وفي سن الخامسة عشرة عشقت شابا اسمه محمد حامد من خدام القصر. ثم طلبني المأمون فتمنعتُ عليه...

مد الجاحظ يده في عتمة الغرفة يريد شيئا يستند إليه فرارا من الحمم الحارقة التي تخرج من فم جاريته، وخياله الخصب يضج بصورة والد علية الملك، ومربيها الملك... وعشيقها الملك. لم ينبس، بل ظل فاغرا فاه منصتا:

- ظل المأمون يحاول أن أميل إليه أشهرا، لكني كنت مجنونة بذلك الفتى. فلما أيقن أني لا أطيعه أمر بي فحُبستُ في كنيف مليء بالقاذورات...

- كيف؟

- حبستُ في الكنيف شهرا كاملا ما مسني فيه ماء ولا صابون. كان كنيفا معتما لا أرى فيه النور، ولا أكلم أحدا، بل يأتي خبز وملح مرة في اليوم. وفي أحد الأيام أمر بإخراجي وإصلاح هيئتي، ثم سألني فلم أجبه. بل إني تجاسرت وسألته عن الفتى الذي كنت أتعشقه، فأخبرني أنه أرسله للجهاد في أرض الروم وقُتل.

- ثم ماذا؟

- ثم.... ثم....

كان التوتر قد بلغ مداه بالجاحظ، فركبتاه لا تكادان تستقران من الرعدة، ووجهه يميل إلى الصفرة في جو الغرفة المعتم. قال كأنه يتوسل:

- ثم ماذا؟

- لم أشعر بشيء إلا ويدي على خد المأمون... لطمتُه!

قالتها ثم انفجرت باكية، مرتمية على الأريكة.

- أيييششْش؟

دوتْ صرخة الجاحظ في جنبات المنزل الفسيح، فاختلطت مع فحيح احتكاك الستائر التي تعبث بها الرياح القادمة من جهة الحديقة.

بدا الاثنان في تلك الغرفة المعتمة أشبه بسجينين تسلما فجأة خبر الحكم بالإعدام.

ساد صمت ثقيل.

كان يقطعه صوت بكائها المكتوم، وصهيل فرس آتٍ من بعيد.

انطلق خيالهما في اتجاهين مختلفين.

خطرت للجاحظ آلاف الخواطر الجادة والسخيفة، والمريحة

والمخيفة. رأى نفسه ذاهبا ليجد من يوصل الخبر إلى المأمون، حتى يبرئ ذمته، فلو فعل فلربما أكبره المأمون لذلك، وغفر له تملكه لجاريته، ومن يدري فقد يخلع عليه، أو يعينه في ولاية أو منصب، ثم تخيل نفسه في عالم لا علية فيه...

فوجد قلبه يكاد يسيل دما، رأى نفسه تعيسا يسير في شوارع بغداد يسأل عنها العجائز الجالسات على عتبات بيوتهن، والركبان الخارجين من بغداد، وربابنة السفن الواردة من كل طريق...

رأى نفسه يطارد الحمام الزاجل ظانا أن بين مخالبه خبرا عنها.

كيف يعيش دون هذه الفتاة التي جعلت قلبه يخفق في اليوم ألف خفقة، هذه الفتاة التي جعلت ضحكه عميقا لذيذا، وطعامه سائغا مريئا، وصباحاته ورديةً جميلة محملةً بعبير الفراديس.

كيف يستطيع التمتع بإمساك القلم والاندفاع في الكتابة إذا خلا المكان من علية، وترددت الرياح في جنبات منزل لا يسمع فيه تلك النغمة، ويرى فيه ذلك الوجه العتيق؟

ثم استيقظ فجأة على نظراتها الحادة تنهشه، فبدتْ له أضعف من ذي قبل، وأجمل من ذي قبل.

كانت جالسة لا يكاد يلامس الأرض منها إلا عجيزتها، ذراعاها تطوقان ركبتيها، وشعرها منسدل على وجهها، والدموع تسيل على أطراف وجهها، وبين تلك الدموع نظرات فاتنة تخترق فؤاده.

بدت أجمل من ذي قبل.

ردد نظره الحائر إليها، فرآها طفلة غريرة، ضعيفة متوسلة.

وقف ليخرج، لكنه لم يكن يعرف وجهته ولا ماذا يريد. فهو يعرف ما يخشى ومَن يخشى أكثر مما يعرف أي أمر آخر.

عاد وجلس إلى جانبها.

تمتمت قائلة:

- ثم إن علية ليس اسمي. فهو اسمٌ سماني به الجندي الذي بعثه المأمون وباعني في سوق النخاسين... أنا... أنا عَرِيب!

قفز الجاحظ وفتح الباب خوفا من أن يكون أحد قد سمع حديثهما، فما في البصرة وبغداد أحد إلا سمع الناس يتهامسون قبل سنوات طويلة بقصة عريب الجارية.

تذكر الجاحظ كيف حكى له أبو نواس قصتها، وكيف كانوا يتندرون بالقصة، زاعمين أن الجارية لا تحب هذا القدر من الحب، وأن القصة مختلقة.

أما الآن فها هو ذا واقف في غرفة معتمة مع عريب جارية المأمون... وسط مدينة بغداد. مسح العرق عن جبينه وهو يفتح الباب متذكرا حلما رآه قبل فترة، جلس في الردهة الواسعة وهو ينادي خادمه نفيس.

أجابه نفيس من جهة باب الخدم. فقال:

- إليّ بماء بارد.

***

مع كثرة الحراس الداخلين والخارجين من باب القصر، فإن الصمت يخيم على المكان. فلعل الصوت الوحيد الذي يصل الآذان

صوت حركة الباب الطويل المقوس الذي فتحه حارسان تكاد حِلقُ الحديد تغطي كل موضع من جسديهما.

عن يمين الباب الذي انفتح يجلس جمع من الرجال وقد لبسوا أبهى حللهم واعتجروا عمائمهم، شاخصين بأبصارهم جهة الباب.

خرج إليهم رجل متوسط القامة، يمشي بشكل آلي مُباعدا بين خطواته وكأنه يتعمد قرعَ البلاط بقوة، ثم قال:

- عمرو بن بحر الجاحظ، ثمامة بن أشرس، سهل بن هارون، أبا العتاهية، تفضلوا.

وقفوا جميعا، ووقف الجاحظ وهو ينفي بطرف إصبعه القذى عن عينيْه وأنفه، إذ كان الوحيد الذي سيدخل على الخليفة المأمون أول مرة.

كانت نوازع الخوف والرهبة والرغبة تعصف بجوانحه، وكان ذهنه الحادّ القادرُ على توليد آلاف الأخيلة والاحتمالات في لحظة واحدة يضج بخواطر الطمع والخوف، والرغبة والرهبة، ويسافر في شطآن غريبة من الأمل والتشاؤم تتوسطها صورة جاريته علية.

دخلوا بانحناء مُطرقين من الباب الواسع، بينما عاد الحارسان آليا ليُحكما إغلاق الباب الضخم، فسُمعت له حركة خفيفة مختلطة بصوت قرع نعال الحراس.

تملكه شعور الرهبة وهو يرفع عينيه في المجلس الواسع المفروش بالصوف الملوّن، والطنافس الخُضر، والتصاوير المعلقة على الجدران، والنحوتات الذهبية على شكل حيوانات مفترسة منصوبة في أطرافه على طاولات.

أخذ كل منهم مجلسه، فيما انصرفت عين الجاحظ متأملة الكرسي المذهب الضخم وسط المجلس.

ما إنْ جلسوا في المجلس حتى شعروا باطمئنان، فالخليفة لم يدخل مجلسه بعد. التفت كل منهم متأملا صاحبه في جو المجلس المعتم قليلا، إذ إن الضوء القادم من أطراف الجدران وأعالي السقوف يضفي على المكان جوا باهتا يشبه وقت الغروب، رغم أن الوقت عصر.

لكز سهل الجاحظ بطرف منكبه ومال عليه:

- هذا يومك يا أبا عثمان لتُخرج كل ما عندك لأمير المؤمنين!

كان الجاحظ مشدوهَ الخاطر مُشَتّتَ النفس، يرنّ في أذنه قولها: «إذا فهمتَ أنه علم بالأمر، صارحه بكل شيء.... فهو حليم...».

كان قلبه يقفز بين ضلوعه قفزا لا يعرف أهو مِنَ السعادة أم من الخوف؟ يفكر أحيانا في المواضيع التي سيناقشها مع المأمون مستعرضا فيها علمه وأدبه، وأحيانا يتذكر بطش الملوك وكون الإنسان كلما اقترب منهم اقترب من السعادة والشقاء معا.

وغالبا لا تأتي السعادة إلا في تضاعيف الشقاء.

قطع عليه ثمامة تفكيره قائلا:

- سمعت أن الحُشْوة تكاد تملك البصرة يا أبا عثمان، وأن أتباع علي بن المديني هناك أكثر من أتباع الشيطان، هل هذا صحيح؟

مال الجاحظ ليجيبه، فدوّت صيحة قادمة من جهة باب داخلي:

- أمير المؤمنين عبد الله بن هارون المأمون!

تقافز الجمع واقفين، فدخل المأمون ماشيا بهدوء ثم قال:

- السلام عليكم ورحمة الله

اندفع كل منهم مسلما ومقبّلا يده، ثم مشى خطوات وجلس على الكرسي، فيما عاد كل واحد منهم إلى كرسيه في طرف المجلس.

رفع الجاحظ عينيه متأملا المأمون للمرة الأولى.

نظر إلى جبته الناصعة البياض، ومن تحتها قميص أخضر، وفوق ذلك عمامة سوداء. بدت له لحيته المائلة للحمرة الخاصية الوحيدة التي ورثها من أمّه الفارسية. أما عيناه السوداوان الواسعتان وأنفه الحاد وشفتاه فتشبه ما وُصف له عن والده هارون الرشيد.

مسح المأمون طرف أنفه الحاد كأنه رأس سهم، وحدج الجاحظ بنظرة قائلا:

- أهلا وسهلا بك يا أبا عثمان.

قالها المأمون وهو يستغرب دمامة الجاحظ، فرغم أنه سمع عنها كثيرا، ووصفت له غير ما مرة، فإنه لم يتوقعها بهذه الدرجة.

شعر الجاحظ براحة وخفة وهو يقول بصوت فخم جميل واضح التجاويف:

- حفظ الله أمير المؤمنين وحيّاه وسهّل له.

كان سهل بن هارون والجاحظ أقرب الجالسين إلى الخليفة يسارا، أما ثمامة وأبو العتاهية فجلسا على اليمين جهة تمثال الكرة الأرضية المنصوب فوق الطاولة المسامتة لكرسي المأمون.

دخل غلام ووضع فواكه وحساء بين يدي كل واحد، فيما تنحنح المأمون وقال:

- لقد سهرتُ البارحة أفكر في مسألة القضاء والقدَر، وكان معي يحيى بن أكثم فتناقشنا طويلا ولم نتفق على رأي، وسلك كلٌ منا طريقا.

تحرك ثمامة من فوق كرسيه، وأمرّ نظره سريعا على وجوه رفاقه، ثم توجه إلى المأمون وقال مبتسما:

- أنا أبين لأمير المؤمنين القضاء والقدر في جملتين، وأزيد جملة ثالثة للضعيف.

ابتسم المأمون مائلا من فوق كرسيه، قائلا بلهجة مستطلعة ساخرة:

- ومن الضعيف أيها النميري؟

- الضعيف قاضي القضاة يحيى بن أكثم!

ترددت في المجلس ضحكات موزونة ومزمومةٌ بوقار المجلس. ثم واصل ثمامة:

- إن أفعال العباد يستحيل أن تخرج عن ثلاثة أوجه، فهي إما أن تكون كلها من تقدير الله ولا دخل للعباد فيها، فهم بذلك لا يستحقون عليها ثوابا ولا عقابا ولا مدحا ولا ذما، وإما أن تكون الأفعال منهم ومن الله، فيجب المدح والذم لهما معا، أو تكون الأفعال من العباد وحدهم وبمشيئتهم وإرادتهم وحدهم، فلهم المدح والثواب، وعليهم الذم والعقاب.

نزع المأمون كفه من تحت ذقنه، ونظر إلى السقف المزركش المرتفع وقال:

- صدقت يا ابن أشرس!

كان أبو العتاهية جالسا بجانب ثمامة، فرفع بصره إلى المأمون:

- أنا أستطيع أن أقطع لك ثمامة، وأرد حجته هذه يا أمير المؤمنين.

التفت ثمامة فاغرا فاه إلى أبي العتاهية، فجاء صوت المأمون:

- دعك في شعرك وقوافيك يا أبا العتاهية، فأنا أخشى عليك منه.

فقال أبو العتاهية:

- دعني أسألْه يا أمير المؤمنين في القضاء والقدر وسأقطعه لك.

- تفضل!

كان أبو العتاهية قصير القامة، يجلس على كرسي مرتفع، فبدت رجلاه لا تكادان تلامسان الأرض. كما كانت عمامته مكورة تكويرا كبيرا، فبدت صورته مثيرة للسخرية وهو يرفع يده في الهواء سائلا ثمامة:

- من حرك يدي هذه؟

فقال ثمامة بلهجة ساخرة، مُرخِيا طرفَ شفته السفلى:

- حركها من أمُّه زانية!

فانتفض أبو العتاهية وقال:

- لقد شتمني يا أمير المؤمنين!

فقال ثمامة وهو يحبس ضحكة:

- لقد ترك مذهبه يا أمير المؤمنين. فلو كان يؤمن حقا بالجبر، لما غضب منها، فالعبد لا فعل له ولا يحرك ولا يسكن، وبذا لم أشتمه ما دام يؤمن بمذهبه.

سكت أبو العتاهية ووجهه محمر، فبادر المأمون قائلا:

- ألم أقل لك؟

التفت أبو العتاهية إلى ثمامة وقال بابتسامة مصطنعة وصوت خافت:

- أما كانت لك مندوحةٌ عن السفَه؟

- إن خير الجواب ما جمع بين الحجة والانتقام.

أثناء ذلك، سُمع قرع نعال الحاجب قادما مباعدا بين رجليه. اقترب من المأمون وحدثه بحديث خافت، ثم انصرف.

رفع المأمون عينيه وقال:

- كنا قد كلفنا سندَ بنَ علي المنجّم ببناء مرصديْن أحدهما في العباسية هنا ببغداد، والآخر في جبل قاسيون بدمشق. وقد أخبرني هذا أنهما اكتملا.

فجاء صوت الجميع:

- حمدا لله يا أمير المؤمنين.

كان الجاحظ يترقب فرصة للحديث، فالمأمون لم يسأله، وهو غير مطمئن أن يبدأ الحديث دون سؤال من المأمون حتى لا يخالف ما تسميه الحاشية هنا «الآيين»، أي العادات المعمول بها في البلاط.

وبعد تردد قرر أن يتحدث في موضوع المراصد وأهميتها، لكن سهل بن هارون سبقه قائلا:

- يا أمير المؤمنين إن المراصد وعلم الفلك يدخلان في باب العبادة والدين وهم الصيقان بكل شيء، ولعل من بركات هذه اللغة العربية أن حروفها ثمانية وعشرون على عدد منازل القمر.

شعر الجاحظ بغيظ، إذ إن سهل بن هارون لا يشتهر بشيء اشتهاره بانتقاص العرب وميله للفرس، فلمَ ينافح عن العربية الآن؟ لكن ابن هارون واصل حديثه:

- وغاية ما تبلغ الكلمة من الكلمات العربية في الزيادات سبعة أحرف، وتلك على عدد النجوم السبعة.

برقت عينا المأمون استعذابا، فواصل سهل بحماس:

- ثم إن حروف الزوائد اثنا عشر حرفا على عدد البروج الاثني عشر، ومن الحروف ما يدغم مع لام التعريف، وهي أربعة عشر حرفا مثل منازل القمر المستترة تحت الأرض، وأربعة عشر حرفا ظاهرا لا تدغم مثل بقية المنازل الظاهرة، ثم إن الله تعالى جعل الإعراب في العربية ثلاث حركات هي الرفع والنصب والخفض، لأن الحركات الطبيعية ثلاث حركات حركة من الوسط كحركة النار، وحركة إلى الوسط كحركة الأرض، وحركة على الوسط كحركة الفلك.

كان الكل ينظرون إلى سهل بإنصات وتأمل فيما يقوله. غير أن الجاحظ لم يسمع ما قاله لانشغاله بالتفكير فيما عليه أن يقوله ليُبهر المأمونَ ويثبتَ استحقاقه هذا المجلس وهذا المقام. لكن حرصه على عدم مخالفة الآيين جعله لا يتجرأ على فتح موضوع بنفسه، بل قرر أن ينتظر حتى يسأله المأمون أو تعنّ فرصة مقنعة للحديث.

بدأ جو المجلس يميل للبرودة، فقد بدأت الشمس تتوارى خلف جدران هذه المدينة المدورة التي يشقها نهر دجلة، كما اختفت الأنوار التي كانت تدخل من الفتحات العلوية في السقف، فازدادت العتمة

داخل المجلس وانخفضت الحرارة. دخل خادم وأوقد قناديل جعلت المجلس أكثر إضاءة.

فاتضحت الوجوه أكثر، وظهرت الألوان الدقيقة لفراش الصوف والزرابي المرمية وسط المجلس.

التفت المأمون إلى الجاحظ وقال:

- لقد قرأت بعض كتبك يا أبا عثمان، ولقد وُصفتْ لي بالجودة قبل أن أقرأها، وعندما قرأتها وجدت الخُبرَ أربى على الخَبر، ووجدتها تستحق ثناء أكثر مما سمعت.

تلعثم الجاحظ -على غير عادته- وهو يسمع إطراء كتبه من أقوى رجل على ظهر الأرض. رفع عينيه، وحركات أجفانه الغليظة تتسارع وقال:

- هذا من كرم نحيزتكم وطيب أرومتكم يا أمير المؤمنين!

ابتسم المأمون وهو يتذكر فقرة من آخر ما قرأ للجاحظ فقال:

- غير أنك يا أبا عثمان شديد على العامة، والمُلكُ -كما تعلم- إنما يستقر على أكتافها، والسوق إنما يروج بسواعدها.

كان المأمون يتحدث، فيما انصرفت أبصار ثمامة وأبو العتاهية وسهل إلى الجاحظ، مترقبيْن رده، فقال:

- إن ما لقيتْه العامة من الله أشد يا أمير المؤمنين. فالله تعالى جعل عقولها تحت عقول الأنعام حين قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

- وكيف ذاك؟

- إن العامة سواعدُ وجوارحُ وآلات للخاصة، فهي تبتذلها للمهن وتدبر لها الأمور وتغزو بها العدو وتسد بها الثغور، فالخاصة مثل روح الإنسان وعقله، والعامة مثل يده وبقية جوارحه. فكما أن الجوارح لا تعرف ما تنطوي عليه النفس من فكر وروية وتأمل، فكذلك الدهماء لا يفهمون شأن الخاصة وتدبيرها. ولذا، فصلاح العالم قائمٌ على حسن تدبير الخاصة، وتمام طاعة العامة. وطاعة العامة ناتجة عن حسن سياسة الخاصة.

أنصت المأمون بتأمل، وأعجبه تشبيه الخاصة بالعقل والروح، فما زاد على تشجيع الجاحظ على مواصلة الحديث:

- إيهِ، أبا عثمان!

لاحظ سهل استعذاب المأمون لحديث الجاحظ، فقال بخبث نية:

- لكن بعض العامة في بغداد -ممن يسمون المُطَّوِّعة- يشغبون أحيانا؛ فهل ذلك ناتج عن نقص في التدبير؟

انتبه الجاحظ لمحاولة صديقه الإيقاع به فتدارك:

- ومع أن تدبير العامة للخاصة كتدبير العقل للجوارح فإن العامة قد يعرض لها المرض كما يحدث للجوارح. فقد تُصاب اليد بالفالج، ويصاب اللسان بالخرس، فلا يقدر العقل على توجيه الجوارح وتسديدها لخلل ذاتيٍ في الجوارح لا في العقل المدبر، وكذلك الشأن في الدهماء، فقد يكون الأمير مدبرا حسن التدبير لكن العامة تنتقض لخلل فيها.

كان الجاحظ إذا تحدث تنثال عليه الأفكار والتشبيهات متزاحمةً في

ذهنه. وكان يعبر عن تلك الأفكار بلسان ذربٍ أخّاذ، وصوت فصيح ومخارج ندية تُطرب وتُعجب.

فابتسم المأمون وقال:

- ماذا لقيت العامة منك ومن ثمامة بن أشرس!

ثم جاء صوت قرع نعال الحاجب مباعدا بين خطواته. اقترب من المأمون وهمس.

فوقف المأمون وقال:

- حان موعد صلاة المغرب.

نزل من فوق الكرسي، فقام الجمع مودعا ومسلما، فيما سمعت قعقعة الباب الواسع وقد أمسك الحارسان بطرفيه إشعارا بأن موعد الخروج قد حان.

* * *

وقف الجاحظ في طرف غرفة كتبه لا يعرف ما يفعل، حائرا أي قرار سيتخذ. كان يبغض لحظات الانتظار لأنها حياةٌ مؤجلة معلقة بلحظة لم تتكشف قسماتها بعد. إذ يخطر له أن أوقات الانتظار برزخٌ بين الماضي والمستقبل والحاضر. فلا هي تنتمي للحاضر لأن صاحبها معلق في انتظار ما سيسفر عنه المستقبل، غير راض باللحظة الحاضرة. ولا هي جزء من المستقبل، فالمنتظِر يقف في الحاضر بقدمين متأرجحتين، ونفس مشرئبة لمستقبل لمّا يتشكف ما تخبئه أحشاؤه.

ألقى نظرة على مكتبته العامرة بتأفف، فاقدا الشهية في القراءة والكتابة. فماذا تغني عنه في النهاية؟

خطر له خاطر.

سيطلب لقاء المأمون ويخبره بأن جاريته عريب في بيته، فسياط الاشتياق إلى جاريةٍ رومية أهون من بطش الخلفاء.

شعر براحة غامرة تجتاحه، فبدا في قميصه الواسع وقلنسوته اللاصقة على رأسه دون عمامة مسكينا وضعيفا.

سمع صوت نفيس قادما في الردهة، حانيا رأسه ينادي:

- مولاي، رسول أمير المؤمنين بالباب.

بعد وقت قصير، كان الجاحظ يدخل إلى مجلس المأمون في إحدى حجرات أحد قصوره في طرف بغداد.

لم يفق على الطريق الذي قطع، فقد ظل طول الطريق يقدر كل شيء. هل وشى أحد الناس به وأخبره بوجود عريب في بيته؟ كيف ذلك، ولا أحد يعرف عنها شيئا وحتى هو نفسه لم يكتشف سرها إلا قبل أيام؟

لم ينتظر على الباب كالعادة، بل جاء الحاجب صاحب الخطوات الواسعة وأدخله.

فتح عينيه متأملا أطراف المجلس فوقعت عينه على سهل بن هارون وثمامة بن أشرس، وجماعة أخرى من أصحابه من المعتزلة، شعر بطمأنينة وهو يكاد يعثر في جبته الأنيقة قائلا بنفس متقطع:

- السلام على أصحابنا ورحمة الله!

كان المأمون في حجرة صغيرة متوارية غير بعيدة من المجلس. حيث يستمع إلى آخر تقرير من واليه على بغداد إبراهيم بن إسحاق.

كانا يجلسان وبينهما مصباح وأوراق كثيرة.

فمنذ أشهر وإبراهيم يرفع التقارير محذرا من تنامي نفوذ علماء الحديث في العراق كلها وفي بغداد خاصة، وأصبح المأمون مقتنعا بأنهم في طريقهم إلى زعزعة دولته.

جاء الحاجب ماشيا بطريقته الموّقعة، ووقف على باب الحجرة وهمس:

- القوم في المجلس يا أمير المؤمنين.

مشى المأمون خطوات، ثم دخل المجلس مسلما.

ضج المجلس الواسع:

- وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله.

جلس المأمون على سجادة حمراء فوق سرير بطرف المجلس. شبّك بين أصابعه ومال على وسادة ضخمة وقال:

- قد علمتم أن المُطّوِّعَةَ من نابتةٍ وحَشْوِية يعيثون فسادا في بغداد، فبعض أتباعهم يملكون السلاح ويتولون أمورهم في أحيائهم من قضاء وفصل بين الخصوم، وأخذ على أيدي اللصوص، فمنذ أيام المخلوع صارت له مقوة ومنعة، حتى إن الشيخ من شيوخهم الآن إذا تحدث في مسجد يتحلق عليه آلاف الطغام. ولقد مررت قبل أيام بأحد شوارع بغداد فرأيت خلقا لا يحصى قيل لي إنهم متحلقون على أحمد بن حنبل.

كان المأمون يتحدث، وذهن الجاحظ يقفز بين آلاف الاحتمالات؛ آخرها أن المأمون اصطفاه من بين كثيرين ليكون من حلقة مستشاريه.

ثم تذكر أن هذا الاختيار وهذا القرب قد يضره أكثر إذا تكشف خبر الجارية. ثم أفاق من أفكاره على أصوات احتكاك الأواني الفاخرة، وتوزيع الحلوى والأشربة في أطراف المجلس، رفع عينيه فرأى المأمون ساكتا رافعا عينيه إلى السقف، ثم واصل:

- فماذا ترون؟

تنحنح ثمامة بن أشرس وقال:

- إن علماء الحُشْوة خطرٌ عظيم على الخلافة، فقد عمروا المساجدَ والأسواقَ، ولهم سلطان على قلوب الدهماء لا يدانيه سلطان.

مسح المأمون لحيته وقال:

- ما سبب إقبال العامة عليهم، وإعراضهم عن هذه الجماعة من المعتزلة؟

- السبب المشاكلة بينهم وبين الدهماء، فحديثهم قريب المأخذ؛ يعقله كل حمّال أثغر، وسباكٍ أكدر، وكل فران أبخر، وكل مُكَارٍ بليد الطبع، وكل أعرابي متقشر الجلد. فلا يحتاج إلى غوص على المعاني ولا إلى إدامة فكر ولا روية. إنما هي أحاديث وأوامر ونواه وأقاصيص، لا حدود فيها ولا تقسيم.

- وماذا ترى يا ابن هارون؟

- لقد افتتن كثير من العامة بدعوة النصارى في بغداد، فهم كما تعلم يدعون إلى ديانتهم في المساجد بالمناظرات، وقد استمالوا عقول كثير من عوام المسلمين. وسبب ذلك هو الحُشوة وعلماء الحديث.

- كيف ذلك؟

- لأن النصارى أصبحوا أهل جدل وتفكير بسبب قراءتهم لكتبنا، فيأتون ويلبّسون على العامي بأسئلة، فيلجأ العامي لأصحاب الحديث مستفتيا فلا يجيبونه بشيء لانعدام صلتهم بالمعقولات، فيظن العامي أن ذلك الضعف الآتي من الحشوي ضعف في ذات الدين.

وما رأيك يا أبا عثمان؟

- إذا أذن أمير المؤمنين، خذوا مثلا قصة «كلام الله». لقد لبّس النصارى على كثير من العوام بكون عيسى كلمة الله كما ورد في التنزيل. ثم قالوا لهم إن عيسى ما دام كلمة الله فهو كالقرآن الكريم، فإذا كان القرآن كلام الله وعيسى كلمة الله فهما معا قديمان، لأن صفة الله قديمة وهي القرآن (كلام الله) وعيسى كذلك قديم لأنه كلمة الله. ثم يبنون لهم على ذلك أنه ابن الله لقِدَمه، كما أن القرآن قديم لأنه صادر عن الله، تعالى الله عما يقولون عُلوا كبيرا.

- وماذا يمنع علماء الحشوية من تعلم الجدل حتى يناضلوا عن حججهم؟

تنحنح الجاحظ وهو يطرد عن ذهنه فكرة خطرت له، وقال:

- يمنعهم من ذلك أن ديانتهم قائمة على نبذ الجدل كله، واعتبار الحجج والبراهين مضلة وطارئة على الملة، لذلك لا يجوز عندهم التوغل في المعقولات، لأنه نظر عقلي حادث، ومع ذلك فقد صار لبعضهم عقل بقراءة بعض كتب هذه الجماعة.

- أنا أعلم رأيهم ووقوفهم عند ظاهر الآثار. لكن ما يحيرني هو أنهم لم يتفطنوا للأمر.

قالها المأمون ثم سكت، فلم ينبس أحد في المجلس، بل ظلت الأبصار شاخصة إليه. ازدرد ريقه وقال:

- والله لقد حيرني أمرهم، فهم يدّعون الاقتداء بهدي السلف وما وجدت لهم سلفا. فقد تأملت مذاهب الملة الآن فوجدتها ترجع إلى أربعة مذاهب. فالخوارج لا سند لهم ولا سلف لأن مذهبهم حدث أيام علي بن أبي طالب فخطّأهم وقاتلهم، فهم بذلك طارئون على الملة لا يوثق بدينهم، وأما الروافض فظهر مذهبهم بعد انقضاء الصدر الأول، فلم يرد عن أي من الصحابة أن النص على إمامة علي جليّ واضح، بل اجتهادات وتأويلات، ولا ورد ذلك في كون الأئمة اثني عشر إماما. وإن زعموا أن سلمان الفارسي وعمار بن ياسر كانا سلفا لهم كذّبهم الواقع؛ فكلاهما كان واليا لعمر بن الخطاب.

اعتدل المأمون في جلسته، وردد بصره في أطراف المجلس ثم واصل:

- والمُجبرة -القائلون بكون كل شيء بقدر الله- فظهروا أيام بني أمية وفي ظل ملوك بني مروان، فهو قول حادث لا سند له، أما هؤلاء الحشوية الذين ملأوا شوارع بغداد فلا سلف لهم البتة وهم ألهج الناس بكلمة السلف، بل هم قوم تعلقوا بأذيال النصوص، وأهملوا العقل، وذاك ما يجمعهم، والقسم الرابع من أقسام الملة هو هذه الجماعة المباركة، فهي أصح الأمة سندا وأوثقها سلفا. لأنها تروي عن عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء عن محمد بن

علي بن أبي طالب. وهذا سند ظاهر جلي ومتواتر.

سكت المأمون، ثم رفع عينيه في السقف وقال:

- ما التدبير الذي ترونه مع علماء الحشوة؟

كان الوالي إبراهيم بن إسحاق جالسا في طرف المجلس، وكانت له صلة بثمامة بن أشرس. فنظر إليه بطرف عينه، فقال ثمامة:

- أرى يا أمير المؤمنين أن تمتحن علماء الحشوة فردا فردا حتى يعلنوا خضوعهم لك. فالعامة إنما هم تبع وصدى، لا غير.

- كيف ذاك؟

- أرى أن تمتحنهم في خلق القرآن، فهم قد جعلوا الموقف منه ميزة العالم المتصدر بينهم، فهم لا يقبلون أن يقولوا إنه مخلوق في سياق الزمن. بل يرونه كلاما قديما ذاتيا لله عز وجل وهذا محال كما ترون، فكيف يكون كذلك وقد قال الله تعالى ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾؟

كان ثمامة بن أشرس يتحدث، وكان أقوى المعتزلة حجة، حتى إنه أتقن لعلم الكلام والحجج المنطقية من النجم الصاعد أحمد بن أبي دُؤاد، كان ثمامة منشغلا بحشد الحجة، فدخل الحاجب طالبا الإذن لقاضي القضاة يحيى بن أكثم.

دخل يحيى يرفل في أثواب القضاة، فناداه المأمون وأجلسه بقربه.

ولما أنهى ثمامةُ حديثه طلب المأمون رأي يحيى، فالتفت يمنة ويسرة، وشد عليه طرف جبته وقال:

- أنا أرى يا أمير المؤمنين أن تؤجل هذا الأمر. فإن حملت العامة على ما تكره فإنني أخشى أن تنفر نَفْرةً لا تعلم عاقبتها.

قال ثمامة بسخرية:

- العامة؟ ومن ذا الذي يقيم وزنا للدهماء؟ والله يا أمير المؤمنين لو بعثتَ رجلا على عاتقه طيلسانٌ أسود وبيده عصا لساق لك منها عشرة آلاف ناعق!

مد القاضي يده مستأذنا:

- يا أمير المؤمنين، ما دام رجال من أمثال يزيد بن هارون في العراق، فلا أرى امتحان أحد، أو حمل العامة على أمر تكرهه، وهذا رأيي من باب السياسة لا من باب الديانة. فأهل خراسان من الفرس لا يطيقون الإساءة للحشوية وعلمائهم، مثل ابن حنبل وابن المديني ويزيد بن هارون.

كان المأمون ينظر إلى القاضي بجبته الفخمة ولحيته الكثة وبطنه المدور، وهو يتذكر كلاما سمعه من أبيه هارون الرشيد عن أن صلاح الملك في سكون العامة، وخرابه في نفورها.

لم يعط المأمون أي إشارة عما أضمره، بل أشار بطرف يده فدخل جماعة من الخدم ليقودوا من في المجلس إلى غرفة العشاء.

وقف الجميع وكل منهم يتفقد عمامته، ويشد عليه طرف جبته، ومال الجاحظ على سهل بن هارون هامسا:

- زرني غدا في البيت لأستشيرك في أمر مهم.

لم يفق الجاحظ في نهاية العشاء إلا على صوت المأمون:

- ابق يا أبا عثمان، أريد أن أتحدث معك في أمر.

لا يذكر ماذا حدث قبل ذلك، فلا يدري هل امتنع عن تناول الطعام

من الأطباق التي كانت بين يديه، أم أنه أكل أكلا لمّاً كأكل الصبيان وهو لا يعقل. ولا يدري هل تحدث عن جاريته بين يدي المأمون وحدجه الجميعُ فاغرين أفواههم مستغربين جرأته، أم أنه ظل ساكتا واجما.

لكنه لا يشك في صوت المأمون:

- ابقَ يا أبا عثمان، أريد أن أحدثك في أمر.

كانت الغرفة خالية، لا ضوء فيها بعد انفضاض المجلس. قال المأمون وهو ينظر إلى الأرض على غير عادته:

- علمتُ من عيوننا أن جاريتنا عَريب في منزلكم.

كانت تلك العبارة آخر ما أفاق عليه.

كلما يذكره بعد ذلك صور ومشاعر مختلطة، تتخللها ضحكتها الموّقعة كأنها صوت آتٍ من مدائن بعيدة. تراءت له في مِرطها الأبيض الناصع، وشعرها الذهبي المنسدل على كتفيها والحراسُ يسوقونها لتحبس في كنيف.

خطر له كيف يملك المأمون الحق في سؤاله عن جاريته حتى ولو كان خليفة؟ من منحه حق التجرؤ على حرمه؟ والسؤال عمن يعيش في مَخادعه؟

لا يعرف كيف سوّغ موقفه، ولا كيف قص على المأمون قصة وصول الجارية إليه في البصرة. كل ما يذكره أنه خرج من الباب يرفضُّ عرقا، والمأمون يقول باسما:

- لقد وهبناها لك يا أبا عثمان!

***

الدوحة، 1440 هـ

انقضت أيامٌ ثلاثة لا حديث فيها داخل القناة إلا عن ترقية نائب رئيس التحرير (بسّام) إلى منصب رئيس التحرير. انقسم الصحفيون ما بين معجب شديد الإعجاب به، ومحتقر شديد الاحتقار له ولكل ما يقوله.

دخل القروي فرآه يترأس اجتماع التحرير الصباحي.

كان الاجتماع يعقد وسط غرفة الأخبار، ويتوزع الصحفيون ما بين جالس على مقعد، وواقف مستند إلى طاولة.

يتوسطهم رئيس التحرير الجديد بجسمه الضخم وقامته القصيرة، وصلعته الواسعة، حكّ صلعته وقال بلهجة كثيفة:

- بصُّو حزرتكم، من الآن فصاعدا نريد بعض النشرات الخفيفة أن تكون باللهجة.

قاطعه صحفي مغربي:

- بأي لهجة.. الجزائرية مثلا؟

- أو، يعني... لا أقول باللهجة، فذاك يستلزم اختيار لهجة معينة ونحن قناة عربية. أقصد أن تكون النشرة ملحونة وليست فصحى، حتى يشعر الناس بقرب المحطة منهم.

وَجَمَ الجميع.

ولم يُسمع غير صوت مذيعة قادم من جهة الاستديو الرئيسي تقرأ نشرة التاسعة صباحا.

كان القروي غير مصدق لما يسمعه. لم يتكلم بل ظل واجما يلعب بأطراف أصابعه، لاجما نفسَه حتى يتأكد من جدية الحديث.

قال صحفي تونسي:

- هذا نزول للقاع، ووقوع في شِراك العامية، وتمزيقٌ لوجدان العرب.

وكأن كلمات الصحفي فتحت الأفواه المغلقة، فقال آخر:

- إذا جعلنا إحدى نشراتنا باللهجة فسنفقد التعابير الفنية، فالفصحى لغة متطورة مليئة بكل مصطلح نحتاجه، أما اللهجات ففقيرة بائسة لا تسعفك باللفظ كلما بعُدتَ في المعاني، وتوغّلتَ في مضايق المصطلحات.

مرّر رئيس التحرير يده على هامته الضخمة وقال بنفس متقطع:

- فاهم فاهم يا ريّسْ. لكن هناك محطات ببعض الدول تتحدث بشيء أقرب إلى اللهجة ولها مشاهدوها، ثم إن اللغة ليست كل شيء، المهم المادة البصرية...، وإنما التلفزيون صورة.

كان القروي مستندا على طرف مكتبه، فشعر ببخار يتصاعد إلى دماغه، وفورة غضب. خطا خطوة وجلس على أقرب كرسي لرئيس التحرير وقال:

- كيف تقول إن اللغة ليست كل شيء؟ بل هي كل شيء. فالكون

إنما خرج من العدم بكلمة واحدة هي «كنْ». وهذه الأمة الفاخرة -التي يجمعنا الانتماء لها- إنما وُلدت من كلمة واحدة في غار حراء: «اقرأ». إن الوجود البشري لا ماهية له خارج أسوار اللغة.

فغر رئيس التحرير فاه. ولم يعرف كيف يرد، فهو رجل عركته غرفُ الأخبار غير أن خبرته لا تتجاوز الجانب التقني، وفنيات بناء النشرات، وترتيب الأخبار وملاحقتها، لكن تكوينه الثقافي ضعيف، فلا هو يستطيع الإبانة عن حجة، ولا الدفاع عنها بمنطق.

غمغم قائلا:

- لازم تفهم حضرتك أن التلفزيون صورة أولاً...

قاطعه القروي:

- وكلمة أيضا! والكلمة كل شيء. فبالكلمات نحب، وبها نعبر عن لواعج العشق. ومنها نغضب وبها نصادق ونحارب. وبالكلمات يتعبد النساك داخل المساجد والمحاريب والكنائس والصوامع. وبها نُهدهد أطفالنا قبل النوم، وبالكلمة وحدها نترضى المحبوب الغاضب. وبالكلمات نصف المشاعرَ المختلجة في صدورنا، ونداعب البدر الضحوك في سمائنا، وبها نصف الغابات والأزهار والأمطار، والأماسي الماتعة والصباحات الوضاءة. فعلاقتنا بالكون كله إنما هي عبر الكلمات يا سيدي... رئيس التحرير!

والتفت الجميع إلى رئيس التحرير منتظرين رده. فبدا في أعينهم سمينا قصيرا أصلع، طفلاً في عامه الثالث... يبحث عن كلمات.

ورفع هامته وأجال بصره في وجه القروي، فبدا له جادا مُغضبا

قوي الحجة. وتساءل في نفسه: بأي حيلة سأروض هذا الجمل الهائج. ثم تصنع الابتسامة:

- دعونا نرَ أجندة الأخبار اليوم، وسنتحدث في هذه الجزئية لاحقا.

وأحس القروي بغضب يكاد يخنقه. فهو يغار على اللغة العربية كما يغار البدوي على زوجته الحسناء، وتخيل نفسه جالسا مستمعا لنشرات باللهجة على قناة العروبة. تلك القناة التي يؤمن إيمانا عميقا بأنها ساهمت في النهوض بالفصحى، وتوحيدِ اهتمامات الإنسان العربي.

اعتذر لينصرف قبل نهاية اجتماع التحرير. ثم تخيل ردة فعل الجاحظ إذا أُخبِر بأن بعض العرب يميل إلى اللهجات المترعة باللحن أكثر من ميله للغة مضر! أحس برغبة عارمة في غسل سليقته بعد هذا النقاش. ووجد نفسه يتذكر كلاما للجاحظ، فقرر طباعته على ورقة وتعليقه على طرف مكتبه حتى يقرأه كل من في غرفة الأخبار.

وقبل انتهاء الاجتماع، قذفت الطابعة ورقة تلقفها القروي وألصقها على طرف مكتبه، وكان مكتوبا فيها:

«ولو جالستَ الجهالَ والنَّوْكى والسخفاءَ شهرا فقط، لم تنقَ من أوضار كلامهم، وخبالِ معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل دهرا، لأن الفساد أسرعُ إلى الناس، وأشدُّ التحاما بالطبائع، والإنسانُ بالتعلم والتكلف، وبِطولِ الاختلافِ إلى العلماء ومدارسة الكتب يجودُ لفُظه ويحسنُ أدبُه. وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك التعلم، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخير».

وتملكه شعور مناضل وزّعَ منشورا سياسيا في دولة بوليسية.

وأمسك قلما وخط تحت عبارة «وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخيُّر».

وحانت منه التفاتة فلمح رئيس التحرير يرمقه بحنق من زجاج مكتبه، فرمى بجسمه على كرسي مكتبه غير مكترث، وبدأ يكتب:

***

بغداد، ما بين 219، و235 هـ

على مرّ السنوات وتلاحق الأيام، تعوّد الجاحظ على جلسات المساء في شرفة من شرفات منزله الواسع في بغداد، بدأ يتعلق بالعزلة مع كتبه وجاريته، أكثر من تعلقه بمجالسة الأمراء والخلفاء والوجهاء. فقد حصّل من الهبات -التي تتالت عليه بعد كتابته كتبا للمأمون وابن الزيات وغيرهما- مالاً عريضا مع شهرة طبَّقت الآفاق.

جلس يكتب مديراً ظهره لسحر بغداد وما تضطرب به من أحداث، مستمتعا بصرير أقلامه على الورق، ورنات عود جاريته علية. ومع وقوع أحداث جسام في السنوات الماضية؛ كوفاة المأمون، وامتحانه لرجال الحديث بخلق القرآن، فإنه ظل منكفئا لا يهمه إلا الكتابة والقراءة. فقد أحس بأن العمر يتقدم وهو لم يحقق حلمه الذي بدأ يكبر بين جنبيه.

أصبح يشعر دائما بأنه مستعجِلٌ حتى ولو لم يعرف وجهته القادمة. هل الإحساس بتقدم العمر يدفع الإنسان للركض كي يعبّ من الدنيا قبل أن تُخطف من بين يديه، أو يُستلّ منها؟

لا يدري، لكنه أصبح يستيقظ وينام على حلم إكمال كتب جديدة تجمع ثقافة العرب.

تقلبت دولٌ وتغيرت أحوال خلال السنوات المتطاولة، لكن ذلك كله شجعه على العزلة بين كتبه. يستمع إلى صرير قلمه على الورق، ثم يستلذ الدويَّ الذي يأتيه من خلف الأبواب عن كتبه ورسائله.

خرج من غرفة كتبه ووقف في الشرفة ممتعا عينيه بالنظر إلى نهر دجلة البادي في الأفق، وكانت علية جالسة في طرفها، وبيدها عودٌ تستعد للغناء كما تفعل عادة كل جمعة.

شدت وترا من الأوتار وقالت بتدلل:

- ألا تملّ من الكتب والكتابة؟

لم يجبها، فقد كان ذهنه مشغولا بما سمعه أمس من قصص البلاط والحرب الدائرة بين المقربين من الخليفة، وكانت عينه قد استقرت على حراقة مليئة بالجنود يعبرون دجلة.

ثم التفت إليها بكامل جسمه وقال:

- تعاليْ.

وضعت العود من حجرها واقتربت منه، فمدّ يده في الأفق مشيرا إلى مدينة بغداد الساحرة المترامية وقال:

- هل ترين هذه المدينة؟

- بلى!

قالتها بتنهد، وهي تفكر في علاقتها المتناقضة بهذه المدينة الغافية في مثل هذه الساعة. لم يهملها لتفكر في طبيعة علاقتها ببغداد، وقال:

- إن كل ما ترينَه لن يبقى منه للتاريخ إلا ما يُخلده قلمٌ مبينٌ، أو يفتكّه شاعر بليغ من بين أنياب الزمان!

فهمتْ ما يرمي إليه، ثم سحبت يدها من يده عائدة إلى عودها وهي تفكر في أسباب حبها لهذا الخَلْق الغريب. فلا هو وسيم الطلعة، ولا صاحب سلطان حيث نشأت هي بين الرشيد والمأمون. لكنها لا تشك في زيادة تعلقها به كلما مرت الأيام.

هل سبب تعلقها به شعورها أنه أول رجل تلاحظ كون علاقته بها ليست متمحورة حول إشباع الرغبات الحسية، فلا هو ممن يتوق إلى ذلك الجانب منها إلا نادرا، بخلاف من عرفتهم قبله؟

كانوا لا ينظرون إليها إلا على أنها أنثى، أما هو فقد شعرتْ معه بأنها امرأة، يتعلق بغنائها وجمالها والتفاتها وغنجها، وصدقها وكذبها ودموعها وقوتها وضعفها... يتعلق بتلك الجوانب التي تجلعها امرأة، لا بتلك الأعضاء التي تجلعها أنثى.

أما هي فقد علمتها الأيام أن تكره كل ما يجعلها أنثى، تكره ذلك الجمال الجسدي الذي أغلق عليها زنازين الشقاء أكثر مما فتح لها بساتين السعادة.

كانت تنظر إليه، ثم تذكرت ما سمعته خلسة البارحة أثناء حديث له مع أحد زواره، فبادرته سائلة:

- هل صحيح أن المعتصم يقدم وزيره ابن الزيات، على القاضي أحمد بن أبي دؤاد وأن الحرب بينهما مشتعلة؟

رفع القلمَ عن الورقة التي كان يكتب فيها وقال بلهجة فيها تأفف وتضايق:

- وما أدراك؟

فقالت بتلعثم:

- أخبرتني جارتي... و...

- هل كنت تتلقطين حديثنا البارحة؟

- لا، لا... لكن.

- لكن ماذا؟ اسمعي! إن قصص الملك والوزارات أخطرُ من أن تتحمّلها صدورُ المراضع! لا تتسمعي لحديثنا أبدا.

وضحكت عليةُ ضحةً متأرجحة بين الاعتذار والغواية. ووقف هو وإصبعه وسط الكتاب الذي كان يكتبه. خرج من الشرفة مغلقا الباب الخشبي وراءه، ومفكرا في أن موعد وصول بعض زواره قد اقترب.

وما كادت الشمس تغيب عن نهر دجلة حتى كان المجلس يضج بزوار، منهم ماسرجويه والنظام وأبو محمد الفارسي.

أخذ كل منهم مجلسه بينما كان الجاحظ يبالغ في الترحيب، ممازحا النظام قائلا:

- أنت عندما تدخل مدينة غير البصرة تشعر شعورَ عاشق يُغازل غيرَ معشوقته.

ترددت ضحكات الجميع، وجلس النظام مرددا نظره في جنبات المجلس. رأى طنافس جميلة وسجادا فاخرا، فشعر بغبطة تجتاحه وهو يتذكر الغرفة التي كان يسكنها صاحبه في حي العلافين بالبصرة.

دخل غلام حاملا خوانا ووضعه وسط المجلس.

جاء صوت رجل ضخم الجثة شديد البياض يعمل في قصر الخليفة يسمى أبا محمد الفارسي:

- سمعتُ أن أمير المؤمنين المعتصم سيمتحن أهل الحديث أكثر مما فعل المأمون رحمه الله.

فأجابه الجاحظ:

- إذا لم يفعل فأخشى أن تنتقض عليه الخلافة. فأصحاب الحديث الآن يملكون المدن بطاعة الدهماء لهم.

قالها الجاحظ وهو لا يرفع عينيه مراقبا نفيسا وهو يضع بعض الأشربة على الخوان. ثم رفع عينيه إلى النظام وقال:

- كيف حال مويس بن عمران؟

رد النظام بلكنة مشفقة:

- لقد أصابه مرض وهو الآن بين الحياة والموت.

- عافاه الله.

- آمين.

- وماذا عن عبود، صاحب القِيان؟

جمع النظام يديه وفركهما، وهو يتأمل جدران الغرفة المزركشة بصور الطواويس وقال:

- سبحن الله! من يهْدِ اللهُ فهو المهتد! عبود نذر نفسَه للجهاد.

برقت أسارير الجاحظ، وتفرس وجوه جلسائه قبل الحديث وقال:

- هل تعرفون سبب اختيار عبّود للجهاد؟

فقال النظام:

- أرى أنه فكر في الأعمال، ثم وجد أشدها على النفس وأكثرها أجرا سنام الإسلام الجهاد.

دوت ضحكة الجاحظ الساخرة، ومال إلى الوراء في كرسيه وهو يعدل قلنسوته وقال:

- أرى -والله أعلم- أنه اختار الجهاد لأن له ثأراً مع الروم. فهم الذين خصوه لمّا كان صغيرا وباعوه. لذلك لا يكاد الخصيُّ يتدين وينصرف للزهد حتى يترك كل العبادات القريبة والبعيدة ويفضل عليها الجهاد بأرض الروم.

رفع النظام وجهه مقطبا جبينه وقال:

- عفا الله عنك أبا عثمان، ما هذه الخواطر؟

- هذا ما أراه، ولعله هو في دخيلة نفسه لا يدرك ذلك. ولا تعجبوا فقد رأيت أن لكل طائفة من الناس مسلكاً في التدين والتعبد. فتديُّنُ الفارسي إذا تاب أن يحجّ، وتدين عمال الدولة أن يتركوا العمل للسلطان، وتدين المغني أن يكثر الهذرمة بالتسبيح والصلاة على النبي، والصلاة في الجماعة مع شرب النبيذ، وتدين الشيعي إظهار ترك النبيذ. وتدين المتكلّم التسرّع إلى إكفار أهل المعاصي، ورمي الناس بالجبر، أو بالتعطيل، أو بالزندقة.

كان الفارسي يستمع شاعرا بالملل من حديث الجاحظ وغوصه في أعماق النفوس. وكان ذهنه مشغولا بالتفكير في كثرة الأتراك في بغداد وتفضيل المعتصم لهم على الفرس، فقال محاولا تغيير مجرى الحديث:

- لقد أصبحت بغداد ترطن بلكنة الترك. ما رأيكم في اعتماد أمير المؤمنين المعتصم على الأتراك، وجلبه الألوف منهم؟

قال النظام وهو يملأ يده من الزبيب الذي على الخوان:

- أليسوا أخواله؟

- بلى، لكن الخؤولة لا تخوّل إدارة الدول.

- لكني ما سمعتك تتضايق من اعتماد المأمون على الفرس لأنهم أخواله.

- نحن لسنا كالترك. فاعتماد المأمون على الفرس ليس لأنهم أخواله، بل لأنهم أخوال الإدارة وأعمام السياسة وأبناء كسرى. فهم أعرف بالسياسة والآيين والحدود والرسوم، هم وُرّاثُ دولٍ وصُنّاع مُلك.

تربع الجاحظ على أريكته وسط المجلس، ونزع القلنسوة، فبدا رأسه الصغير الذي بدأ الشيبُ يغزوه أصغرَ من حجمه المعتاد:

- أنتم تعلمون أن دولة بني مروان كانت عربية أعرابية، ودولة بني العباس هذه خراسانية فارسية. فلو عددتَ الوزراء من لدن السفاح إلى المأمون لوجدت معظمهم من الخراسانية، مع أن قادة الجند على الثغور من العرب.

قاطعه الفارسي:

- لا غرو، فنحن من شفى الله بنا صدورَ بني العباس، ونحن من فتحنا البلاد، وقتلنا العباد. ونحن أصحاب هذه الدولة، ومَنبَت هذه الشجرة، ومن أرضنا هبّتْ هذه الريح.

كان الكل ينظرون إلى الفارسي مندفعا في الحديث محركا يديه، كما كانوا ينظرون إلى حبيبات العرق التي تتجمع على جبين الجاحظ، فقد كان لا ينزعج من شيء انزعاجه من تنقص العرب. فانطلق قائلا:

- ليس للعجم أن يتكلموا عن هذه الدولة مع وجود العرب. «فهل أكثر النقباء إلا من صميم العرب، كأبي عبد الحميد الطائي وأبي محمد سليمان الخزاعي وأبي نصر مالك بن الهيثم الخزاعي؟ ثم من الذي قتل آخر ملوك بني مروان؟ ومن هزم ابن هبيرة؟ ومن قتل ابن ضبارة؟ ومن فتح السند إلا موسى بن كعب؟ ومن فتح إفريقية إلا محمد بن الأشعث؟»، ومن قادة جيوش الثغور الآن إلا العرب؟

كان الرجل الفارسي يعبث بطرف لحيته الصهباء مستمعا، ثم أرخى يده وقال:

- أو تذكرُ ما قاله محمد بن علي والد السفاح؟

- وماذا قال؟

- قال إن «البصرة وسوادها غلبَ عليها عثمان وصنائعُ عثمان. فليس من شيعة بني العباس فيها إلا القليل...».

قاطعه الجاحظ مشيرا إلى النظام:

- أنا الآن من أهل بغداد، لكن لا تتحدث عن البصرة والنظام ينظر إليك...

انفرجت شفتا النظام الغليظتان عن ابتسامة، فواصل الفارسي رواية كلام السفاح:

- «وأما الجزيرة العربية فخارجةٌ مارقة، ولكن عليكم بهذا الشرق فإن فيه صدورا سليمة وقلوبا باسلة، لم تفسدها الأهواء ولم تعْتَقبْها البدع، وهم مغيظون موتورون». فكيف لا نكون أصحاب الدولة

وأحق بها من العرب، فكيف بأعراب الترك الأجلاف؟

رفع الجاحظ بصره في السقف وقال:

- إن كلام محمد بن علي كلامُ صاحب سياسة لا صاحب كلام وفلسفة، لقد كان الفرس أصحاب ديانة سابقة وملك قائم، لذلك لم يستسيغوا الدينَ كما استساغه العربي والتركي. فالعربي والتركي امتزج الإسلام بشغافهما، وخدما هذه الدولة مخلصيْن لأنه لم يكن لهما سلطان بين الأمم إلا بهذه الدولة وسندها النابت في الدين. أما الفرس فكانت فيهم المجوسية والكسروية، وجاء العرب فهدموا دولتهم وفلوا حدّهم، فهم موتورون مغيظون، وحانقون محزونون دائما.

شعر الفارسي بدوّار في رأسه وهو يقول:

- من مهد قواعد العلم غير الفرس؟ وما الدين إن لم يقم على قواعد؟

كان النظام منشغلا بخضم حبات من اللوز فابتلعها بهدوء، وتنحنح فشخصت إليه الأبصار. مسح طرف شفته وقال:

- شيء عجيييب! هاهنا باب آخر لا أراكم فطنتم له، إن هذه الملةَ قلَبَت الأممَ المختلفةَ أمةً واحدة، فمزجت الألوان وأدخلت الفضائلَ والرذائل بعضها ببعض. فأصبح الخراساني عربيا بالتنشئة وتوحُّدِ القصد، وأصبح العربي فارسيا لتقارب السكن ووحدة التعلّم والديانة والسعي وتشابه المقاصد، فأنا لا أعلم أعرقَ في الأعرابية منك يا أبا محمد إذا كتبتَ وتحدثت في الشعر والمديح وقصص العرب. ولا أعلم أكثر خراسانية منك يا أبا

عثمان، إذا تحدثت عن أهل مروَ، وحكيت قصصهم. فأنتما متفقان بالقوة، وإن اختلفتما بالفعل.

تثاءب ماسرجويه وقال:

- إن الخلفاء في هذه الملة لا يقربون الرجل لجنسه ولا قبيله ولا ديانته، بل لعلمه وفضله، وإلا لم جمعت مجالس الخلفاء بين الفارسي والرافضي، والعربي والمحدث، والمتفلسف والطبيب والنصراني؟!

رفع الجاحظ عينيه إلى الستائر المزركشة التي تغطي النوافذ، ثم تذكر أمرا، فقال وكأنه يريد إنهاء الحديث:

- نحن متفقون على هذا. لكن الشعوبية أحدثت ضربا مستحدثا من القول في مثالب العرب، فقاد ذلك إلى هذا الحجاج واللجاج.

ساد صمت، قطعه صوت الفارسي:

- ما أخبار التنافس بين ابن أبي دؤاد وابن الزيات؟

فقال رجل في طرف المجلس ظل صامتا:

- المعتصم أصبح يقدم ابن الزيات، حتى إنه أمر كل من رآه في القصر أن يقوم تكريما له إذا داخل.

قال الفارسي، وهو يلعب بلحيته الصهباء:

- هل تعلمون ماذا فعل ابن أبي دؤاد؟ كلف أحد معاونيه أن يخبره إذا دخل ابن الزيات، فإذا أعلمه بدخوله قام وبدأ يصلي حتى لا يقف له!

قال الجاحظ:

- كنت معه أمس، فلما دخلنا رأينا ابن أبي دؤاد يصلي، فقلت له أيها

الوزير، ما بال هذا يصلي في وقت ليس وقت صلاة؟ فقال لي:

صلى الضحى لمّا استفاد عداوتي
وأراه ينسكُ بعدها ويصومُ
لا تعدمنَّ عداوةً مسمومةً
تركتْكَ تقعدُ تارةً وتقومُ

قال الفارسي:

- سمعت أن ابن الزيات نظم تسعين بيتا في هجاء ابن أبي دؤاد.

جاء صوت ماسرجويه:

- لكن ابن أبي دؤاد رد عليه ببيتين يعدلانها كلها حين قال:

أحسنُ من تسعين بيتاً سُدى
جمعك معناهن في بيتِ
ما أحوج الملكَ إلى مَطْرةٍ
تغسلُ عنه وَضَرَ الزيتِ!

تضايق الجاحظ من التعرض لصديقه ابن الزيات، فلاحظ ذلك جلساؤه، وخيم صمت قطعه صوت الجاحظ متظاهرا بعدم الانزعاج:

لكن ابن الزيات رد على هذين البيتين وقال:

يا أيها الطامع في هجونا
نفسك قد عرضتَ للموتِ
الزيتُ لا يُزري بأحسابنا
أحسابُنا معروفةُ البيتِ

ضحك الجميع، فقال النظام ملتفتا إلى الجاحظ:

- وما الذي جعل المعتصم يقدم ابن الزيات على ابن أبي دؤاد رغم علمه وبلاغته ونسبه في بني إياد؟

ساد صمت، مطبق، فتلاحظ النظام وماسرجويه، بينما ظهر ظل جمجمة الجاحظ منعكسا على الجدار يخضم حبات من اللوز.

أبعد الفارسي المصباح عن وسادته قليلا وقال:

- إن ابن الزيات أصبح يدرّ على الخليفة مائلا طائلا....

ثم توقف عن الحديث، والتفت فرأى أجفانا تتراقص، مع صمت متوتّر.

لكن النظام قال:

- كيف ذلك؟

لم يكن أحد جاهزا للجواب، فخيم الصمت.

فليس في بغداد أحد إلا سمع عن تنور العذاب الذي أعدّه ابن الزيات للمخالفين والمصادَرين، إذ أصبح يأتي بالتاجر الذي تُصادر أمواله ويضعه فيه حتى يقر بكل ما عنده أو يتمزق أشلاء بالكلاليب.

جاء صوت النظام حادا هذه المرة:

- كيف يقع هذا وأنتم جماعة العدل والتوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

وقع السؤال على رؤوس الحاضرين كأنه صخرة متدحرجة قادمة من قعر نار جهنم، ساد صمت مطبق.

فرغم التقارب العقلي بين الجالسين فإن الحياة في بغداد وفي أكناف الخلفاء عودتهم ألا يأمن أحد جليسه، كان السؤال قاسيا، فسبب المودة

والتقارب بينهم هو انتماؤهم إلى الاعتزال القائم على مبادئ أهمها العدل والتوحيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لكن لبغداد منطقها.

كان النظام بعيدا عن عالم بغداد هذا، مشغولا بالتنظير والتفكير، والعيش في عالم المناظرات العقلية في البصرة.

خطف الجاحظ الحديث:

- ومن قال إن العدل ليس في استخراج المال المغصوب بغير وجهه من أرباب الربا؟

فقال النظام باستغراب:

- ومن قال إن من يعذبهم الوزير مُرابون؟ ومن أباح ظلم المرابين؟ ومن أباح التعذيب في الملّة؟
- إذا كان الظالم لا ينزجر عن ظلمه إلا بالتعذيب، ألا يجوز تعذيبه؟
- لم يثبت عن النبي ولا عن أصحابه أنهم عذبوا أحدا، وما كان النبي ولا عمر ولا أبو بكر يسجنون أحدا، فكيف بتعذيبه. ثم إن التعذيب يتعارض مع تكريم الله لبني آدم وتسخير الكون لهم.

احتدم الجدل بين الجاحظ والنظام، ثم ساد صمت، قطعه صوت الخادم نفيس يدعوهم للانتقال إلى مجلس العشاء.

تغيرت نبرة الحديث على مائدة العشاء، وانصب الحديث على كرّاسة كتبها الجاحظ عن عادات البخلاء وأخلاقهم، فتذكر الجميع أيام المسجديين بالبصرة وقصصهم.

امتلأت أطراف المجلس بأصوات القضم واللقم، واحتكاك

الأواني واختلاف الأيدي فوق الطعام.

بعد العشاء ودّع الجاحظ ضيوفه، وصعد السلم إلى غرفة كتبه، كان معتدل المزاج يكاد يقفز حيوية وسعادة، دخل الغرفة وجلس بين كتبه، فيما كانت رائحة العطور الفواحة تداعب خيالاته من غرفة علية القريبة. نفض التراب عن أحد كتبه وهو يغالب نفسه بين سحر علية وسلطان الكتاب، وبين الحالتين شعر بغبطة وسعادة.

لكن ما لم يدُر بخلده تلك اللحظة، أن هذا العالم سيتهاوى أمام عينيه في لمحة البرق.

* * *

وقف نفيس مشدوها في حديقة المنزل من تصرفات سيده. كان الجاحظ يمشي، ويجلس ثم يقف. يُحَوْقِلُ أحيانا ويُحَسْبِلُ أخرى. يجلس واضعا يديه على رأسه ثم يقف ويسأل نفيساً من جديد متوسلا بنبرة طفل:

- هل رأيتها؟ كيف ذهبت؟ كيف؟

لكن إجابة نفيس لا تكشف شيئا عن اللغز المحير، أعاد عليه نفيس العبارة ألف مرة.

- طلبتْ مني أن أذهب إلى السوق، وعندما عدتُ لم أعثر لها على أثر.

بصعوبة، عاد إلى داخل المنزل يجر قدميه، ولا يدري كيف حملتاه. ها هو مستلق على ظهره في غرفة كتبه ينظر إلى السقف بعينين منطفئتين.

الصدمة ليست في اختفاء علية فقط، بل في عجبه من حجم الحب الذي يكنه لها دون أن يدري، هل هناك أشياء نعشقها دون أي معرفة منا بالأمر؟ أهناك عشق مؤجلٌ يتوقف على لحظة فقدانه؟تماما، كالطفل

الذي يظل مستلقيا بين حضن أبويه لا يلقي بالا لحضورهما في حياته، ثم ييتم فجأة. فيلتفت إلى زوايا الكون فيراها خالية، موحشة ومخيفة، ويستيقظ على مآقيه تسيل أنهارا من الدموع.

هل أحب علية لهذه الدرجة؟

أدار عينيه في جنبات الكتب، رأى كتب الأوائل والأواخر، من أدب وتاريخ ولغة وفلسفة... كل هذه الطوامير فقدت رونقها بعد خروج علية من هذا المنزل.

عجز عن تخيل عالمه بدونها، تخيل نفسه حافيا في شوارع بغداد يسائل عنها الدراويش والمتسولين والصيادين والتجار وقطاع الطرق.

- هل فيكم من رآها؟
- من هي؟
- هي علية.... هي عريب! ومن منكم لا يعرفها؟ هي! بملاءتها البيضاء وشعرها المنسدل ووجهها الوضاح؟

كانت أذناه مترعتين بلحن أصابعها تتراقص على العود، وبتمتمات شفتيها في أماسي بغداد الوادعة، وكانت عيناه مسكونتين بوجهها الصبوح وهي تقول له: فديتك!

أغمض عينيه على صورتها تلك، ووقف بتثاقل متسائلا في نفسه عن هذا الحب الذي لا يشتد ضرامه إلا بعد فقدانه، كيف يعشق هذا العشق الحارق من وَخَطَهُ الشيبُ ونيّف على الستين؟ بل كيف يعشق من لم يتجاوز الستين؟

إن الحب ألطف وأدق وأخطر من أن يُترك لعبة لطيش الشباب.

فيما يقع فيه الشباب ليس حبا، بل صخب حواس فقط. إنما يعشق العجائز. فلا يمكن لبرعم الحب أن يترعرع إلا بين يديْ من أدّبتْه الأيامُ وربّاه تعاقب الليل والنهار.

مرت عليه أيام لم يخرج من عتبة غرفة كتبه، وقلبُه مترعٌ بحزن دفين وشعور بعبثية الحياة. ثم انقضت أسابيع كان يعود فيها كلَّ مساء، فلا يطلب طعاما ولا شرابا. يصعد إلى غرفة كتبه، ويمر وقته بين كتابة ونوم وتفكير.

سمع مرة نفيسا يقول لخادم جاره:

- منذ اختفائها أهمل سيدي كل شيء، أصبح لا يسأل عن سقي الحديقة ولا يهتم بنوع الطعام ولا الشراب.

***

طال مجلس الجاحظ مع ابن الزيات، ويكاد ينهي قراءة رسالته التي كتبها له بعنوان «رسالة في الجد والهزل». سكت الجاحظ قليلا ليرتاح بعد قراءة طويلة، فمال ابنُ الزيات على وسادته، ووضع عمامته عن رأسه، وقال وهو يتفقد فتيلة المصباح:

- والله إني لمريض القلب يا أبا عثمان؟

- عافى الله الوزير!

- إني دنفٌ بالحب، ولا قوة لي عليه.

قفز قلب الجاحظ من مكانه عندما سمع كلمة الحب. لكنه كان يداري ما به، ولا يريد أن يطلع الوزير على اختفاء علية، فقال:

- إيه! ومَن الغزال الذي افترس الأسد؟

- إن قلبي متنازع بين حزني على فراق زوجتي وحبي لجارية من جواري فرهود المُقَيِّن عشقتها قبل سنين طويلة!

- جارية فرهود خطبها سهل، لمَ لا تطلبها منه؟ أما أم جعفر رحمها الله، فلا تنس أجر الصبر.

- لقد بيعت الجارية وذهبت منذ سنين، حتى كأن أرضا ابتلعتها، أو سماءً لحستْها، وما عثرنا لها على أثر.

- هل يتسع القلب لحبيْن أيها الوزير؟

- إييه!

قالها ابن الزيات متنفسا بعمق، ثم أردف:

- إن القلب الكبير يتسع لأكثر من حب يا أبا عثمان. فبين جوانحي بحار من المشاعر لا يتسع لها قلب امرأة واحدة.

- لكن ثمة فرقا بين أن تحب امرأة، وأن تميل إلى أخرى!

- أنا أتحدث عن الحب يا أبا عثمان، ففي هذا المنزل من الجواري الروميات والحبشيات والهنديات والفارسيات ما يكبح الرغبة، أنا محب يا أبا عثمان.

استند ابن الزيات ووقف من مكان جلوسه، ومشى قليلا إلى الباب وألقى نظرة على الحديقة المصفوفة بعناية في مدخل منزله، كان قلبه يحترق، ثم جعل يردد آخر أبيات قالها باكيا على الجارية التي بيعت لرجل من أهل همدان:

يا طولَ ساعات ليل العاشق الدنِفِ

وطـولَ رعْيَتِـه للنجم في السَّـدَفِ

مـا ذا تواري ثيابي مـن أخي حُرق

كأنـما الجسـم منـهُ دقـة الألـفِ!

أدار ظهره للنافذة ونظر إلى الجاحظ وأكمل:

مـن سره أن يرى مَيْـتَ الهوى دنِفا

فليسـتدلَّ عـلى الزيـات ولْيقـفِ!

التفت الجاحظ إلى فتيلة السراج وهي تكاد تنطفئ، ورفع بصره فرأى خيال ابن الزيات على الجدار ضعيفا هزيلا مسكينا، رغم أن مجرد ذكر اسمه يخيف أشداء الرجال في بغداد.

جلسا صامتين، لكن قلب كل منهما كان مليئا بالصخب، ثم استأذن الجاحظ وخرج من باب المنزل الكبير.

وبعد ساعة، كان ابن الزيات يدخل إلى باب السجن الكبير ببغداد، فهذه الساعة المتأخرة من الليل هي الوقت المحبب عنده للقيام بعمله.

جلس على كرسيه ونادى بأول سجين.

دخل الرجل يرسف في أغلاله، ووقف بين يديه، غطى ابن الزيات أنفه بكمه وقال:

- أما آن لك أن تقر بكل ما تملكه من ضِياع وأموال؟

- والله لقد أحصيت لك كل ما أملكه يا مولاي.

- خذوه إلى التنور!

كانت تلك الكلمة هي كل ما فكر فيه هذا السجين طيلة الأيام الخمسة الماضية، فرغم انطباق حِلَقِ القيد على رجليه الداميتين، فإنه كان ينظر إليهما كأنهما معصمان من الحرير بالقياس إلى ما سيلقاه في التنور.

فما أكثر ما سمع رفاق السجن يتحدثون برعب عن التنور، وكان وصفهم لعذابه لا يفارق أذنيه:

- دخله عبد الله اللص فاندلقت أحشاؤه. كانت كلاليب الحديد تنزع مصارينه.

- ما دخله أحد قط وخرج منه عاقلا إن خرج حيا!

قفز الجنود على السجين وحملوه إلى التنور...

كان تنورا كبيرا مصنوعا من الحديد، تتوسطه كلاليب وحَسَكٌ ومقعد من خشب. يجلس السجين على الخشبة وتحيط به الكلاليب والحسك من كل جهة دون أن تلمسه.

لكنه لا يتحرك حركة إلا خدشته، فإن نام خدشه مسمار، وإن تقلب تناوشته مسامير.

يجلس على أطراف التنور حارس مكلف بإيذاء من يدخله.

ما إن استقر السجين داخل التنور حتى صاح باستعطاف:

- والله يا مولاي لو ملكت شيئا في هذه الدنيا ما أخبرتك به لأقررت به! ارحمني رحمك الله.

لا يزيد ابن الزيات على تكرار جملته التي غدت تتردد في كل بيت ببغداد:

- الرحمةُ خَوَرٌ في الطبيعة!

- ارحمني يرحمك الرحمن!

- الرحمة خورٌ في الطبيعة!

ثم يتلاشى صوت المعذب في غياهب التنور.

وبعد ليلة مليئة بالصراخ والعويل، والاسترحام والقصص، ولحظات انكسار الرجال المستورين، يخرج ابن الزيات لتداعب وجهه نسائم نهر دجله.

وفي ساعات الصباح الأولى يعود إلى باب قصره وخيال جاريته الهمدانية يداعبه، وهو ينشد الأشعار الرقيقة في رثاء زوجته.

* * *

الدوحة، 1440 هـ

مرت أيام ثلاثة وهو يتصور لحظة دخوله منزل أهلها لطلب يدها.

وكان أكثر ما أزعجه اشتراط والدها ألا يأتي وحيدا؛ فكيف يأتي رجل وحده لخطبة ابنته؟ فكان عليه أن يجد أصدقاء ومعارف ينتحلون هويةَ أعمامه وأقاربه. وانتخب -بعد طول تفكير- أربعة أصدقاء، التحفوا دراريعهم الموريتانية البيضاء المزركشة.

وقفت سيارتهم أمام المنزل الواسع الواقع بمنطقة الدفنة، حيث تنام غابة من الأبراج الشاهقة على مياه الخليج الهادئة. نزل القروي، ملقياً نظرة على الأبراج العالية البادية في الأفق وقت الغروب، ثم أعاد نظره لهاتفه وهو يبستم. فقد لاحظ أن رفاقَه يمشون متجهينْ للباب عكس هبوب الرياح، فدخل الهواء في أطراف دراريعهم الواسعة، فبدا كل واحد منهم كأنه منطادٌ يستعد للإقلاع.

أعاد بصره للهاتف، فهو مشغول بالتواصل مع حصة الحريصة على ألا يرتكب أي كارثة بروتوكولية تخالف الأعراف والتقاليد. كأن يرفض تناول القهوة مثلا واصفا إياها بأنها مرة لا تُستساغ، كما أخبرها أنه فعل يوما بأحد المجالس، أو أن يستلقيَ على ظهره -كما يفعل أحيانا- متعللا بأن الموريتانيَ الأصيل هو الإنسان الوحيد الذي يولد دون عمود فقري!

ما إن دخلوا من الباب الواسع حتى تلقاهم أخوها بملابسه الناصعة البياض، مندفعا يرتب عقاله فوق رأسه قائلا:

- يا هلا ومرحبا...

- أهلا بكم...

انقبض القروي ملاحظا غياب أبي حصة عن الاستقبال، وعزّى نفسه بأن العادات ربما لا تستلزم حضور الوالد لحظة دخول الخطاب المنزل. دلف القروي وأصحابه من الباب الواسع، وأصواتُ احتكاك دراريعهم تملأ المكان.

ما إن دلف الجميع إلى المجلس حتى خرج والد حصة من طرف المنزل، متأملا الخُطَّابَ الأغرابَ. نظر إلى دراريعهم المزركشة، ملاحظا أطرافها الواسعة وزركشاتها اللافتة.

جلسوا داخل المجلس المستطيل الفسيح الذي تغطي الأرائكُ الفارهة الغامقة جنباتِه، ويزين السجادُ الرمادي الفاخر أرضيتَه. وأمام كل أريكة من الأرائك وُضعتْ طاولة صغيرة عليها مكسرات وشاي وقهوة.

دخل أخوها الأصغر وصبّ فناجين القهوة.

بعد السلام انتهى الكلام وساد الصمت. وطفِق كلٌّ يحفِر في ذهنه عن كلمة لينكشف الصمتُ الثقيل. بعد هنيهات صامتة لم يُسمع فيها إلا منبه سيارة في الشارع، تحرك القروي في مكانه وقال:

- هذه المنطقة جميلة، ما شاء الله.. وقريبة من الكورنيش.

وبادله أخوها الكبير النظرة قائلا:

- صحيح. أنا أتمرن هناك في الصباحات...

واقترب أخوها الأصغر فصبّ فنجان القهوة الخامس خلال دقيقتين للرجل الجالس عن يمين القروي، وكانت أول مرة يجلس فيها مجلسا خليجيا، ولا يعرف شيئا عن عادات القوم في شرب القهوة.

وصب له الفنجان السادس فرماه في جوفه.

وبدأ يشعر بلهب في معدته يصّاعد إلى حلقه، فمعدته لم تتعود إلا الشاي الأخضر المُحلىَّ، ولم تعرف قط طعم القهوة، فكيف بقهوة عربية مرة.

وظل الشاب واقفا يُترعُ الفنجان تلوَ الآخر للضيف، وظن الضيف أن الأدب يقضي بازدراد كل ما أُعطي له من قهوة، ثم تصاعد الألم واللهب أكثر. فمال على القروي وهو بالكاد يتكلم:

- اسألهم أين الحمام؟

وأشير إلى حمام قريب من المجلس، ووقف الرجل بدراعته المزركشة، فانفتح طرفاها فعلِق دلُّ القهوة بكمها، فطارتْ الدلة في الهواء.

شعر القروي بحرج شديد، لاحظه والد حصة فقال:

- عادي.. عادي..، تعال يا..

وجاء عامل هندي يركض، وجفف القهوة المتناثرة على الأرض، وأخذ المواعين وذهب بها.

وعاد القروي إلى مكان جلوسه متوترا.

رفع أبو حصة وجهه ليتأمل القرويَّ. فشعر بالارتياح لمنظره، وأعجبته طريقته في الحديث، وأناقته اللافتة. فبادره قائلا:

- أين درست؟
- درست في موريتانيا.
- ما شاء الله، بس سمعت أنك تتحدث لغات كثيرة.
- صحيح
- ودرست كذلك في ألمانيا.
- تتكلم ألماني؟
- طبعا، وأتلكم الفرنسية والإنكليزية.

وتأمل والد حصة رأسه المتوسط، وشعره الناعم وأنفه الحائر بين أن يكون أفطس وأقنى، وشفتيه الإفريقيتين الغليظتين رغم بياضه اللافت. فقال:

- من أي القبائل العربية أنتم؟
- يقول أهلنا إننا حميريون... وأنا لا..

ثم تذكر أن هذه ليست لحظة حذلقة وتحقيق في الأنساب، وأن الأفضل له أن يكون حميريا ولو كذبا؛ فسكت.

ورفع والد حصة وجهه وقال:

- لكنك ماذا؟
- أبدا، كنت سأقول لكنني لست عارفا بالروابط النسبية بين القبائل بشكل دقيق.

وعاد صاحب القروي إلى المجلس يجر دراعته بعد أن تقيأ في الحمام كل القهوة التي ابتلعها.

ورأى شقيقَ حصة الصغير متحفزا ليصب له فناجين أخرى، فرفع

كلتا يديه وقال دون مواربة بالفصحى:

- يكفيني.. والله يكفيني! ولا تصبَّ لي أبدا، جزاك الله خيرا!

وتحادَجَ الإخوةُ وأبوهم النظرات. ثم أشار القروي إلى صديقه الأكبر سنا ليبدأ الحديث.

فشمّر كم دراعته وعدل عمامته وبدأ يتحدث.

***

كان الجاحظ مستلقيا على ظهره في غرفة الكتب بعد أن كتب عدة ساعات في كتابه «البيان والتبيين». كان راضيا عما كتب لكنه لم يكن سعيدا، فالبيت خال من علية، ولم يعثر لها على خبر ولا أثر. ثم إنه يشعر بأن الزمن يتسرب من بين أصابعه دون أن يُخرج الكتب التي عزم على إخراجها. كتبٌ تحفظ آداب العرب وتفُلُّحدَّ الشعوبية.

رمى القلم جانبا، وهو يشعر بوخز في نفسه مستعيدا مجلس المعتصم يوم أمس.

فقد دخل من الباب الواسع المقوس الذي يقود إلى الديوان، وما إن دخل حتى امتلأ رعبا.

رأى مجلسا كبيرا دائريا، يجلس الوزراء والعلماء في أطرافه. أما الوسط غير المسقوف من المكان فيقف فيه جنود بأيديهم سيوف وحراب. كما يقف جنود آخرون بملابس مغايرة بأيديهم السياط وأغلال الحديد.

نظر الجاحظ إلى صدر المجلس فرأى الوزير ابن الزيات والقاضي ابن أبي دؤاد، أراد الجلوس حيث انتهى به المجلس، لكن ابن الزيات

أشار إليه بالتقدم. جلس بين ابن الزيات وابن أبي دؤاد، وهو يتأمل الوجوه.

مال على ابن الزيات، وقال:

- هذه جلسة امتحان بخلق القرآن؟

- نعم

- ومن الممحتن اليوم؟

- أحمد بن حنبل

- أما زال مصرا على مقالته رافضا القول بخلق القرآن؟

- نعم.

ثم جاءت صيحة جندي:

- أمير المؤمنين المعتصم!

وقف الجميع، فدخل المعتصم في ملابسه الحربية ينبض حياة وقوة، شديد البياض ذهبي الشعر، تدور داخل عينيه حدقتان كأنهما حدقتا نمر.

جلس، فساد صمت مطبق، حتى قعقعة سيوف الجنود خرستْ. بعد لحظات صمت أشار المعتصم بيده، فسُمع صوت سلاسل الحديد في طرف المجلس.

التفت الجميع صوب باب داخلي فخرج أحمد بن حنبل يرسف في قيوده.

جُمعت رجلاه ويداه بقيد، ثم رُبطت القيود كلها بسلسلة، كان يمشي بصعوبة حتى ليظن الناظر إليه أنه سيسقط عند كل خطوة.

اقترب السجان وهو ممسكٌ بذراع أحمد، فجاءه صوت المعتصم، وعيناه الزائغتان تدوران بسرعة:

- فكوا قيوده، وأجلسوه على ذلك الكرسي.

كان أحمد قد تعود على القيود، فقد مر عليه عام كامل وهو في السجن. يلبس جبة لا يتبين لونها من تراكم الأوساخ، مع شعر كث منسدل على كتفيه. ومع الإرهاق الظاهر عليه فإنه ما إن وقف وسدد نظراته إلى الجالسين أمامه حتى بهرتهم نظراته الراسية.

كانت عيناه غائرتين تحت جفنين مُقوَّسين... عينان حادتان لامعتان، فيهما ثبات ورسوخ وهدوء. كانتا عيني أم تنظر إلى ولدها، أو عيني سلطان يرقب جنوده يتدربون بين يديه.

رفع عينيه في وجه المعتصم، فالتقت عيونهما أول مرة.

عينيا سلطان يملك معظم الأرض، وعينا إنسان يملك روحه. عينا خليفة ممتلئ غرورا بقوته وجيوشه، وعينا عالم يملك إيمانا راسخا وروحا أبيّة.

أشاح المعتصم ببصره، فتأمله أحمد بنظرة ثابتة. بدا له شديد البياض، قوي البنية متماسك الأعضاء يجري ماء الصحة والعافية في أطرافه. ردد النظرَ إليه، ثم مرت بذهنه آلاف الصور المختلطة، رأى نفسه فيها كأنه يقف موقف موسى أمام فرعون، أو عمار بن ياسر بين يدي أبي جهل... ثم تردد في أذنه صوت أحد المساجين في سجن بغداد قبل أيام يودعه:

- اثبت يا إمام. فأنت لست مثلنا، أنت يُقتدى بك وإذا ضعفتَ ضعف الناس.

ثم التفت يمنة ويسرة فرأى أحمد بن أبي دؤاد يلعب بذقنه، ورأى الجاحظ يملأ عينيه الواسعتين منه، ثم ردد البصر في الجنود الواقفين على رأسه وبأيدهم السيوف والسياط والحراب.

رفع بصره في الفضاء المفتوح، فانسدل شعره الكث على أطراف وجهه المرهق، متأملا الجدران الصلبة، والصورَ الكثيرة المنقوشة عليها. أعاد نظرته الهادئة إلى عيني المعتصم.

حرك المعتصم حربة ذهبية بيده وقال:

- أهلا وسهلا بأبي عبد الله، والله لولا أني وجدتك سجينا عند من كان قبلي ما عرضت لك، وإني لأكره أن أثقل عليك.

رفع ابن حنبل حاجبيه وقال:

- لكنك مع ذلك امتحنتني من بين جميع الناس، وأنت تعرف ما في المحنة من الفتنة!

- والله لئن أجبتني لأطلقنك ولأحسنن إليك، ولأركبن إلى بيتك لزيارتك!

- اعطوني شيئا من كتاب الله يُثبت مقالتكم!

- ناظروه!

قالها المعتصم، فتحرك ابن أبي دؤاد وقال:

- ما تقول في القرآن، أمخلوق هو؟

- وما تقول في علم الله؟

- أليس الله قد قال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، والقرآن أليس بشيء؟

- قال الله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾. فدمرتْ إلا ما شاء الله.

- لكن الله يصف القرآن بأنه مُحْدَث، والمحدث مخلوق، ألم تقرأ قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؟

- قال الله تعالى: ﴿ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ﴾، فالذكر بالتعريف هو القرآن، أما الذكر المنكّر الذي تشير إليه فهو ذكر المعرفة وليس بقرآن!

اشتدت المناظرة بين ابن حنبل وابن أبي دؤاد.

وكان ابن أبي دؤاد أحيانا إذا جاء بسؤال جدلي يرد عليه ابن حنبل:

- أنا لست صاحب كلام! وهل كان النبي وأصحابه يقولون بهذا؟

بدأ الضجر والتضايق يظهر على حركة يديْ المعتصم، فلم يكن مثل المأمون الذي كان ضليعا بالفلسفة وعلم الكلام، بل لم يكن المعتصم يفهم دلالات الحديث بين الرجلين. فوقف متبرما مالًّا وصاح:

- اسمع يا أحمد، ألا يكفي أني قلت إن عليك أن تقول هذا... فأنا أمير المؤمينن!

- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

والتفت المعتصم جهةَ ابن أبي دؤاد كأنه يستغيث، فقال بسرعة موجها كلامه لأحمد:

- يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم!

- نعم، «منكم» ولم يقل «وأولي الأمر» بالإطلاق! ثم ماذا أبقيتَ

لأجر إنكار المنكر وجهاد الظالم؟ ألم يساوي النبي ﷺ بين عمّه حمزة وبين من وقف في وجه الحاكم الظالم، فقال: سيدُ الشهداء حمزةَ بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله.!

نظر المعتصم إليه بغضب، ثم قال:

- اخلعوه!

قفز جندي وأمسكه، ثم جاء آخر وأمسك بمنكبه. وجاء ثالث بخشبة فأثبتوه عليها وبدأت السياط تنهال على ظهره.

اختفى صوت الجدل، وتعالى صوت السياط المصحوب بأنين مكبوت، وقف المعتصم، ثم مال على ابن أبي دؤاد وقال:

- إذا لم يجبهم فليخلعوا كتفيه، فهذه المرة الثالثة وقد ضجرتُ منه!

خرج المعتصم من المجلس، وتعالت صيحات من طرف المجلس:

- اضربوه حتى يقر راغما!

- إنه شيخ سوء!

- يفضل رضا الدهماء عنه على رضا أمير المؤمنين!

- يريد أن يجلس في صحن مسجده ببغداد ويقول: غلبتُ أمير المؤمنين!

لكن ابن أبي دؤاد أشار بيده بانزعاج طالبا السكوت.

بدأت قوى الشيخ ابن حنبل تنهار، فتدلى رأسه على صدره، بينما كانت الرياح تعبث بشعره الطويل الذي لم يحلقه منذ دخول السجن قبل عام.

صاح جندي:

- لقد أغمي عليه!

أجابه آخر:

- اطعمه سويقا.

مرت لحظات، ثم فتح عينيه. قرب إليه الجندي السويق، فتمتم والدم يسيل من فيه:

- أليس اليوم من رمضان؟

ثم عاد إلى غيبوبته!

شعر الجاحظ -وهو يستعيد صورة وقع السياط على جسد ابن حنبل- بوخز في أعماق نفسه، جلس بتثاقل وهو يلوم نفسه على مساهمته في التحريض على امتحانه، ثم خطر له أن ما قام به إنما هو لصالح الإسلام والمسلمين، فلو ساد ما يدعو إليه ابن حنبل لتعطل العقل وبطلت الشريعة.

طرد فكرة الندم عن ذهنه، وهو ينظر من نافذة مكتبته إلى الحديقة المرصوصة بأناقة في فناء منزله الفسيح. عاد وجلس وهو يشعر بضيق وخوف، وتذكر نظرات القاضي أحمد بن أبي دؤاد قبل أيام، وحديثه الجافي معه.

فقبل أيام قال له ابن أبي دؤاد:

- انصحْ صاحبك ابن الزيات أن يكف عن تعذيب المسلمين!

- وما أدراك أنه يعذبهم؟

- إن أهل بغداد الآن لا يتحدثون إلا عن ثلاثة: عن شجاعة الخليفة

المعتصم، وكثرة الأتراك في الشوارع، وتنُّورِ ابن الزيات.

- لا تنس قول ابن مروان: الملك شجرةٌ لا تنمو إلا إذا سُقيت بالدم!

- وأين أنت من العدل والتوحيد والأمر بالمعروف؟ أم إن الكلام صناعة حدُّها اللسان، ولا طريق لها إلى الجَنان؟

- أنت القاضي، وصاحب الكلمة المسموعة، كلم أمير المؤمنين ليثنيه عن أفعاله، أما أنا فخادم وصانع كلام، أنت تفعل، وأنا أصف، أنا أتمنى وأنت تستولي، وشتان بين من يملك القدرة على الفعل، ومن يملك القدرة على الوصف.

ثم تذكر كيف وقف ابن أبي دؤاد غاضبا، ناظرا إليه بحنق. وذُكر له بعد ذلك أنه يتهمه بالتسبب في العداوة بينه وبين ابن الزيات.

ثم خطر له أن ابن أبي دؤاد قد يوقع بينه وبين المعتصم. عادت صورة الدم السائل من فم ابن حنبل إلى ذهنه، والسياط الواقعة على ظهره.... مع صدى صرخات بشار بن برد قبل عشرات السنين.

***

كان نفيس منهمكا في تنظيف المجلس فسمع طرقا مزلزلا على الباب. هرع وفتح، فإذا بعشرة جنود على خيولهم. نهره أحدهم:

- أين مولاك؟

- لم يأت منذ أمس ولا أدري أين هو.

- أين مولاك، قلت لك!!

قالها الجندي بصوت جهوري مترع بالتهديد، فقال نفيس بلكنة

هندية وهو يكاد يخرج من جلده خوفا:

- والله أنا ما عارف!

قفز جندي من فوق حصانه ودخل الدار.

فتشوا المنزل غرفة غرفة، ثم التفت أحدهم إلى الآخر وهو يشير للكتب:

- أيش هذا؟

- كله كتب!

نزل الجنود، وقبل خروج أحدهم من الباب التفت إلى نفيس وقال:

- إن عثرتَ لنا على سيدك أعتقناك!

خفض نفيس رأسه، وطافت بذهنه خواطر مختلفة ومتناقضة.

في الوقت ذاته، كان عشرون جنديا يسوقون ابن الزيات في قيوده إلى السجن، دخل السجن وقت المغرب، فُتح الباب، فنظر إليه الجندي الذي فتح الباب، فصرخ رعبا.

ثم استعاد جأشه، ومال على زمليه سائلا:

- أليس هذا ابن الزيات؟

- بلى، لقد غضب عليه أمير المؤمنين المتوكل.

كان ابن الزيات مشغولا بنفسه، حائر الطرف، مشوش الخاطر كأنه مجنون. يستمع إلى أحاديث الجنود لكنه لا يوليها اهتماما لانشغاله بنفسه، يضج ذهنه بآلاف الأخيلة والأسئلة الملحة والاحتمالات والجوابات. التفت يمينا فرأى المساجين في أغلالهم وبؤسهم، وملابسهم المتسخة، وسدّت أنفَه روائحهم الكريهة.

نفس الروائح التي كانت تدخل أنفه كلما جاء هنا للتحقيق مع مساجينه، لكنها اليوم أبشع وأوقع.

هل كان السجناء تعساء لهذه الدرجة؟ رفع عينيه وأنزلهما فرأى قيود الحديد والدماء، والملابس المتسخة والأوجه المرهقة الفزعة، والأسنان الجافة الصفراء، والضحكات المتأرجحة بين العقل والجنون، ضحكات حائرة بين تعاسة العاقل، وسعادة المجنون.

ظل واجما لا يتكلم.

ينظر إلى معصميه وقد أحاطت بهما حِلَقُ الحديد، ثم يرفع بصره إلى ذات الزنازين والبهو، إلى الردهات نفسها التي كان يسلكها ليلا للتحقيق مع مضطهديه، يرى نفس الأوجه التي كان يراها قبل.

اقترب منه قيِّمُ السجن وقال بلهجة متسائلة:

– محمد بن عبد الملك الزيات؟

– نعم!

قالها بصوت ضعيف متوسل.

وكانت أول مرة يخرج صوته هزيلا وضعيفا بين هذه الجدران التي تعرفه.

أشار مسيّر السجن برأسه للجندي أن يتقدم، ثم ولى ويداه وراء ظهره متمتما:

– لا إله إلا الله!

ومرت الأيام على ابن الزيات في السجن غير عجلى ولا راحمة، وكان الجندي الغليظُ المسمى الدنداني موكلا بمراقبته وحراسته والتضييق عليه.

يقضي يومه وليله جالسا على الخشبة ومسامير الحديد تحيط به من كل جانب. شغلته نفسه عن جسده في الأيام الأولى، فكان يهذي متحدثا مع نفسه كالمجنون:

- يا ابن الزيات، ما الذي دعاك لكل هذا؟ أبوك تاجر بغداد الأول، فلمَ تطمح للسلطان والنفوذ؟ ألم تسعك المراكب الفارهة والملابس الفاخرة والجواري الحسان حتى رضيت بمجالسة الخلفاء ومنازعتهم السلطان؟ لمَ لمْ تعتبر بما جرى لبني برمك؟

ثم يفيق على صوت الدنداني قائلا:

- اسكت يا ابن الزيات....

كان يتألم ألما مضاعفا، فحلق الحديد تضغط على قدميه حتى ليخيل إليه أن الإنسان يتنفس من قدميه، ثم تغمزه الكلاليب من كل جانب.

وأثناء أمواج العذاب تلك يستجمع قواه لتجنب النطق بكلمة واحدة...

شعر بالنعاس يلعب بجفونه، ثم خيل إليه وسط أمواج النعاس السود أنه يستطيع فعل كل شيء، يستطيع الخروج من التنور، بل يستطيع النوم على سكك الحديد، بين هذه التهاويم جذبه النعاس، فدخلت حسكة في كتفه فاستيقظ...

حاول أن ينطق تلك الجملة التي نازع نفسه طويلا حتى لا ينطقها، وادخر كل جهده حتى لا يقولها، لكن أمواج النعاس والألم والندم دفعته، فقال بصوت ضعيف:

- ارحموني! ارحموني!

تردد النداء في جنبات السجن، ثم ظهر وجه الدنداني مطلا من حافة التنور:

- الرحمة خورٌ في الطبيعة!

شخصت في خياله صور رجال بأيديهم رماح يغمزونه بها من كل جانب، ثم سمع صرخات معذَّبيه الذين كان يعذبهم:

- ارحمنا يا ابن الزيات! ارحمنا يا ابن الزيات...

مرت ساعات لا يعرف أكان فيها حيا أم ميتا، ثم أفاق ونادى الدنداني، فأطل عليه من حافة التنور:

- ماذا تريد أيها الوزير!

- لي إليك حاجة.

- ما هي

- اكتب هذه الأبيات وابعث بها للمتوكل، فإن عفى عني كنت لك عبدا ما حييت!

بعد تردد، مشى الدنداني في الردهة المظلمة وعاد وبيده دواة وقرطاس. ثم أملى عليه ابن الزيات:

من له عهدٌ بنومٍ؟ يُرشد الصبَّ إليهِ
رحم الله رحيما دَلَّ عينيَّ عليهِ
سهِرتْ عيني ونامتْ عينُ من هُنتُ لديهِ!

***

مرت أسابيع على الجاحظ وهو مختف في منزل قرب باب الطاق عند أحد معارفه البصريين، لا يبرح البيت ليلا ولا نهارا، ولا يفكر

إلا في صورة أحمد بن أبي دؤاد، مرت الأيام الأولى وهو مشدوه الخاطر لشدة فزعه، لكنه بدأ يتعود على الاختفاء، وأصبح إذا جاع يمازح مستضيفه قائلا:

- إنني جائع يا أبا عبد الله، ولا تنس أن الله تعالى امتنَّ بالإطعام من الجوع قبل المن بالأمن من الخوف، فقال: ﴿...الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

حتى إنه بدأ يقرأ ويكتب في الساعات الطويلة التي يقضيها داخل غرفته الضيقة المتوارية في حي الطاق.

كان البيت قريبا من المارستان فأصبح يستمتع بالنظر من الكوة إلى الداخلين والخارجين من المارستان.

قال له مضيفه مرة:

- احذر يا أبا عثمان، فإن في المجانين عقلاء.

- وهل الجنون إلا مقام من مقامات العقل؟

لكنه لم يسمع نصيحة مضيفه، وظل يطل متأملا، وفي أحد الصباحات خيل إليه وهو ينظر باب المارستان أنه رأى علية داخله.

قفز كالملسوع، وأخرج رأسه من النافذة وصاح:

-علية! عريب!

ولم يفق إلا وهو يخرج مسرعا إلى مدخل المارستان.

دخل فناءه فرأى مجانين من كل لون، رأى أسود يقف على رجلٍ واحدة إلى أن تتعب، ثم يراوحها بالأخرى، وبقربه مجنون آخر يصفق له.

سأل عن قيّم المارستان، فأدخله حارس إلى جهة النساء... لكنه لم ير علية.

عاد إلى غرفته وهو يتلفت يمنة ويسرة مؤنبا نفسه، ومتسائلا عن قيمة هذا العقل الذي لا يعود إلا بعد انقضاء لحظة الامتحان، لماذا تطيش العقول وتختفي في اللحظات التي نحتاجها فيها أكثر؟ لمَ يقفز القلب كالفارس المغوار في تلك اللحظة ليقود، فيما يتوارى العقل هزيلا مهزوما جبانا؟

وبعد الهزيمة المنكرة يعود العقل ليلوم ويحسب ويطرح!

إن العقل يشبه العَيِيَّ الذي يُشتم أمام الناس فلا يجد ما يرد به. ثم إذا انقضت اللحظة وعاد إلى بيته وجلس بين أبنائه وخدمه انثالتْ عليه الجملُ والعبارات والجوابات.

كان مستلقيا على ظهره يؤنب نفسه، فسمع طَرْقا مخيفا على الباب!

قفزت زوجة المضيف لتفتح الباب. فجاء صوت جندي:

- قولي له أن يخرج!

- من هو؟

- الجاحظ!

- والله ما في بيتنا إلا محمد!

فقال العسكري بلغة تهديد:

- قولي له أن يخرج، أو سندخل البيت!

لم تكن المرأة تعرف أنها تخفي في بيتها مطلوبا. قال لها زوجها إنه تاجر من أهل خراسان اسمه محمد.

عادت المرأة متلفعة في ملابسها وقالت بتلعثم:

- هناك جنود بالباب....

لا يعرف ما قال، ولا ما قالت. لكنه يذكر جيدا أن ركبتيه كانتا خدِرتيْن... وأن قفص صدره لم يتسع لقلبه الذي كان يقفز كأنه صوفي في حالة وَجْد.

أفاق على نفسه وهو يعبر الجسرَ المنصوب فوق نهر دجلة، والجنود صامتون كأنهم في موكب جنائزي، بينما يمسك اثنان منهم ذراعيه بإحكام، وحلق القيد في رجليه، كان الصوت الوحيد في أذنيه صوت قلبه يدق، وتشاتمٌ بين بائعين على حافة النهر.

مضت اللحظات ثقيلة الوطء، وكان السؤال الملحّ عليه هو كيف سيعاقبه ابن أبي دؤاد؟ ذلك القاضي الذي جعل الخليفةَ خاتما في إصبعه يصرفه كيف يشاء، ثم خطر له أنه سيرمي به في التنور مع ابن الزيات!

فُتح الباب الواسع، ودخل الجاحظ مُلْتاعا خائفا، باذلا كلَّ ما أوتي ليستجمع خواطره ولبّه. ومع تشتت خاطره، فقد لاحظ اتساع المجلس، وكثرةَ الستائر الخراسانية الفاخرة في زواياه. بدا المجلس واسعا مرتفعَ السقف.

وسط المجلس، رأى أحمدَ بن أبي دؤاد جالسا في جبتة الأنيقة وعمامتِه المتوسطة الحجم الناصعةِ البياض. وعن يمينه ويساره بعض معاونيه. تقدم الجنديان ممسكيْن بذراعي الجاحظ، بينما كان صوت القيد يقرع البلاط.

وقف أمام ابن أبي دؤاد، حاسرَ الرأس، ضعيفا كأنه حمامة في قفص

صياد. ساد صمتٌ خانق، حتى سمع كل من في المجلس صوت حمامة تُغرد عند إحدى النوافذ.

اتجهت الأبصار إلى ابن أبي دؤاد، الذي كانت يسرح لحيتَه بأصابعه بهدوء. بعد وقت، اعتدل وقال بحزم:

- اتركوه!

ثم التقتْ عيونهما.

في هذه اللحظة، تذكر ابن أبي دؤاد كلما قال له الوشاة عن الجاحظ، فهو الذي كان يكتب الرسائل المُقنعةَ بطلب من ابن الزيات، حتى يعطيها للواثق حاثاً إياه على تعيين ابنه الرضيع وليا للعهد بدل المتوكل، ويحثه فيها على عزل ابن أبي دؤاد، لكنه ما يلبث أن يشفق عليه متذكرا أدبه وتبحره في العلوم والفنون، وكتبه النافعة القاطعة لدعاوى الشعوبية، والمنافحة عن الاعتزال.

وارى ابنُ أبي دؤاد الصراع الذي يعيشه وقال:

- الحمد لله الذي أمكن منك، يا عدو الله!

شخصت أبصار الحاضرين إلى الجاحظ، فقال بصوت واضح ومخارج قوية:

- والله لأن تُخطئَ في العفو لهو أشرفُ من أن تُصيبَ في العقوبة.

سكت ابن أبي دؤاد، وخطر بباله شرف العفو، وكونه شيمة من شيم الكرام، ثم تذكر قرب الجاحظ من ابن الزيات... مال على وسادته الضخمة وقال:

- هل علمتَ بوفاة صاحبك ابن الزيات في تنُّوره؟

وجم قليلا مُنزلا وجهه إلى الأرض، وصورةُ ابن الزيات متقلبا في ظلمات التنور شاخصة في ذهنه. شعر بخدَر في ركبيته.. ثم غمغم بكلمات.. فجاءه صوت ابن أبي دؤاد:

- ما تأويل قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

- أعز الله القاضي، تأويلها تلاوتها.

- أعلم أنك منافق مجادل!

- والله إناستبقيتَني فلساني وجدالي لك! وذلك خيرٌ من أن تُسكِتَه بضربة سيف، فيكون لا لك ولا عليك!

- ما الذي دعاك إلى الفرار والاختباء؟ أظننتَ أن عيوننا ستعجز عن إخراجك من جحرك؟

- خِفتُ أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور!

- والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة كفوراً بها.

- والله لأن يكون الأمر لكَ عليَّ خير من أن يكون لي عليك. ولأن أُسيءَ وتُحسنَ خيرٌ من أن أُحسنَ وتُسيء، ولأنْ تعفوَّ عني في حال قدرتكَ أجملُ من الانتقام مني!

- قبحك الله، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام.

ثم التفت ابن أبي دؤاد إلى معاونيه:

- تعالوا بالحَدّاد!

انتابت الجاحظ موجة شعور بالأمل واليأس، متسائلا هل سيأتي الحداد ليفك القيد أم ليضيف قيودا أخرى؟ بقي لحظات معلقا بين

الأمل واليأس، بين خفة الحرية وثقل السجن، ولم يستطع الصبر فقال بتظارف مصطنع، وقلبه يرجف:

- أعز الله القاضي! الحداد.. ليفك عني.. أم ليزيدني؟

- بل ليفك عنك.

ثم دخل رجل بدينٌ أصلع بيده حديد، واقترب وجلس عند ساقي الجاحظ. لكنه ما كاد يبدأ في فك القيد حتى غمزه ابن أبي دؤاد أن يطيل الفك، ويغرز الحديد في ساقه حتى يستثيره.

وعند أول غمزة لساقه لطمه الجاحظ، قائلا:

- ويلك! اعملْ عملَ شهر في يوم، وعملَ يوم في ساعة، وعملَ ساعة في لحظة، فإن الألمَ بساقي وليس بجذع نخلة، ولا بحائط.

ضج المجلس ضحكا، ثم قال ابن أبي دؤاد وفي صوته بقية ضحك:

- إني أثق بظرفك ولا أثق بدينك! عفونا عنك وسنزين مجلسنا بأحاديثك يا أبا عثمان.

طلب الجاحظ من ابن أبي دؤاد أن يرسل معه من يوصله إلى بيته.

في الطريق، بدأ يتذكر أن بيته قد يكون من الأموال التي صادرها المتوكل، فقد صادر كل مال ابن الزيات، فما الذي يمنعه من مصادرة بيت الجاحظ. ثم أين الخادم نفيس؟ وهل هرب من ربقة الرق؟ أم أخِذ فيما صودر؟

تزاحمت خواطر كثيفة في ذهنه وهو يقف أمام بيته.

دخل، فتلقاه نفيس يركض وماء السعادة يتهاطل من عينيه. ولم يفق الجاحظ إلا وهو يحتضنه ودموعه تسيل مدرارا. ثم ارتخت يداه

وابتعد عن نفيس متسائلا هل أخذت الحياة منه كل شيء، حتى إنه لم يجد من يحتضنه لحظة عودته إلا خادما هنديا!

تذكر أمه، فرأى نفسه طفلا غريرا يركض قادما من الكُتاب. ثم شخصت آخر صورة لها أمام عينيه وهي تجود بنفسها في بيتٍ وسِخٍ مهمل بحي بني كنانة في البصرة.

أجال بصره في المنزل الفسيح والحديقة الواسعة، وتمنى لو عاشت حتى تستمتع بالثراء معه. فما قيمة ترف لا يشاركك فيه أحباؤك؟

ثم أطلت صورة تماضر باسمة وجميلة كأنها أملٌ هارب، ثم تخيلها تستقبله عند مدخل البيت لتضمه وتُفدّيه... لكن علية كانت تنظر إليه بانزعاج، بقدّها الجميل متلففة في ملاءتها البيضاء دوما.

رفع عينيه إلى الحديقة فلاحظ للمرة الأولى أن البيت أوسع مما ينبغي. حتى كأنه اتسع بعده وامتد، وتصاعد صوت الريح داخله.

ثم جاءه صوت نفيس:

- سيدي، هذه رسالة لك.

فتح الرسالة وبدأ يقرأ، وكلما قرأ غامت الأحرف أمامه.

«سيدي،

لقد أرسل أخي الملك جواسيس وخطفوني من بغداد، وأنا الآن أعيش معهم في قصر والدي. لكني سجينة، فأنا لا أعرف لغتهم ولا أفهم عاداتهم، أنا أشبههم في جسدي وسحنتي فقط. أحن إليك وإلى مراتع الصبا وإلى أهل بغداد.... سقاك الله وسقى أيامك، ولن آلو جهدا في العودة، والسلام».

مكتبة

وفي نهاية الرسالة، وضعت كلمة كأنها تذكرتها بعد كتابة الرسالة. كانت عبارة واحدة لكنها كانت أوقع على قلبه من الرسالة كلها. كتبت:

«لا أنسى يوم الطاق».

استنفدتْ العبارة الأخيرة كل قواه. جلس واضعا يديه على رأسه. فتلك العبارة الأخيرة التائهة كانت أكثر وقعا من كل ذكرى.

وما يوم الطاق؟ لم يكن إلا يوما خرجا فيه وجلسا على حافة دجلة، وقضيا يومهما كاملا هناك، كانت تغنّي وكان يستمع ويقرأ ويكتب. لكن الذاكرة مولعة بتقديس لحظات ونسيان أخرى دون سبب مفهوم. فقد تخزن الذاكرة موقفا عاديا لتبني منه عالما من الخيال الجميل، وإن لم يكن بذلك الجمال. قد يمر بالإنسان يوم يشعر فيه بالتعاسة، لكنه إذا مر وانقضى تزخرفه الذاكرة جاعلة منه يوما لا كالأيام.

ظل جالسا واضعا يده على رأسه، ثم فاضت ذاكرته رنةَ عودٍ، وعشبا أخضر، ولحظات أنسٍ جفْلى... وانحدرتْ على خده دمعة شاردة.

دمعة عجوز عاشق.. ويتيم!

* * *

وقع ذلك الحادث المزلزل قبل فترة.

فتح عينيْه فرأى جماعة فيهم ماسرجويه الطبيب يحيطون به وهو ممدد على فراشه في غرفة كتبه، فتح عينه فلم يحس بأي ألم، همّ بالجلوس باندهاش، لكنه فوجئ بأنه لا يملك سلطانا على شقه الأيسر.

نظر إلى ماسرجويه الطبيب وهو يجس نبضه، ثم جاءه صوته:

- إنه الفالج.

ساد صمت.

ثم همس ابن أبي دؤاد:

- وما العمل؟

وجم الجميع، فيما كانت نظرات الجاحظ المتوسلة تقفز بين وجهيهما. وهبت رياح قادمة من جهة الحديقة تحمل أنساما، ورائحة عشب مبلل.

حملق في وجهيهما كأنه طفل عاجز، كان الشيب قد غطى كل شعرة في جسمه، لكن الدموع التي كانت تتحدر من أطراف عينيه الذاويتين دموعُ شوق إلى أشياء كثيرة. شوق إلى جاريته التي طارت من بين يديه، وشوق إلى نيل الأمنيات التي يضطرب بها قلبه الكبير، وشوق إلى العافية، وشوق إلى أشياء وعوالم تضيق اللغة عن قنصها في أحرف ميتة.

رددوا أبصارهم فرأوه يداري دموعه.

فلا يضاهي فداحةَ ابيضاضِ رأس الطفل شيباً من الهموم، إلا انهمار الدموع من عيني عجوز مشتاق.

ومضت أشهر لا يرى فيها إلا قليلا من الزوار. فلا يكاد يرى إلا الخادم نفيس، الذي بدأ يكثر الصلاة والاستشهاد بالقرآن والأحاديث، كما بدأ زوّاره من العبيد يكثرون، أو بنت أخته مريم التي جاءته من البصرة للاعتناء به.

تعود سريعا على حياته الجديدة. فقد قرر أن يعيش داخل غرفة كتبه لا يبرحها. وصارت جملته التي يرددها:

- أنا دفين الكتب!

نُصب له سرير مرتفع، ووضعت له مخدات تحت قدميه، تحيط به

الكتب من كل جانب. وعن يمينه دفاتره التي يكتب فيها بياضَ النهار وسوادَ الليل.

تتولى مريم خدمته في ما لا بد منه، أما نفيس فيتولى طعامه وشرابه.

مرت أشهر لا يزوره فيها إلا العُوّاد، ثم بدأ الناس في بغداد يتناقلون متعة مجالسته حتى مع مرضه، ثم كثر زواره حتى اشترط ألا يزوره أحد إلا بين العصر والمغرب، تنوع زواره ما بين الوزراء والكتاب والمتأدبين، وحتى الشباب العشاق الذين يريدون الاستشارة في شؤون الحب.

كان مستلقيا ناظرا إلى السقف، بعد أن كتب فصلا كاملا من «البيان والتبيين». فجاءه صوت بنت أخته:

- هل تريد شيئا، فأنا سأخرج قليلا.

- لا عليك يا ابنتي.

قالها ولم ينظر صوبها، فذهنه مشغول بما دار بينه وبين الشاب الذي زاره أمس. تذكر وجهه المتورد وعينيه الناظرتين إلى الأسفل دائما.

دخل عليه وهو مستلق، فبادره:

- ماذا تريد يا فتى؟

- أريد أن أسألك في أمر أهمني.

- ادخل

جلس الشاب وأدار بصره في رفوف الكتب، ثم نظر إلى الجسد النحيل الصريع، فندم لحظة على قدومه، ثم جاءه صوت الجاحظ:

- هل أنت عاشق؟

تمتم الفتى، فكأنه أخذه على غرة، ولم تتضح الكلمات التي نطق بها.

فقال الجاحظ بتثاقل:

- إيييه!

- نعم

- هل تعرف الفرق بين المحب والعاشق؟

- وما الفرق بين المقامين؟

- اسمع يا ابن أخي. إن العشق اسمٌ لما زاد عن الحب، كما أن الإسراف اسم لما زاد عن الجود، والبخل اسم لما نقص عن درجة الاقتصاد. فهل أنت محب أم عاشق؟

- أنا عاشق إذن، لكن والدي يعنفني لذا جئتك.

- اعشق يا بني ولا تلتفت لوالدك، فالعشق من أهم أسباب الخير في هذه الدنيا، كما أن البغض من أعظم أسباب الشر في هذا العالم.

- كيف؟

- إن العشق أصدق تعبير في النفس البشرية. ألا ترى أن الرجل قد يصل الحد الأقصى من الغضب ثم إذا تمكن من عدوه عفا عنه لرجائه أن يوصف بالنبل والحلم، وكذلك الإنسان مهما بلغ من حب المال فإنه قد يمنحه لغيره ويخرج من كل ماله، لكن العاشق لا يظفر بمعشوقه ثم يتنازل عنه أو تسخو نفسه بأن يتركه لوالد أو ولد.

- لكننا أيضا نحب والدينا حبا متناهيا!

- رغم حبنا لأهلينا ووالدينا وأبنائنا إلا أننا لم نر قط من مات عشقا

لوالديه، والدنيا لا تخلو ممن مات عشقا!

- لكن، ما الذي يجعل العشق بابا من أبواب الخير؟

- ما دام العشق أصيلا في الفطرة البشرية أكثر من غيره، فذاك يعني أنه خير لاندراجه في قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ﴾. فهو أكثر صفة التصاقا بالنفس البشرية.

- لكنهم علمونا أن المرأة شر كلها!

انتفض الجاحظ، فرفع ساقه السليمة عن الوسادة، ورفع يده اليمنى، ودارت بذهنه آلاف الصور. ثم قال نصف ساخر:

- ومن قال ذلك يا بني؟ لا تلتف لكلام الحشوة فكلامهم على قدر عقولهم.

ثم سكت قليلا، وشخصت في ذهنه تماضر، فقال:

- إن المرأة كلها خير. فكل ما يسعى له الرجال من مجد وسؤدد وتجمل إنما ينتهي للمرأة، ولولا المرأة ما تجمل رجل ولا تعطر، ولا تنظف ولا تجمّر. أما هي فتتجمل وتتعطر فطرة فطرها الله عليها، ترى ذلك في خلقة البنت الصغيرة التي لم يدر بخلدها الميل إلى الرجال.

برقت عينا الشاب، وخفّ الخجل الذي كان يعقد لسانه فقال:

- لكن الرجل أرفع قدرا عند الناس!

- دعك من هذا. إن المرأة فوق الرجل بأمور. فهي التي تُخطَب وتُعشق وتُفدّى وتُحمى! ثم إن الرجل العاقل يُستحلَف بالأيمان

المغلظة؛ من مشي إلى البيت الحرام ومن عتقٍ لرقيقه وخروج من ماله، فلا يجد حرجا في ذلك. لكنك ما إن تستحلفه بالطلاق حتى يتربد وجهه وتنتفخ أوداجه ويتحرج من ذلك، وإن كانت زوجه قبيحة المنظر، سيئة المخبر خفيفة المهر رقيقة النسب، فدل هذا على أن المرأة أمكن من الرجل!

شعر الشاب بخفة وانبساط فصاح:

- إي والله!

- وهنا باب آخر يا ولدي. وهو أن الرجل والمرأة إذا جلسا وبينهما تعاشق، وكانا من أبلد خلق الله فإن ما يأتي من أطايب الحديث وتفانين الغزل بينهما يكون أرق من شعر عمر بن أبي ربيعة. فإن الغزل رقيق بطبيعته حتى ولو كان بين رجل عيي وفتاة بليدة، فأي كلام يخرج مخرج الغزل يرقّ ويسمو ويحلو.

قال الشاب وهو يرفع بصره في رفوف الكتب:

- إذا كان هذا هو موقع المرأة في هذه الدنيا وفي نفوس الرجال، فلم لا يصرحون بهذا؟

- إنهم يتسترون على الأمر ويدارونه لعلمهم أنهم لا يريدون شيئا في الدنيا إلا لهن. فأنت لو خرجتَ الآن إلى الشارع وخيّرتَ أيَّ رجل تلقاه بين أن يعيش طيلة حياته فقيرا مُمكَّناً من التمتع بالنساء، وبين أن يعيش طيلة حياته غنيا محروما من التمتع بهن، لما تردد لحظة في اختيار الفقر.

- أنا أعشق بنت عمي، وعمها لا يمكنني من رؤيتها.

رفع الجاحظ رجله السليمة، وانفجر هادرا كأنه جمل هائج:

- الجارية أفضل يا بني، ولا خير في الحرائر، فالجارية تراها قبل أن تملكها فتعرف محاسن جسمها ومحاسن روحها، وتهجم منها على ما يسرك ويسوؤك فتُقدِم على ابتياعها وأنت عارف بمكنوناتها، أما الحرة فصفقةُ غَرَر! فأنت لا تعرف عنها شيئا إلا بعد أن تتزوجها فتكون كالمغبون.

- لكن أمي وصفتها لي.

التفت جهة الشاب، ثم سال ريق، مسحه بمنديل، ويده ترتعد وهو يقول:

- إن النساء لا يعرفن ما يعجب الرجال في النساء. فالمرأة لا تعرف من المرأة إلا الصفةَ الظاهرة، أما الخصائص التي تُعجب الرجل فلا تنتبه لها، بل تأتيك إحداهن وتقول: كأن أنفها سيف، وكأن ساقها جُمَّارَة، وكأن شعرها العناقيد، وهذا لا فائدة منه، فهي لا تدرك ما يريد الرجل.

كان الجاحظ غارقا في استعادة حواره مع الشاب العاشق الذي زاره، فأفاق على صوت نفيس يقول:

- سيدي، لقد حان وقت طعامك.

كأن استعادة حديثه مع الشاب قد فتحت له بابا من التفكير، فضج خياله بصور تماضر وعلية، وتذكر كل ما سمعه من انتقاص للجواري والنساء عامة، ثم تذكر حواراته في ليل البصرة مع أترابه عن النساء.

شعر بعدم الرغبة في الطعام، وانتابته موجة صبابة وشوق إلى علية،

التفت إلى نفيس وقال بصوت حزين:

- أخرْ الطعامَ حتى أدعوك.

ثم مال على شقه السليم، وأمسك قلمه وكتب: «رسالة في مدح النساء».

* * *

كاد الرجل الأسمر النحيل يطير فرحا، وهو يستمع للجاحظ ويتأمله. فمنذ اشترى رسائله قبل سنوات من وراق بمدينة منبج بالشام، وهو يتمنى لقاءه.

جلس في طرف الغرفة، ومال على الجاحظ ليقبل جبينه وقال:

- السلام على أبي عثمان ورحمة الله!

رفع عينيه متأملا الرجل الأسمر الذي يراه أول مرة، وتمتم:

- من أنت أيها الزائر؟

- أنا أبو عبادة، البحتري الشاعر.

انفرجت أساريره، وقال:

- يا أهلا وسهلا. لقد سمعت كثيرا من شعرك وأعجبني.

- شكر الله لكم أبا عثمان، والله إن هذا ليزيد شعري في عيني.

دارت عدة مقطوعات بذهن الجاحظ من شعر البحتري، لكن الأبيات التي قالها في وصف مقتل المتوكل كادت تقفز على شفتيه. فبادره البحتري:

- كيف صحتك يا أبا عثمان؟

- هي كما ترى، تسر العدوَّ وتبكي الصديق.

- لا بأس إن شاء الله!

رفع وجهه إلى السقف، وأعاده متفرسا وجه البحتري وعمامته الخضراء، والسرور يبرق في عينيه فقال:

- لقد قلتُ لبعض الأصحاب إنك وأبا تمام أشعر أهل زماننا؛ غير أني سمعت أحدهم ذكر لك قصيدة في وصف إيوان كسرى.

- إي، نعم.

- كسرى! أما عندك شعر في محامد قيس بن زهير أو الأحنف بن قيس؟!

خيم الصمت وشعر البحتري بالضيق، وجعل يمسح لحيته بهدوء، مذكرا نفسه بأن الجاحظ طعن في السن، ولا تؤخذ دلالات كلامه كلها. وخطر له أنه ربما لو سمع القصيدة لأعجبته، فوضع يده على يد الجاحظ وقال:

- هل لك أن تسمع مني بعضها حتى تحكم يا أبا عثمان؟

لم يجبه، وتذكر الجاحظ أن البحتري كان حاضرا لحظة مقتل الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان، فأحب أن يسمع منه القصة كما وقعت. سكت قليلا وقال:

- أبا عبادة، علمتُ أنك كنت حاضرا قتل علوج الأتراك للمتوكل، فهلا رويت لي الأمر حتى أحققه منك؟

وجم البحتري قليلا وهو ينظر إلى أرض الغرفة المفروشة بالسجاد الفاخر، جعل ينكت السجاد بإصبعه واجما، متذكرا تأليف الجاحظ لكتاب في مدح الجنود الأتراك، أعاد نظره للجاحظ، الذي بدا في عينيه

هيكلا عظميا مدفونا منذ آلاف السنوات. تأمل جسمه النحيل الذي لا يكاد يتحرك منه إلا تينك العينين الحادتين اللتين تخترقانه انتظارا للحديث.

طال صمت البحتري، وطالت نظرات الجاحظ إليه، فهو لا يضيق بشيء ضيقه باستعادة تلك اللحظة التي قتل فيها المتوكل أمامه.

رفع رأسه متنهدا، وخياله شارد إلى تلك الليلة التي لم تشهد العراق مثلها من قبل. ليلة قُتل خليفة المسلمين بممالأة بين الجنود الأتراك وابنه المنتصر.

كان المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان والبحتري جالسين في بهو واسع بقصر الجعفري بحي القاطول، تحيط بهم أربعة مصابيح كبيرة مثبتة في زوايا البهو الواسع. كان المتوكل مستندا إلى وسادة ضخمة، وبين يديه أشربة وكتب وبخور.

بدا المتوكل مسرورا مقبلا على الحديث والاستزادة من إنشاد الشعر وقصص أيام العرب. وكان الفتح بن خاقان -وزيره الأديب- لا يدخر نادرة إلا رواها، ولا ملحة إلا حكاها. أما البحتري فظل يراوح بين إنشاد الشعر ورواية الحكايات.

في أثناء ذلك، كان القائد التركي بُغا يغلق أبواب القصر دون أن يشعر به أحد، ترك بابا واحدا يسمى باب الشط مُشرَعاً ليدخل منه مع مجموعة من الجنود الملثمين.

وبينما المتوكل يرمق الفتح منصتا له، إذ سمعا قرع نعال الجنود وقعقعة السيوف، وصوت أحد الحاشية من بعيد يقول:

- ما هذا يا سفل!

وقف المتوكل مذعورا، فرأى قائدَه بغا، فصاح به:

- ما هذا يا بغا؟

ارتبك بغا عندما رأى المتوكل أمامه، فتلعثم:

- هؤلاء رجال النَّوْبة الذين يبيتون يحرسون باب سيدي أمير المؤمنين.

لاحظ الجنود تلعثم بغا، فتدافعوا راجعين. لكن بغا استعاد تماسكه وصاح بهم:

- يا سفل، أنتم مقتولون لا محالة، فارجعوا وموتوا كراما.

عندها، رجع الجنود وقفز جندي تركي اسمه بغلون وضرب المتوكل بالسيف على كتفه، ثم أرجعه إليه فطارت أذنه.

صاح الفتح بن خاقان:

- ويلكم، أمير المؤمنين!

فقال بغا:

- يا حلقي، ألا تسكت!

قفز الفتح ورمى بجسمه فوق المتوكل ليحميه، فبجعوه بسيوفهم، وقام بغا حتى غرز طرف السيف في بطن كل واحد منهما، سالت دماؤهما حتى لطخت كتبا كانت في طرف المجلس.

وسُمعت صيحات وبكاء من جهة بيوت النساء في أطراف القصر.

أنهى البحتري الحديث، وجعل يفرك يديه صامتا. سأله الجاحظ دون أن يلتفت إليه:

- وكيف نجوتَ أنت؟

- علمتُ أن جهدي لن ينفع، فعندما بدأ الجنود في القتل ابتعدت ووجدت لي مختبأً. وكنت أردد في ذهني قول الفارس الحارث بن هشام حين فر من المعركة يوم بدر:

وعلمتُ أني إنْ أقاتِل واحداً
أُقتلْ، ولا يضررْ عدويَّ مَشهَدي

وسكت البحتري، وشعر بضيق وهو يَلمح في وجه الجاحظ سخرية مشوبة بحزن. وتساءل في نفسه كيف كان سيتصرف الجاحظ لو شهد القتل.

وبعد صمت ثقيل، مال الجاحظ على شقه السليم وقال متنهدا:

- أنشدني القصيدة التي قلت في رثاء المتوكل وذكر هذه الليلة الليلاء.

غيّر البحتري جلسته وقال مرتبكا:

مَحَلٌّ على «القَاطُولِ» أَخْلَقَ دائِرُهْ
وعَادَتْ صُرُوفُ الدَّهرِ جَيْشاً تُغَاوِرُهْ
كأَنَّ الصَّبَا تُوفِي نُذُوراً إذا انْبَرَتْ
تُرَاوِحُهُ أذيالُها وتُبَاكِرُهْ
ورُبَّ زمانٍ ناعِمٍ ثَمَّ عَهْدُهُ
تَرِقُّ حَواشِيهِ، ويُونِقُ ناضِرُهْ
تَغَيَّرَ حُسْنُ الجَعْفَرِيِّ، وأُنْسُهُ
وقُوِّضَ بَادي الجَعْفَرِيِّ، وحَاضِرُهْ

تَحَمَّلَ عنه ساكِنوهُ فُجَاءَةً
فعادَتْ سَواءً دُورُهُ ومَقابِرُهْ
إذا نحنُ زُرناهُ أَجَدَّ لَنا الأسَى
وقد كان قبلَ اليومِ يَبْهَجُ زائِرُهْ

برقت عينا الجاحظ طربا، وأشار للبحتري بالتوقف، وقال:

- من حق الأدب عليّ ألا أسمع هذا الشعر وأنا مستلق، نادِ نفيسا ليجلسني.

شعر البحتري بغبطة عارمة وقال:

- لا عليك يا أبا عثمان.

فصاح الجاحظ بأعلى صوته:

- نفيس! أجلسني يا نفيس!

جاء نفيس يركض، وأمسك بمنكبيْ الجاحظ، وأجلسه. ثم وضع وسائد بين كتفيه والجدار. اعتدل وهو يمسح لعابا سائلا بطرف ثوبه:

- أما الآن فأنشد يا أبا عبادة!

نظر البحتري إلى الأرض كأنه يتذكر من أين يعاود الإنشاد:

ولم أنسَ وَحْشَ القصرِ إذْ رِيعَ سِرْبُه
وإذْ ذُعِرَتْ أطلاؤُهُ وجَآذِرُهْ
وإذْ صِيحَ فيه بِالرَّحِيلِ فَهُتِّكَتْ
على عَجَلٍ، أستارُهُ وسَتَائِرُهْ
ووَحْشَتَهُ، حتى كأَنْ لم يُقِمْ به
أَنِيسٌ، ولم تَحْسُنْ لِعَيْنٍ مَناظِرُهْ

كأَنْ لم تَبِـتْ فيـه الخلافـةُ طَلْقَـةً

بَشَاشَـتُها، والمُلْـكُ يُـشْرِقُ زَاهِـرُهْ

ولم تَجْمَـعِ الدنْيـا إليـهِ بـهـاءَهـا

وبَهْجَتَهـا، والعَيْشُ غَـضٌّ مَكَاسِرُهْ

- أمسك يا أبا عبادة، يا الله!

رفع الجاحظ يده النحيلة الشاحبة بهدوء وهي تختلج. وضعها على جبهته وردّد بصوت مليء بالعبرة والحسرات:

كأَنْ لم تَبِـتْ فيـه الخلافـةُ طَلْقَـةً

بَشَاشَـتُها، والمُلْـكُ يُـشْرِقُ زَاهِـرُهْ

- لله أبوك يا أبا عبادة، إيه!

صَرِيعٌ تَقَاضَاهُ السُّـيُوفُ حُشَاشَـةً

يَجُـودُ بِهـا والمـوتُ حُمْـرٌ أظَافِـرُهْ

أُدَافِـعُ عنـهُ بِاليَدَيْـنِ، ولم يَكُـنْ

لِيَثْنـيِ الأعَادِيِ أَعْزَلُ اللّيْلِ حَاسِرُهْ

ولو كان سَيْفِي سَاعةَ القَتْلِ في يَدِي

دَرَى القَاتِلُ العَجْلانُ كيف أُسَاوِرُهْ

حَـرَامٌ عَلَيَّ الـرَّاحُ بَعْـدَكَ، أو أَرَى

دَمَـاً بِـدَمٍ يَجْرِي عـلى الأرضِ مَائِرُهْ

وهـل أَرتَجِي أَنْ يَطْلُـبَ الدَّمَ وَاتِرٌ،

يَـدَ الدَّهـرِ؛ والمَوْتُورُ بِالـدَّمِ وَاتِرُهْ؟

أكانَ وَلِيُّ العَهـدِ أَضْمَـرَ غَـدْرَةً؟

فَمِـنْ عَجَـبٍ أنْ وُلِّيَ العَهْـدَ غَادِرُهْ

فَلا مُـلِّيَ البَاقِي تُـراثَ الذي مَضى
ولا حَمَلَـتْ ذَاكَ الدُّعَـاءَ مَنَابِـرُهْ

لَنِعْـمَ الـدَّمُ المَسْـفُوحُ لَيْلَـةَ جَعْفَـرٍ
هَرَقْتُمْ وجُنْـحُ اللَّيْلِ سُـودٌ دَيَاجِرُهْ

رفع الجاحظ يده ووضعها على رأسه وهو يقول:

- يا الله! لله درك يا أبا عبادة.

وضع يده عن رأسه ونظر في عينيْ البحتري وأنشد:

أُدَافِـعُ عنـهُ بِاليَدَيْـنِ، ولم يَكُـنْ
لِيَثْنـي الأعَادِيِ أَعْزَلُ اللَّيْلِ حَاسِرُهْ

وسكت، وشَعَر البحتريُّ بضيق، فقد فهم أن الجاحظ توقف عند البيت مشككا في تصور البحتري لنفسه فارسا مدافعا عن المتوكل، وهو يعلم أنه اختبأ كما أخبره.

وخيّم صمت، لم يقطعه إلا صوت أذان من بعيد آتٍ من نافذة الغرفة. حرك الجاحظ فكه السفلي، فظهر دَرَدُه بوضوح وهو يقول:

- أحسنت، هذا والله الشعر. جزيت خيرا على أن غسلتَ أذني من شيء سمعته أمس من أحد الأدعياء، جاءني هنا وأنشدني ما زعم أنه شعر، فزاد علتي، ولم أنم البارحة غيظا منه، ولولا أن أُدْخِلَ في الحُكم بعضَ الفَتْكِ لقضيتُ بأن ذريته لا يخرج منها شاعر أبدا.

- قاتله الله، هذا أجرأ من خاصي الأسد! كيف يعرض رديء الشعر على أبي عثمان!

وشعر البحتري بأنه تجاوز اللحظة الحرجة التي كان يخشى فيها أن يُغلظ له أبو عثمان القول.

وتذكر الجاحظ أن نفيسا لم يأت بأي شراب للزائر، فقال:

- أنتم تزورون لعابا سائلا وشِقا مائلا! هذا الخادم لم يسقكم!

- والله لقد شربنا أفضل شراب وأكلنا ألذ طعام بمحادثتكم.

حرك الجاحظ كتفه فتحركت الوسادة المثبتة بينه وبين الجدار، وكأنه يسترخي. وعجّ خياله بصورة صديقه الوزير الفتح بن خاقان وهو صريع مضرج بدمائه. وتذكر نبله والأشعار التي يحفظها، وأدبه وكياسته. وتخيل الجنود الأتراك الأميين يركلونه بأرجلهم، وهو يموت ميتة الأكارم فاديا الخليفة بنفسه. ظللته سحابة حزن، فقلل الحديث، وشعر البحتري بأن الجاحظ يريد أن يخلو بنفسه. سكتا برهة، ثم قال البحتري:

- أستأذن يا أبا عثمان.

ورفع الجاحظ جفنيه، موافقا:

- حفظك الله أبا عبادة.

ونزل البحتري متدحرجا من الدرج بخفة، وقبل أن يصل إلى الباب كان نفيس يركض ليستأذن لرسول من الخليفة.

خرج البحتري مرخيا طرف عمامته على وجهه، ودخل رسول أمير المؤمنين.

جلس عند رأس الجاحظ، ومال عليه:

- لقد عرفنا كيف خُطفت جاريتكم!

تحول الجسد النحيل المُعاق إلى كتلة من الحيوية، والدم المتدفق. كانت يد الجاحظ في الطريق إلى فمه لمسح لعابه، فوقفت حائرة في الهواء بين فمه وركبته ثم هوت على ركبته. أدار عينيه في وجه الرسول، وتحول شابا مُولَّها:

- كيف؟

- لقد أمسكنا غلاما كان يتجسس، وعلمنا منه كيف جاء فرسانٌ متنكرون في زي تجار. وكيف دلهم على بيتك فجاءوا وأخذوا الجارية.

قفز سؤال حارق إلى ذهنه، لكنه تردد في النطق به خوفا من نتيجته. ثم غلبته نفسه فقال:

- هل وافقتهم علية على الخروج أم أرهبوها؟

- لا.. لا، قال الغلام إنهم أخذوها مكرهة، وزعم الجاسوس أنها بنت ملك من ملوكهم ظل يبحث عنها طيلة حياته، وأن أخاه خلفه في البحث عنها. وزعم أنها بنت ملك من ملوك شمال الأندلس!

- نعم، لقد أخبرتني بذلك.

لاحظ الرسول أن الجاحظ كفَتَ رجلَه السليمة بسهولة دون جهد منه، وأن جسده النحيل يزداد تعرقا، كما لاحظ انتعاشا في حركة عينيه الذاويتين، ثم لاحظ أنه يجاهد نفسه حتى لا يتكلم. فالنظرات التائهة تقفز، وجانب شفته السفلى يتحرك حركة دائبة.

مرت ثوان، فوقف الرسول مودعا. خرج من غرفة الكتب، ونزل

من الدرج. وما إن وصل إلى الباب حتى سمع صوت نفيس:

- سيدي يدعوك للرجوع إليه.

جلس الرسول بهدوء، فقال الجاحظ وفي صوته رعدة:

- أريد أن تُجهزَ لي راحلة ورفقة لأعود للبصرة.

مع إشراقة الشمس على جسر دجلة، كان الجاحظ مستندا على وسائدَ في مقدمة سفينة يحيط به نفيس وبنت أخته مريم ومجموعة من الجنود.

دفع جنديٌ السفينةَ عن حافة اليابسة، بينما كانت أذن الجاحظ اللقاطة تنصت لجاريةٍ تغسل ثوبا على طرف النهر وهي تغني:

صفـا العيشُ في بغـدادَ واخْضَرَّ عودُهُ
وعيشٌ سـواها غيرُ خَفْضٍ ولا غضِّ!
تطـولُ بهـا الأعـمارُ؛ إنَّ غِذاءَهـا
مَريءٌ، وبعضُ الأرضِ أمْرَأُ من بعضِ!

أمرَّ يدَه على خده المُتغضنِ ومسح دمعةً شاردة. وتأمّل الجارية بطرف عينيه وهي تفرك الثوبَ الذي بين يديها وتواصل الغناء.

* * *

الدوحة، 1440 هـ

صب شقيقُ حصة فنجان قهوة آخر للقروي، فرشفه رشفةً واحدة لانشغال ذهنه بالاستماع إلى صديقه الذي بدأ الحديث:

- بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبيه الكريم. الحمد لله الذي أحلَّ النكاحَ وحرَّمَ السفاحَ، وجعل المصاهرة نسبا موصولا، ورحما مُعلَّقة.

واصل الرجل حديثه بلغة فيها من الفصاحة قدرَ ما فيها من التكلف والسجع. فجعل أهل المنزل يحدجونه بعيونهم، وراح آخرون يتلفتون ويتثاءبون.

وبعد دقائق، وصل المتحدث إلى قوله: أما بعد..

فحرك طرف عمامته ومسح فاه وقال:

- أما بعد، فقد جئنا لنتشرف بمصاهرتكم، فمحمد شاب من أفضل الشباب علما وفهما وأخلاقا، ثم هو ذو حسب ونسب في قومه، فهو من إحدى القبائل الحميرية ذاتِ الصولة بالقلم والسيف، وهو الفحل لا يُجدَعُ أنفُهُ...

دوتْ ضحكةُ طفل كان في طرف المجلس، وولّى هاربا.

ساد صمت، ثم استعاد الرجل اتزانه وشدّ عليه طرف دراعته

المزركشة وواصل:

- فهو الفحل لا يُجدَعُ أنفُه، ولا تضيعُ عنده الحُرُم.

ثم خفض نبرته وصلى وسلم على النبي، وسكت.

خيّم صمت مطبق في انتظار ما يقوله والد الفتاة الذي بدا غير متعجل. بل تشاغل بنفض نقطة سوداء بادية على طرف قميصه الناصع البياض، ثم رفع رأسه وقال وصوته يكاد لا يسمع:

- نشكر لكم الحضور وحسن الظن. لكننا نرى أن ليس للأخ محمد نصيب في هذا الزواج، ولعل الله ادخر له الأفضل.

كان القروي ينظر إلى أبي حصة نظرا متواصلا بتركيز حتى كأنه لا يحرك حدقتيه، فلما انتهى من الكلام قال له بلغة لا مبالية، وهو ينظر إلى باب المجلس:

- هل يمكنني السؤال عن سبب الرفض؟

شعر الأب بغرابة السؤال، معتبرا إياه جرأة وصفاقة، فقال:

- لا يهمك!

- كيف لا يهمني؟ إذا لم يكن يهمني فمن يهم؟

- لا يهمك معرفة السبب، المهم أننا رافضون وأكثر.

وسكت القروي قليلا وهو يتلمظ.

وساد جو كثيف حتى كأن الهواء انحبس، ولم يبق إلا صوت المكيف الهادر في طرف المجلس. أدار القروي عينيه في السقف وقال:

- أنا لا أرى وجها لرفضكم. فإن كنتم تنطلقون من تقاليد العصر الذي نعيش فيه، فأنا وإياها اتفقنا على الزواج، وكلانا يعمل في

نفس المؤسسة ولا سبب للرفض.

- طيب؟

- وإن كنتم تنطلقون من عادات البدو، فنحن وإياكم منحدرون من قبائل عربية بدوية.

- طيب؟

- والفرق الوحيد بيننا وبينكم أننا بدو متعلمون، وأنتم بدوٌ كانت لكم اهتمامات أخرى..!

وقف والد حصة دفعةً واحدة كأن كهرباء لسعته، فوقف الجميع بوقوفه. وتوقف الزمن للحظات.

بدا المجلس المستطيلُ ساحةَ حرب بين قبيلتيْن من قبائل العرب قبل آلاف السنين. صفان متقاربان للنِّزال، رماحٌ مشرعةٌ وسيوف تبرق، ولم يبق إلا أن تنطلق حناجر النساء بالزغاريد الحماسية والأهازيج الحربية.

ثم رفع والد حصة يده متوعدا:

- أيُّ صفاقة وجه هذه؟ كان عليك أن تتربى أولا قبل الطمع في خطبة بنات الناس!

- التربية هي أن نعرف أقدار الرجال ومنازل الناس.

- أنت الذي لا تعرف أقدار الناس!

استمر الكلام للحظات والقوم وقوف، فقال القروي -وهو يتجه للخروج من باب المجلس- بصوت جهوري واضح:

- الفرق الوحيد هو أنني بدوي متعلم، وأنك بدوي من نوع آخر. أنا أحصي سبعة من آبائي كلهم عالم، ولعلك تحصي نفس العدد

من أجدادك قطاع طرق.

مشى أبو حصة وراءهم قائلا بصوت مرتفع فيه رعدة:

- لا مرحبا ولا أهلا.

ثم وقف وأشار لأبنائه بالسكوت، وهم يرقبون الخُطّابَ يخرجون إلى مواقف السيارات.

ودوّى صكُّ الباب مغلقا وراءهم بازدراء.

وارتمى القروي في المقعد الخلفي للسيارة، ومدّ مفتاحها لأحد مرافقيه دون أن يتكلم.

ساد صمت، لم يقطعه إلا رنين هاتف القروي الذي لا ينقطع. وكانت شاشة هاتفه تلمع: «مطوعة بريدة تتصل».

وقف أبو حصة وسط المنزل يصرخ كأنه ثور مقيد.

سمعته حصة، فقطعت الاتصال متواريةً من الردهة التي سيمر منها حتى لا يراها.

رمى غطاء رأسه وجلس دفعة واحدة في مجلس داخلي وقال لابنه الكبير:

- كيف يتطاول علي في بيتي؟ إن لم أخرج ذلك الوغد من هذه البلاد فأنا لست أباكم!

وضعت حصة يدها على صدرها، وتخيلت القروي يقاد إلى مخافر الترحيل بين مئات الهنود والأفغان من أصحاب الجُنَح.

وسارعت إلى غرفتها، وصكّت الباب وراءها، وارتمت فوق السرير الفاخر الذي تحول إلى شوك في تلك اللحظات.

كيف تفقده هكذا دفعة واحدة؟ وضج ذهنها بأسئلة أبدية.

كيف يتحكم والدي في مستقبلي لهذه الدرجة؟ كيف لا يسمح لي بأن أقرر، وأنا العاقلة البالغة الراشدة!

وتخيلت نفسها وهي تخرج من مطار الدوحة لتلقاه في جزر موريشوس. وتخيلتهما خارجيْن من مسجد وقد عقد قرانهما معمم إفريقي يراهما للمرة الأولى والأخيرة.... حلالا على سنة الله ورسوله، متسائلة كيف يُعقّد هؤلاء حياتنا لهذه الدرجة...

وسمعت طرقا قويا على باب حجرتها...

وقامت كالسكرانة لتفتح، فصكّ أذنَها صوتُ والدها:

- إن قال لي أي شخص إنكِ تحدثتِ مع ذلك النذل فلن تريْني ولن أراك ما حييت. وسوف.... وسوف....ثم ابتلع العبارة التي كانت على لسانه، وأغلق الباب بعنف وولى يهدر كأنه جمل هائج فُصل عن قطيعه بين رمال نجد.

أظلمت الدنيا في عينيها، ووقفت حائرة بين أبيها ومعشوقها.

والدها الذي لا تخرج دموع العطف والأبوة من عينيه إلا نادرا. تذكرته وهو يحملها ويلاعبها صغيرة، يأخذها إلى القارات الأربع، يطمئن على دراستها وعلى مستقبلها حتى صنع منها من هي الآن. كيف تؤذيه في شيبته؟

وحبيبها الذي عرفت معه معنى التوتر الممتع في الحياة، عرّفها معنى أن يتحول يومها إلى يوم مليء بتوتر السعادة، وكيف تستيقظ وهي تتحفز لاستقبال يوم جديد ستقابله فيه. وعرفها كيف تهبّ من نومها لتنظر هاتفها علّ به رسالة جديدة.

تعلمت معه تلك المعاني التي تجعل الحياة لذيذة شيقة مفعمة بالتوتر والجديد والمفاجآت، والشد والجذب، والرضا والغضب اللذين يعطيان معنى للحياة، لا ذلك الرضا الأبدي الشبيه برضا أهل المقابر، ذلك السكون الثقيل الذي يخيم على المقابر والسجون.

رازتْ قلبَها لتعرفَ في أي الاتجاهين يميل، فوجدته حائرا عاجزا عن الميل في أي من الجهتين.

هل تمسك حقيبتها وتهرب ليتزوجا في مكان بعيد، أم تنساه؟ وكيف لها أن تنساه؟

وقفزت فوق سريرها صائحة والعجز يكبلها:

- حسبي الله ونعم الوكيل!

ومر أخوها قرب الباب فسمع الصرخة تدوي. وتردد صداها في جنبات المنزل الفاخر وسط غيظ إخوتها، وحنقِ والدها الذي يكاد يخرج من جلده غضبا.



البصرة، 255 هـ

يتكومُ الجسدُ النحيل ممددا بين آلاف الكتب، داخل غرفة معزولة في زاوية من زوايا البصرة. تدور عيناه في سقف الغرفة فلا يرى إلا أكداس الكتب، نظر إلى كتاب مهترئ الجلد، فبرقت عيناه من الشوق، تأمله كأنه صديق قديم. فقد اشتراه من دمشق قبل أربعين عاما، يمد يده ليأخذه، لكنها لا تصل إليه.

أخذت الأيامُ من قوة جسمه، وأبدلتْه حدةً وقوة في العقل والشعور كلما تقدم به العمر. مد يده مرة أخرى ليأخذ الكتاب فلم يستطع. فقال بصوت متهدج:

- نفيييس!

لكن صوته الضعيف لم يتجاوز غرفته الموحشة المنزوية في الضيعة الواسعة.

بعد مضي وقت، نادى بنت أخته بصوت أضعف من الأول:

- يا مريم!

لكنه لم يسمع إلا تناوح الريح قرب نافذته.

مرت ساعات، احتاج فيها إلى من يساعده لقضاء حاجته... فبنت أخته ذهبت لبعض أوطارها وتأخرت كثيرا. أما نفيس فقد هرب إلى

سباخ البصرة والتحق بثوار الزنج الزاحفين على البصرة.

ردد ناظريه في السقف والكتب.. سرح خاطره مع عمره الطويل، وهو يغوص في الروائح النتنة.

ثم أفاق على بنت أخته واقفة على الباب ممسكة أنفها:

- كيف؟ لماذا فعلت هذا قبل عودتي؟

لم ينبس ببنت شفة، وغاص عقله الحاد على آلاف الأسئلة والمشاعر، وهو ينظر إليها وجفناه يتراقصان بسرعة، ردد النظر في بنت أخته، وفي السقف، وفي الكتب المبثوثة في أطراف الغرفة.

اقتربت منه، وفيما كانت تنزع الأذى من إزاره رأت دمعةً شاردة من عينه اليسرى، فأمال رأسَه على الوسادة حتى لا تراها.

شعرت بضيق مؤنبةً نفسَها على تأخرها عنه؛ فقالت له بلهجة اعتذارية:

- لابد من أن تغتسل اليوم وتتعطر، فقد يأتيك بعض طلابك.

لكنه لم يجبها، كانت المشاعر السائبة المتمنعة على اللغة تشعره بعبثية الحديث.

وقبيل الغروب بقليل، طلب منها أن تضع له وسائد وراء ظهره، فأسندته على وسادة ضخمة وهونصف مستقيم، استند مولّيا وجهه جهة الباب حيث تبدو الشمس صفراء ذاويةً جافلةً إلى الغروب. رفع حاجبيه المتهدلين فبدت له الشمس كئيبة متشبثة بالأفق رغم غروبها الوشيك.

كانت جنبات البصرة تضج بالهرج والمرج بعد ساعات من

استباحة الزنج لها، غير أن رجلا يقود حصانا عليه امرأة كان يقترب من هذه الضيعة المنعزلة رغم الهرج في أطراف المدينة.

فاجأ الجاحظ صوتٌ في الخارج، مسح اللعابَ السائل من فيه، ونظر جهة الشمس مرة أخرى فبدا الباقي منها أشبه بحاجب ميت يجود بنفسه، فُتح الباب، فرفع حاجبيْه متأملا... فرأى خيال امرأة يقترب.

تأمل وجه المرأة الشائبة وهي تدخل رأسها في باب الغرفة المعتمة. في هذه اللحظة نسي أنه مشلول منذ سنين طويلة، حاول القفز من مكانه، لكن شقه الأيسر خانه... فلم يتحرك من مكانه.

صرخت... ثم ارتمت فوق جسده!

أسندته إلى صدرها كأنه طفل رضيع، فيما سال على صدرها ماء... كان مزيجا من لعابه ومن دموعها.

وهو يردد:

- علية.. عدتِ يا علية!

***

الدوحة، 1440 هـ

مرت أيام ثلاثة لم يأت خلالها القروي إلى عمله بالقناة، بل نسي أن يستأذن أو يطلب إجازة، أو لعله تذكر فشعر بعبثية كل ذلك. ومرّ صديقه مازن على شقته بمنطقة السد باحثا عنه فلم يجده. ترك له رسالة طالبا منه أن يطمئنه على سلامته، بعد أن يئس من أن يرد على اتصالاته أو رسائله.

قضى القروي ثلاثة أيام لا يخرج من غرفته إلا ليلاً ليتمشى على حافة الكورنيش وحيدا. رفيقاه الحزن والغم. الحزن على ما وقع في الماضي، والغم مما قد تأتي به حُبلى الأيام.

كان يمشي الساعات على الكورنيش كأنه عاشق عُذْري مدلّه. يمشي على الحافة أحيانا وسط جموع المتريضين، وأحيانا يتجاوز الحاجز الإسمنتي لينزل إلى الماء ويجلس على طرفه ساعات كأنه صياد هاوٍ أو متسول مُشرد، وكلما تأخر الوقت ليلا وجد سلواه في هذا المكان.

فهو يتمتع بالليل أيما متعة، وكثيرا ما فكر في أن الليل مستودع أسرار العشاق والشعراء واللصوص والساسة ورجال الاستخبارات، وهو رفيق الحزانى وكاتم آهاتهم، وفي سواده العذب تنهل شفاه من شفاه، ويشكو المحبون لمحبوبيهم، وتروي الشفاه العطشى ممن سعت

وراءه طويلا، وفي تضاعيفه تتمرغ جباه النساك تعبدا، وتسيل دموعهم المدرارة بعيدا عن الأعين المتطفلة، وتحت ردائه العذب يبتل قلم الكاتب بعد يبس، ويجري على الورق بعد حِران، وتحت عباءة الليل وحده تُعبّر العذارى في خدورهن عما يعتلج في صدورهن الفاتنة من عشق وشوق وضرام.

جلس على حافة مياه الخليج الناعسة في ليل الدوحة، وغمس يده في الماء ثم مسح بها وجهه، والسؤال الذي يؤرقه لمَ لمْ تردّ حصة على اتصالاته.

قد يكون بسبب تضايقها من رفض والدها لزواجهما، لكنه يخشى أن يكون بسبب كلامه القاسي مع والدها وإخوتها، فهل هي غاضبة عليه أمْ له؟ هل هي راضية عنه أم مغاضبة له؟

هل انقطع التواصل لشدة كلفها به، أم لانزعاجها منه؟

نفض يده من الماء، وعاد إلى حافة الكورنيش ليتمشى، فتراءى له من بعيد المتحف الإسلامي متلففا في الظلام كأنه حسناء منقبة تطفو على الماء.

كان رغم تعاسته وحزنه يجد لذة دفينة في حالته تلك دون أن يكون واعيا بذلك.

فحالة القلق والتحول التي يعيشها يجد فيها ذاته، ويجد فيها ملامح محبوبته. فلا شيء يسرّه كلحظات التأرجح بين عالمين.

فالتأرجح هو أجمل ما في عالمه، فلا الوصول إلى ذِروة المبتغى لذيذا، ولا اليأس منه كذلك. بل تلك اللحظة المتأرجحة المشكوك في انتمائها لأحد الطرفين، فأجمل المدن ما وقع بين اليابسة والماء، وأطيب الهواء ما

وقع بين القارات، وأجمل النساء من تناوشتها الأعراقُ وتشاغبتْ فيها الأمزجة والألوان المختلفة، فوقفت حائرة بين السواد والبياض، وبين جعودة الشعر وانبساطه، وأجمل الأشخاص محادثة من تنازعته اللغات والثقافات المتباينة.

وما سبب انجذابه لحصة إلا ذلك التحول الأبدي والتأرجح الأزلي في مزاجها وتدينها وعملها وانتماءاتها.

كانت هذه الأفكار تلعب بذهنه وهو يكاد يقترب من فندق الشيراتون القابع على طرف كورنيش الدوحة، التفت يسارا إلى القهوة التي جلس فيها ذات يوم مع محبوبته.

فانتزع هاتفه واتصل عليها محاولا من جديد.

رنّ الهاتف طويلا ثم انقطع الاتصال، فردّ الهاتف لجيبه وهو يتمتم:

- إن المرأة ظاهرة متحولة.

فهي في تحولها كالشمس تفاجئك دائما بغروبها، مع أنك منذ عقلتَ تشاهدها تشرق وتغرب لكنها لا تفقد خاصية المفاجأة.

وكذلك المرأة، تصحبها وقتا طويلا حتى تظن واهما أنك عرفتها، فتفاجئك كل يوم بطبع جديد وأخلاق جديدة، ومراوغات جديدة، وصبيانية وتفاهات جديدة. فلحظة التحول وعدم الاستقرار التي تطبعها تجعلها فاتنة وساحرة، فمن ذا الذي يحب امرأة مستقرة المزاج، ذاك أتعس ما في المرأة. أجمل النساء هي تلك التي يشبه مزاجها جو بعض المدن الساحلية. حيث تمر بك الفصول الأربعة وأنت جالس تحتسي قهوتك، ما أسمج الرتابة. وصل نهاية الدرب المخصص للمشاة

على الكورنيش، فاستدار راجعا وهو يتذكر محبوبته، متذوقا جمالها لغويا وهو يتمتم:

- كانت عاصفة من الجمال، وأنشودة قلقةً للحياة.

* * *

يتضح من جلسة القروي بمكتبه في غرفة الأخبار أنه لم ينم جيدا البارحة ولا التي قبلها. يمد يديه متثائبا، ثم يرجعهما وراءه متثاقلا، مر رئيس التحرير بقامته القصيرة وبطنه المدور راكضا من وراء ظهره كأنه يلهث، ثم صفق بيده لمذيعة خرجت توًّا من موجز الأخبار قائلا:

- يا سلام عليك، إيه الجمال ده؟ أحببت تقديمك للموجز باللهجة، هذا ما نريده من الآن فصاعدا. لقد ابتعدنا كثيرا عما يريده الشباب، وسكنا في برج عاجي فصيح دهرا طويلا. حان وقت الخروج منه.

ثم رفع رئيس التحرير هامته الصلعاء الضخمة في وجه المذيعة وأردف:

- ولقد نزلتِ من ذلك البرج باحتراف أعجبني.

وأمطرت المذيعة مسؤولها بعبارات الشكر.

وجاء صوت صحفي من قسم الاقتصاد يقول:

- والله يا أستاذنا، لقد أصبحت القناة خفيفة، وما عندي شك أن مشاهدتها تضاعفت.

والتفت عشرات العاملين جهة الصحفي المعروف بتملقه لمسؤوليه. واجتاحت القروي موجةُ غضب لم يستطع السيطرة عليها، فالتفت جهة

الصحفي قائلا:

- كان بعض العوام يستصعبون شعر أبي تمام، فسأله أحدهم يوما: لِمَ لا تقول ما يُفهم؟ فأجابه: ولِمَ لا تفهمون ما يُقال؟!

وضجت ضحكات مختلفة من زوايا الغرفة، فتشجع القروي وهو يشعر بأنه في مهمة تاريخية:

- فهل المطلوب منا أن ننزل لدرك الضعفاء، أم المطلوب أن نرتفع بأذواقهم إلى مقامنا؟ إذا كان عندك تلاميذ نجباء في مدرستك وفيها بلداء، فهل المطلوب أن تقمع الأذكياء وتنزل بهم لدرك الأغبياء؟

وتبادل القروي ورئيس التحرير نظرات مترعة بالاحتقار المتبادل.

ورفع رئيس التحرير يده وحك صلعته وهو يتذكر بغبطة حديثه البارحة مع مدير القناة، حول اتصال رجل يشكو من تحرش القروي ببنته، وكيف قرر هو استغلال الموقف للتخلص من عبئه.

عاد رئيس التحرير راكضا إلى مكتبه كأنه بالون يتدحرج.

ردد القروي بصره في جنبات غرفة الأخبار، فبدتْ له كئيبة باردة كأنها مشرحة موتى. وضجت أذناه باللهجات واللحن، والتفت باحثا ببصره عن مازن، فرآه منهمكا في الحديث هاتفيا مع أحد ضيوفه.

وردد نظراته مرة أخرى في أطراف غرفة الأخبار فشعر بالضياع وعدم انتمائه للمكان. فوقف ماشيا، واخترق أذنيْه صوتُ صحفي سوداني يغني بأبيات من الشعر الشعبي في المديح النبوي.

وسمع شجارا بين منتج وصحفي في غرفة المونتاج، مختلطا

بتوسلات منتج نشرات لضيف كي يقبل الحديث على النشرة القادمة.

مشى بقدمين متثاقلتين وقلب كسلان، وصعد الدرج الذي أسلمه إلى الكافيتريا.

لم يطلب أي شيء، فلا شهية عنده لأي شيء. رمى جسمه على الكرسي، وجلس قبالة النافذة متأملا السيارات الغادية والرائحة في الشارع المؤدي للكورنيش. ثم تراءت له منارة مسجدٍ خاشعةً هادئة محيلة لعالم بعيد.

وأعاد بصره إلى الكافيتريا، ورمى نظره على المقعد الذي رأى عليه حصة آخر مرة. وانتابته موجة لا يعرف أهي موجة صبابة أم موجة غضب.

وضع ذراعيه على الطاولة ورمى بوجهه بينهما، فسمع صوت أحد المذيعين يقول:

- مالك يا محمد، ألم تنم البارحة؟

- أنا تعبان جدا.

ثم رأى مازن قادما يمشي بسرعة.

وسحب كرسيا بجانبه وجلس، دون أن يمر لطلب قهوته المفضلة. ثم مال على القروي وقال:

- هل ما سمعته صحيح؟

- وما ذا سمعت؟

- إذا لم يكن عندك خبر فيعني أن الأمر غير صحيح!

- لا، قل لي، ماذا سمعت؟

وتأمل مازن وجه صاحبه، فلاحظ انطفاء اللمعان الذي كان في عينيه، وخُيل إليه أنه لم ينم منذ مدة. ثم أردف متلعثما:

- سمعت أن رئيس التحرير ومدير البرامج حصلا على موافقة لإقالتك من عملك.

- حق الله؟!

لكنه لم يمدها هذه المرة كما يفعل عادة، بل نطقها كأنه لا يبالي.

فلم يشعر القروي بأي مفاجأة أو انزعاج مما سمعه، فقد بدأ يشعر منذ فترة بالرغبة الجامحة في مغادرة المكان، وصُدم مازن من ردة الفعل الباردة لصديقه.

فبادره بلهجة متطلعة:

- شو؟ هل وجدت وظيفة بديلة؟

كان القروي عميق الإيمان بأن الأرزاق بيد الله، فنظر إلى الفلبينية المنشغلة بإعداد القهوة وقال عبارته الأثيرة:

- إذا غلا شيءٌ أرخصتُه بالترك. لا أريد هذه الوظيفة ولا وظيفة بديلة عنها.

* * *

مرّ عليه شهر كامل وهو يعيش مشردا على ضفاف الكورنيش، كان ينام في سيارته ليلا، ويقضي معظم نهاره في دار الكتب القطرية بمنطقة أم غويلينة، يجلس هناك للبحث والكتابة، مصمما على إكمال روايته عن الجاحظ.

يئس كل معارفه من إقناعه بالسكن في بيوتهم حتى يتيسر له قضاء

القرض الذي يطالبه به البنك، فبعد إقالته من وظيفته أرسل البنك اسمَه للمحكمة فوضعته على قائمة الممنوعين من السفر.

قبل أيام جاءه أحد وجوه الجالية الموريتانية في الدوحة مصمما على ألا يتركه حتى يذهب معه إلى بيته، لكنه بعد محاولات لساعات فشل في إقناعه.

وبعد ذهاب الرجل عنه، خرج من سيارته ومشى على طرف الكورنيش مرددا قول الشنفرى بزهوٍ شديد:

وأستفُّ تربَ الأرض كيْلا يرى له

عليَّ من الطول امرؤٌ متطول!

اتفق مع أحد العمال الهنود على مائة ريال في الشهر مقابل السماح له بالاستحمام عنده كل يومين، فكان يخرج إليه، ثم ما يلبث أن يعود إلى مكانه على الكورنيش. وأصبح كل من يتريض على ضفاف الكورنيش معتادا على رؤيته جالسا القرفصاء وسط سيارته أو تحت نخلة يقرأ ويكتب.

اختفت معالم التأنق التي عُرف بها، وتكاثف شعر رأسه ولحيته. أصبح شبيها بيساريي سبعينيات القرن العشرين، لكنه مع ذلك لم يكن حزينا، بل كانت السعادة أغلب على مزاجه من التعاسة. فقد شعر بأن عليه أن يثبت أنه لم يخسر، بل أولئك الذين أقالوه هم الخاسرون، لا يضايقه إلا أمر واحد؛ هو أن أمه اتصلت به لتخبره بأنها ستبيع عشرين ناقةً من الإبل التي ورثتها عن والدها لتسدد عنه الدين. كلما تذكر ذلك الأمر، شعر بضيق خانق وحزن كاسح، غير أنه ضيق يدفعه إلى إكمال روايته عن الجاحظ، لا ضيق يدعو إلى الكسل والخمول.

ناقش أمه مراتٍ حتى أقنعها زوراً بأنه يطالب أحد أصدقائه بدين سيرده له قريبا، وأن ذلك الدين كفيل بإخراجه من ورطته.

***

في أحد صباحات السبت، كانت سيارة مرسيدس فارهة تسير بهدوء على طرف الكورنيش، إلى أن صرختْ داخلها فتاة، فتوقفت.

أطلت الفتاة من النافذة لتتأكد من لوحة السيارة التي كان القروي يجلس داخلها.

تأملته... تأملت شعره الثائر، وملابسه المتسخة. وتذكرت صور المشردين الذين كانت ترثي لحالهم في مترو الأنفاق خلال إجازاتها الصيفية بباريس، وانهمرت الدموع من عينيها مدرارا، وهي تضع يديها على زجاج نافذة السيارة التي يقودها والدها.

والتفتَ إليها والدُها متأملا إياها دون أن تنبس، ثم أعادت النظر إلى الشاب وأعادت عينيها إلى والدها، فانهمرت دموعهما معا. لم يشك والدها للحظة أن الرجل أصيب بالجنون بسبب رفضه الزواج من ابنته.

وشعر بجبال الدنيا تستقر على كتفيه، شعر بالرغبة في الانتحار، فكيف يُجرّع مخلوقا كل هذه المرارات. واستيقظت داخل نفسه شيم نخوة طمرتْها العصبيات طويلا. أوقف سيارته على طرف الشارع الصاخب، وفكر في النزول، تردد، ثم نزع نظارتيه ومسح دموعا انثالت من عينيه في صمت.

بقيا صامتين... يراوحان بين النظر إلى القروي المندمج في قراءة كتاب داخل سيارته، وتبادُلِ نظرات ثقيلة مليئة بالأسئلة والحيرة والتأنيب... والتلاوم.

وضغط والدُ حصة على دواسة الوقود بقوة، فانطلقت السيارة بسرعة، بينما كانت حصة مُلتفتةً تنظر من الزجاج الخلفي للسيارة الفاخرة، ودموعُها تتحدر لآلئَ على خديها. قاد سيارته بسرعة محاولا التحرّرَ من صراع يضطرم نارا بين جوانحه. ضغط دواسةَ الوقود وعضّ على شفتيه كأنه يحاول الإفلات من شيمٍ وقيمٍ تتململُ لتستيقظَ بين ضلوعه رغماً عنه.

لم يلاحظ القروي أي شيء مما دار.

وبعد يومين، رنّ هاتفه برقم سويسري غريب:

- السيد محمد القروي؟

- نعم.. تفضل..

- أنا عمران إسحاق من شركة غوغل بزيورخ.

- نعم

- هل الوقت مناسب للحيث؟

- جدا، بكل سرور.

وانطلق المتصل شارحا كيف قررت غوغل عرض وظيفة عليه للخدمات الجليلة التي أسداها لها عن طريق تصحيحه للترجمات. وكيف أن المختصين في الشركة انتهوا إلى أنه عقل لغوي لابد من تعيينه مستشارا.

وكان آخر ما سمعه القروي:

- لا إشكال... يمكننا منحكم قرضا، رتب أمرك لتأتي إلى زيورخ.

ووقف القروي على حافة الكورنيش متأملا الزوارق الصغيرة

الطافية على صفحته، ودموعُ السعادة تنبجس من مآقيه... مختلطةً برذاذ متصاعد من حافة مياه الخليج.

سافر خياله بعيدا، ضاجًّا بصور متناقضة. استعاد صورة أمه وهي تبيع نوقا تلادا مما ورثتْه من والدها، مع صور موظفي غوغل بمقر الشركة بزيورخ.

ثم سرح ذهنه إلى بلاد يستطيع السير فيها متى شاء وأنى شاء وكيف شاء... صحراء، لا سلطان لأحد عليه فيها.

* * * انتهى * * *

أحمد فال ولد الدين

الحدقي

بين الراهن والماضي، والجاهز والمبتدع، مسافةٌ شاسعةٌ، تقلّصها هذه الرواية حتّى يغدو الحاضر توأم الماضي، والشخصيّة الضاربة في التاريخ مرآةً للشخصيّة المقيمة في لحظتنا المعاصرة.

هل تتحدّد قيمة المرء بذاته، بالهويّة التي ينحتها لنفسه، وبالمسار النازف في الصخر الّذي يختطّه لقدميْه، أم تتحدّد قيمة المرء بسلالته، بالهويّة الجاهزة سلفًا والطرق التي عبّدها أسلافه لخطاه المرتبكة؟

كاتبٌ وعلامةٌ من علامات الفكر العربيّ في القرنين الثاني والثالث الهجريين، هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ومدقّق لغويٌّ في قناة إخباريّة من هذا الزمان، يجمعهما القدَر نفسُه والمصيرُ نفسُه لفرط اهتمامهما بالتفاصيل في عالمٍ لا يأبه لغير الكليّ من الأفكار والشموليّ من التصوّرات، وبذلك يصير الجحوظ الحسيّ جحوظًا نفسيًّا ومعرفيًّا في آنٍ واحدٍ، ويصبح الحُلم بالتغيير شذوذًا يُحفظ ولا يُقاس عليه.

هذا العمل يحطم نرجسيتنا بالإقرار بأننا في اللحظة الحاضرة لسنا أوفر حظًّا ولا أعظم أداء وفاعلية من أسلافنا على الرغم من تقدّمنا في الزمن واطّلاعنا على أحدث المعارف. إنما نحن تكرار مقصود لأصل متجذر.

أيمن مبروك

ISBN: 978-9938-992-77-9

